نجيب الكيلاني

ابن بطوطة الرياضي

دار الشروق

ابن بطوطة الرياضي

الطبعة الثانية

١٤٠٨هـ - ١٩٨٨م

○ دار الشروق

بيروت: ص.ب: ٨٠٦٤ - هاتف: ٣١٥٨٥٩ - ٨١٧٧٦٥ - ٨١٧٢١٣ - برقياً: داشروق - تلكس: SHOROK 20175 LE
القاهرة: ١٦ شارع جواد حسني - هاتف: ٧٧٤٨١٤ - ٧٧٤٥٧٨ - برقياً: شروق - تلكس: 93091 SHROK UN
SHOROUK INTERNATIONAL, 316/318 REGENT STREET, LONDON W1, UK, TEL. 637 2743/4, TELEX. SHOROK 267708

مقدمــة

عندمــا شرعــت في تأليف هذا الكتـــاب وبـدأت برحلاتي في أوغنـدة بوصفهـا أول إطلالـة لي علـى أفـريقيا والسحـر والأدغـال والمجهـول اكتشفـت استحالـة الاسهـاب في سرد خواطري وأفكاري علـى نفس المنـوال، وإلا تحول الكتاب إلى مجلـد، فعمـدت إلـى الاختصار في تقديم الدول الأخرى للقـارىء، بما يكفي لإعطائه فكرة كاملة عنها وما صادفني خلالهـا من مشاهـدات وطـرائف وتقـاليد من جهة، وإرجاء الحديث عن ٣٢ دولة أخرى كان لي حظ زيارتها، إلى جزء ثانٍ من الكتاب، أرجو الله أن يعينني على إصداره في أقرب وقت، نظراً لانشغالـي في إعـداد عدد آخـر من الكتـــب الـرياضية والأدبية، وإشرافـي علـى مشـروع كتاب «الشروق الرياضي» من جهة أخرى.

أدعـو الله أن يوفقنـي إلـى خدمـة الشبـاب والقراء.

نجيب المستكاوي

أوغندة لؤلؤة أفـريقيا

أول إطلالة على قارة السحر والمجهول!
الكاباكا مسيحي وأخوه مسلم وابن عمه زعيم المسلمين!
وسط الأسود والأفيال وأفراس النهر والتماسيح!
أجمل مناظر العالم عند شلالات مورشيزون ومنابع النيل!
غابات مخيفة ومناطق فسيحة لم تطأها أقدام البشر!
صلة العرب بأوغندة اقتصادية وليست لتجارة العبيد!
في مساكا نضـع رجـلاً في نصف الكرة الجنوبي وأخرى في الشمالي!
عندما داهمتنا حرب يونيو ١٩٦٧ ونحن نلعب في كمبالا!
كيف عدنا إلى القاهرة بالطائرة والقطار والعبّارة؟
السودان يستقبلنا بمظاهرات عاطفية وشهامة عربية!

قديماً قالوا إن عجائب الدنيا سبع.. ولكن الحقيقة أن في الدنيا من العجائب بقـدر ما فيهـا من بلاد.. ومـا زال الكثـيرون إلى الآن يقارنون بين البـلاد ويشيدون بمـا في بعضهـا دون غيرهـا من لمحـات جمال.. ولكن الحقيقة أن لكل بلد جمالاً خاصاً ينفرد به.. فالجمال ليس نمطياً وإنما هو اشكال وألوان.

وقديماً قالوا «سافر ففي الأسفار خمس فوائد».. لكن الحقيقة أن في الأسفار فوائد لا تحصى ومعارف لا تعد ومشاهدات أغرب من الخيـال وطرائف لا تنسى على مر الأيام.

وأحمد الله على أن ظروف عملي كصحفي رياضي أتا
أسافر كثيراً، وأن أذرع الكرة الأرضية طولاً وعرضاً، لمتابع
الأوليمبية والبطولات العالمية ومختلف المناسبات الرياضية، و
فرصة سفري عملي التطوعي في اللجنة الأوليمبية المصرية واتح
القوى والمصارعة.

ويسعدني أن أقدم في هذا الكتاب خلاصة تجاربي
وكل طريف وجديد ومفيد مما اكتسبته من رحلاتي الكث
القارات الخمس، راجياً أن تجد فيها من المتعة ما يروّح عن
الفائدة ما يثري فكرك من خلال المعرفة والخبرة والعبرة.

ولأن السفر الطويل شاق أحياناً، والاقامة الطويلة في
قد تورث الملل، فقد فضلت أن ننتقل من بلد إلى آخر
بالترتيب الزمني للأسفار أو بالترتيب القارّي للرحلات. فإذا
التعرف على أوغندة التي نبدأ بها جولاتنا هذه، قد تكون ر
إلى الصين أو المكسيك أو اسكندناوة.. أو حيثما تقف
المفاجآت. ورحم الله ابن بطوطة.. الذي لف الدنيا.. على
والآن إلى أوغندة..

لا أدري لماذا اخترت أن أبدأ بأوغندة..

ربما كان ذلك بسبب الرباط الوجداني أو شريان الحياة ا
بين مصر والسودان وأوغندة وهو النيل العظيم.

وربما كان سبب ما استقر في أذهاننا ونحن في طور ال

أفلام طرزان وشيتا والتاجر هورن وغيرها، التي أثارت فينا الشوق والفضول إلى السحر والخطر والمجهول، الغابة الرهيبة والأدغال وآكلة لحوم البشر، والأفيال والأسود والنمور.

وربما لأني وجدت فيها من جمال الطبيعة وبهاء الخضرة ما يزري بأجمل مغاني أوروبا. وربما لكل هذه الأسباب مجتمعة.

ولقد زرت أوغندة عدة مرات، على فترات، وما زلت أشتاق إليها لأنها متجددة دائماً غضة الإهاب خالدة الشباب. كانت زيارتي الأولى لها عام ١٩٦٤ مع فريقي مصر لكرة الطائرة وكرة القدم المشتركين في تصفيات الدورة الأفريقية الأولى في الكونجو برازافيل عام ١٩٦٥. وكانت التصفيات بين فرق مصر وأوغندة وكينيا في كمبالا.

وعندما هبطت بنا الطائرة في مطار عنتيبي على شاطىء بحيرة فكتوريا العظيمة لم أصدق أني فوق خط الاستواء، وكانت أول فكرة خطرت على بالي أن ألعن الإستعمار الذي يسمي هذا الجمال الرائع والخضرة اليانعة مجاهل أفريقيا أو أدغال القارة السوداء. وعندما تجولت في هذه الحديقة الفسيحة كنت ألعن الاستعمار المضلل الذي يرتع في هذه الربوع الخضراء السخية وسط الخيرات الوفيرة ليستأثر بها ويلهي الناس عنها، بادعاء أنها أدغال خطيرة سوداء، حتى استقر هذا الزعم في الأذهان.

وعلى مدى البصر كانت تمتد البحيرة المهولة التي ينبع منها النيل العظيم ويحمل لنا منها الماء والخير والنماء، وتربطنا بها وشائج أقرب إلى

وشائج القربى لأن النيل ليس نهراً بقدر ما هو شريان حياة.

وعلى مدى البصر حرستنا الخضرة الرائعة على جانبي الطريق حتى وصلنا إلى كمبالا، لنستقر في «الفندق الكبير». وتوافد علينا الشباب الأوغندي البسام يجاذبنا أطراف الحديث في ود وإعجاب. كانت أنسام الحرية التي هبت من مصر قد سرت في القارة الخضراء، وبدأت دولها منذ بداية الستينات تنعم بالحرية والاستقلال، ومنها زالت الحواجز، وتحقق التقارب بين الشباب.

كمبالا معسكر الغزلان!

نسيت أن أقول إن أوغندة مساحتها ١٠٠ ألف ميل مربع، خضرتها دائمة وأمطارها غزيرة متوسطها ٣٥ بوصة في السنة، وموسم المطر فيها يمتد تسعة أشهر، ولسوء حظنا كانت نهايته يوم مباراتنا معها في كرة القدم! وتعدادها ٦ ملايين نسمة وأراضيها المزروعة فعلاً ٦ ملايين فدان، والصالحة للزراعة عشرات الملايين من الأفدنة، وتجود فيها دون أدنى تعب، وبالحد الأدنى للفلاحة وهو مجرد بذر البذور، كل أنواع المحاصيل!

والعاصمة كمبالا تحفة طبيعية، مبنية على سبعة تلال خضراء تعلوها وتتوسطها البيوت بهاماتها الحمراء، كأنها أوكار نسور في الغابة ومعناها اللفظي «معسكر الغزلان»، وتعدادها زهاء ١٥٠ ألف نسمة.

الغرور والهزيمة المؤسفة!

الجالية المصرية في أوغندة كانت تتكون في ذلك الوقت من سبعة أو ثمانية أفراد هم السفير جمال بركات وسكرتيري السفارة، ومهندسين في جهاز ضبط مياه النيل يقيمان في مدينة جنجا وأحدهما هو المهندس محمد عبد الهادي سماحة وزير الري المصري السابق. ومدير مكتب شركة مصر للطيران. الجميع كانوا فرحين بنا، لا يكادون يفارقون البعثة. وقد ازدادوا فرحاً حينما فزنا على كينيا بسهولة ٣/ صفر في الكرة الطائرة وتأهلنا لدورة برازافيل، ثم عندما فزنا على كينيا بمعجزة تلاعبت بأعصابنا ٤/٣ في آخر لحظة، بعد أن تقدمت كينيا علينا في كرة القدم ٣/ صفر بعد ٢٠ دقيقة!

وكان المهندس محمد عبد الهادي سماحة يلح علينا، يوسف الشريعي رئيس بعثة كرة القدم، والكابتن محمد لطيف المعلق التليفزيوني الشهير وأنا، لكي نخلق فرصة لنزور منابع النيل في جنجا، وشلالات مورشيزون على نيل فكتوريا، والأدغال وحديقة الحيوان المفتوحة، لنرى أفريقيا على حقيقتها ونستمتع بالسحر والتوقع وانتظار المجهول. إلاّ أننا قررنا بعد خضة مباراة كينيا ـ أن نؤجل رحلة العمر إلى ما بعد مباراتنا مع أوغندة، ولو أنها خسرت أمام كينيا ١/٢، ومن هنا فإن فوزنا شبه مضمون!

لكن الغرور ـ قاتله الله ـ أتى لنا بما ليس في الحسبان! غرور قاتل تطرق إلى نفوس لاعبينا لسببين: أولهما أنهم هزموا أوغندة ذهاباً وعودة

في تصفيات دورة طوكيو عام ١٩٦٤ مرتين بفارق كبير، وثانيهما أنهم فازوا في دورة طوكيو، بالمركز الرابع! ثم جاءت الأمطار فزادت الطين بلة، وانهزم فريقنا هزيمة مؤسفة ١/ ٥، وخرجنا من التصفية!

وجلست مبهوتاً، أفكر في الغرور، آفة البشر من قديم الزمان! الغرور الذي أدى إلى حكم الآلهة في الميثولوجيا الإغريقية على بروميثيوس بالتعليق في الجبل مكبّلاً حتى تلتهم النسور كبده! الغرور الذي جعل بيلو البطل الأوليمبي في المصارعة، الذي كان يرفع ثوراً، يقطع شجرة بلوط بسيف يده، فتنطبق عليها حتى تأكله الوحوش! الغرور الذي أودى بنابليون وموسوليني وهتلر! الغرور الذي ضيع شباب نجوم الفن والسياسة والرياضة في شرخ الشباب وفي عنفوان القوة.

إنه.. الكاباكا!

وأفقت من تفكيري في الغرور وعواقبه لأتذكر ما لاحظته قبيل بداية المباراة. فقد شاهدت رجلا سميناً يدخل الملعب، يلبس حلة حمراء زاهية موشاة بالقصب والذهب، تحيطبه شرذمة من الأتباع يحملون مظلة موشاة ضخمة تقيه وهج الشمس، والبعض «يروّح» عليه بمراوح من ريش النعام، والملعب يقف إجلالاً له!

ويتبين أن الرجل هو الكاباكا! وهو ملك بوجندة أكبر ممالك أوغندة. فأوغندة دولة تتكون من أربع ممالك هي بوجندة وأنكولي

وبوتيورو وتورو، وإقليم هو بوزوجا، وبينها جميعاً اتحاد فدرالي، و١١ محافظة، ويرأسها السير فريدريك موتيسا الثاني، وهـو ملك بـوجنـدة واسمه الكابـاكا. أمـا رئيس الـوزراء المركزي فهـو الدكتـور ميلتـون أوبوتي، الذي عاد الآن بعد استبعاد عيدي أمين.

عجائب أوغندية دينية!

والكاباكا مسيحي، ومع ذلك فإن شقيقه مسلم، وابن عمه الأمير البدر هو زعيم المسلمـين في أوغنـدة، وقـد حمـل إليه المهنـدس أحمـد الدمرداش توتي رئيس البعثة المصرية وعضو اللجنة الأوليمبية الدولية في مصر هدية قيمة هي مصحف مرتل. وفي أوغندة جالية مسلمـة كبـيرة تعدادها مليون نسمة.

وأعلم من المهندس محمد عبد الهادي سماحة أن هذه الأوضـاع عادية في أوغندة، فقد يكون الأب مسيحياً والابن مسلماً أو العكس. وألاحظ أن «معسكر الغزلان» فيه المساجد والكنائس والمعابد البوذية جنباً إلى جنب.

وأقول له: أريد أن أختلط بالناس، أن أعرف العادات والتقاليد واللغة، وسياسة الدولة. ويقول لي: أمامكم عدة أيام قبل أن يحين موعد الطائرة التي تقلكم إلى القاهرة، وهي تكفي للالتحام بالشعب، ومعرفة كل ما تريد، لكن الأولوية لرحلة حدائق الحيوان المفتوحة، حيث تواجه الغابة.. والسحر.. والمجهول!

ونجتمع، ونسأله: اعطنا نصائحك! ويقول: ستركبون عربة مفتوحة مصفحة. لا تنزلوا من السيارة. واعلموا أن الأسد لا يهاجم، وزوجته هي التي تتولى الحصول له على الفريسة. النمر غدّار، الفيل المفرد لا يخيف لكن الجماعة تسحق. الخرتيت خطير لأنه يمكن أن يقلب السيارة. وأقول له: اللواء طلعت فريد وزير الداخلية السوداني الأسبق قال لي إن أخطر الحيوانات الوحشية هو الجاموس البري العنيد الذي يتلقى الرصاص ولا يبالي ويستمر في الهجوم. قال: هذا صحيح، لكن اعتقادي أنكم لن تطلقوا الرصاص!

واتفقنا على أن نبدأ في الفجر رحلة العمر.. في الغابة!

* * *

في الفجر قمنا من كمبالا.. في سيارة مصفحة الجنب مكشوفة السقف حتى يمكن التصوير.. واتجهنا نحو الغابة يستبد بنا الفضول ويطوّقنا المجهول. السكون مطبق كالصمت الرهيب.. لا يقطعه بين الحين والحين إلا صوت اجش لطائر عربيد. والظلام حالك دامس.. يحاول نور الفجر الذي شقشق أن يبدده على استحياء.. ورويداً رويداً بدأنا نشاهد البجع الضخم يترك أوكاره ويحلق حول الطريق.. وجيوشاً من القرود تنط في نشاط عجيب بين فروع الشجر أو تعترض طريق السيارة. لكي يهشها سليمان الذي يقودها بسرعة رهيبة..

وبعد زهاء ساعتين تسللت أشعة الشمس لتهتك حجب الظلام.. لندخل منطقة جرداء مليئة بجذوع أشجار خاوية وكتل مرتفعة

من الطين تشبه صوامع الغلال الريفية. . ونسأل السائق سليمان فيقول: إنه النمل الأبيض!

جيوش لا نهاية لها من هذه الحشرة الفتاكة التي تهلك الزرع والضرع، ولا تبقي على أخضر ولا يابس. وينتحي سليمان بنا جانباً، ويستأذن في التوقف دقائق. . ويتجه إلى كوم من هذه الأكوام الطينية. . ويبدأ القزقزة. . فهو يتناول إفطاره. . ونحن نتقزز!

ونسأل السائق: ومتى نفطر نحن يا سليمان؟ فيقول: بعد ساعة نصل إلى «ماسندي»، على نيل فكتوريا. فطوركم جاهز هناك، في الفندق.

الطرابيش في ماسندي!

ومنذ أن وصلنا إلى مشارف ماسندي بدأت تطالعنا الطرابيش فوق الرءوس. ونسأل، ونعرف أن جيوش ابراهيم باشا وصلت إلى هذه المنطقة. . في عهد محمد علي الكبير في حروبه لتأمين منابع النيل. وقد تركت حملة ابراهيم باشا فيما تركت من آثار هذا الزي الذي ظل قائماً في المنطقة إلى الآن رغم انقراضه من مصر!

ونتوقف عند فندق غاية في النظافة والأناقة، مبني على الطراز الانجليزي الريفي. ونتناول إفطاراً شهياً من الشاي واللبن والزبد والمربى والجبن والبيض ثم أقداح القهوة. ويتقدم منا سليمان ويقول: هيا، فنحن على بعد دقائق من أعجب منظر في العالم!

شلالات مورشيزون العجيبة!

ونصل إلى شلالات مورشيزون ـ المسماة باسم مكتشفها ـ لنشاهد الجمال الجليل! آية من صنع الله جلت قدرته. شيء لا يوصف. لا اللغة العربية ولا أية لغة فيها من الألفاظ ما يعبر عن روعة المشهد المهيب.

النيل في هذه المنطقة الصخرية يضيق مجراه إلى عدة أمتار، ويتدفق بسرعة رهيبة، وقوة عنيفة، ليصب في هوة عمقها ٤٠ متراً، ومع سرعة المياه وارتفاع المسقطتتكون ألوان الطيف من العمق إلى السماء لترى أكبر قوس قزح في العالم، ورذاذ الماء البارد يتطاير ليملأ الآفاق!

لوحة لا تملك إزاءها إلا أن تقف مبهوتاً مبهوراً معقود اللسان، خافق القلب محبوس الأنفاس، إلا من نفحة إيمان بقدرة الخالق تهز منك عمق الوجدان!

على مشارف المجهول!

ونستأنف رحلتنا، وتبدأ الغابة في الانحسار والانفراج لتبرز لنا مناطق شاسعة من الأعشاب والشجيرات والأحجار، ونلمح لافتة كبيرة مكتوب عليها بخط كبير واضح: ممنوع الصيد في هذه المنطقة.

ونعرف أننا وصلنا إلى حديقة الحيوان المفتوحة، التي تشغل بضعة آلاف من الأميال المربعة، وهي على كل حال الحديقة الصغيرة، لأن الكبيرة على الناحية الأخرى من النيل، ويحتاج التجول فيها إلى أيام.

وفي البداية شاهدنا قطعاناً من الغزلان الجميلة النافرة، ومن حمار الوحش، ثم الزراف. ثم فوجئنا بمشهد فريد. خلف أكمة من الأحجار والحشائش انفردت أربع من زوجات الأسد وأربعة من الأشبال بجثة حمار وحش ذبح للتو، وعلى بعد منها تمدد الأسد الضخم يتمطى ويتلمظ في انتظار انتهاء الحريم والأولاد من الأكل ليبدأ هو في تناول وجبته الشهية. والأسد لا يأكل الجيفة أبداً. وحاول بعضنا أن يقترب من الأكمة لكي نصور المنظر الرهيب، ولكن تغلبت الحكمة في آخر لحظة عندما تذكرنا المثل القائل: ابعد عن الشر وغني له!

وطالت الجولة زهاء ساعتين. ظهرت لنا خلالها قطعان أفيال وجاموس بري فوق الحصر، وقليل من الخرتيت المخيف، وقد جرى أحدها وراء السيارة يريد أن ينطحها ويحطمها كأنما عقاباً لها على ما احدثته من إزعاج. أما القرود ففي كل مكان، ومن كل الأحجام والأنواع. من النسناس الصغير احسن بطل جمباز في العالم إلى الأورايخ أوتان!

وكانت وجهتنا مدينة «بارا» الواقعة على الشط الآخر من نيل فكتوريا الذي يصل بين بحيرة فكتوريا وبحيرتي ألبرت وستانلي على حدود زائير. وركبنا معدية، وذهبنا إلى فندق جميل به شرفات واسعة تقابل أشجاراً وارفة باسقة. وجلسنا نستريح ونشرب قهوة في انتظار وصول السفينة لكي تقلنا في رحلة نيلية إلى شلالات مورشيزون ثم تعود.

وجهاً لوجه مع فيل!

وفوجئت بزلومة فيل تداعبني! تقبلت الدعابة في البداية بدون ذعر، لكن عيني وقعت على لافتة تقول: الأفيال التي تظهر في هذا المكان غير مستأنسة!

وحاولت أن أنهض لكي أجري، لكن تسمرت في مكاني، لم تطاوعني ركبتاي. وتلفت حولي لأستنجد بزملائي، إلا أني لم أجد أحداً، كانوا قد لاذوا بالفرار! وكان الفيل ظريفاً لطيفاً، ولعله قد أشفق عليّ فانصرف في هدوء، والتقطت أنفاسي، وعاتبت زملائي الهاربين فقالوا: أصلنا قرأنا الإعلان قبلك!

وتحركت بنا الباخرة، وهي أشبه بعبّارة صغيرة. وإن هي إلا خطوات حتى شاهدنا العجب. الرحلة من «بارا» إلى شلالات مورشيزون تستغرق زهاء ساعة. وفي كل لحظة من هذه الساعة تمخر الباخرة عباب نيل فكتوريا فوق عشرات الآلاف من فرس النهر ـ السيد قشطة ـ بحجمه الكبير.

التمساح وفرس النهر معاً!

وكانت تصحبه أحياناً مجموعات ضخمة من التماسيح، دون تزاحم ولا عراك، كأن بينهما معاهدة تعايش سلمي. إلا أن «الدليل» أوضح لنا أن التماسيح تتشمس عادة على الشطمستخفية وراء الأعشاب، لكي تنقض على فريستها فجأة. وجعلت السفينة تقترب من الشطلنرى

جحافل التماسيح تزحف إلى الماء لتغوص تحتنا كأنما لتبث في قلوبنا الرعب!

وفي وسط هذه المناظر الرهيبة تطالعك الغابة الحقيقية. . الغابة الكثيفة على شطي النهر الخالد. . وأشجارها الضخمة تنفرج عن فيل أو خرتيت أو نمر أرقط ليشرب جرعات من الماء. . ونصل إلى شلالات مورشيزون من الخلف، ونرى ألوان الطيف تتكون من تحت بعد أن رأيناها تتألق من فوق. ونعود إلى بارا لنستأنف رحلة العودة إلى معسكر الغزلان. . إلى كمبالا. . ونحن نتأمل: أين في العالم كله مثل هذا الجمال المفعم بالألغاز والأسرار؟ ترى ما وراء هذه الغابات الكثيفة الأشجار؟ هل هناك أكلة لحوم بشر حقيقة؟

شجاعة المستكشفين!

وعند هذه الفكرة لا بد أن ترتعد! لكنك لا تملك إلا أن تعجب بشجاعة كبار المستكشفين، الذين واجهوا المجهول بقلوب من حديد. صحيح أننا نلعنهم أحياناً لأنهم كانوا وراء الاستعمار، إلا أنهم اقتحموا المجاهل وعانوا الأهوال، وشقوا هذه الغابات بسيوفهم ليجدوا منفذاً يتسع لخطاهم، وهم لا يرون ماذا تخفي لهم الخطوة التالية، سواء كانت أفعى هائلة تهصر الجسم، أو أسداً يلتهم، أو قبيلة من أكلة لحم البشر، ترقص من حولهم، وتشعل النار على قدر مملوءة بالماء لسلق «الصيد» السمين!

وتذكرت أن مغامرات كبار المستكشفين هي من أحسن ما قرأت

من كتب: ابتداء من حانون إلى ابن بطوطة، إلى بارتلوميو دياز وبرازا وستانلي وليفنجستون وماركوبولو وماجلان وكولمبوس وفيسبوتشي وغيرهم، ومنهم من لاقى حتفه في بعض هذه المغامرات.

اختلاف الأذواق والمذاق!

وبدأنا رحلة العودة بعد الغروب، وداعبت سليمان السائق فقلت له: ما هذا الذي فعلته في الصباح؟ إياك أن تتوقف لتتناول طعام العشاء من النمل الأبيض مرة أخرى!

وضحك الرجل وقال إنه لا يشعر بالجوع! ولكني تأملت: لماذا تقززنا؟

إن قبائل البشارية وغيرها في جنوب مصر، وقبائل بدوية وصحراوية كثيرة أخرى تأكل الجراد، وتتقزز من الجمبري الذي نشتري الكيلوجرام منه بأكثر من عشرة جنيهات ويعد من أشهى الأطعمة. وهناك من يأكل الزواحف حتى الأفاعي، وما الفرق بين أفاعي الأرض وثعابين البحر؟ بل هناك من يأكل فأر الغيط السمين ويقول إنه أشهى من لحم الأرنب! إلى هذا الحد تختلف الأذواق بين البشر!

وما أن ورد على ذهني لفظ «البشر» حتى فاجأت سليمان بسؤال عفوي:

قل لي يا سليمان.. ألم تذق طعم لحم البشر؟

* * *

عندما فاجأت سليمان قائد السيارة بسؤالي: هل أكلت لحم البشر؟ لم يتردد الرجل وقال: أعتقد أنه لا يوجد في أوغندة الآن من يأكل لحم البشر، لكنني سمعت أن هناك جزيرة مأهولة في وسط بحيرة فكتوريا غير أنها معزولة لا يقترب منها أحد بسبب إشاعة تقول بأن القبيلة التي تسكنها تمارس هذه العادة. وصمت لحظة ثم أضاف وهو يشير بأصبعه إلى الغابة الكثيفة: ومن يدرينا ماذا هناك؟ في الغابة الكثيفة مناطق لم تطأها قدم بسبب كثافتها وخطورتها، ولعل فيها قبائل تعيش في حالة الفطرة، وتمارس كل ما لا يخطر على البال.

وكان الليل قد بدأ يرخي سدوله، ليسود الصمت المخيف والسكون الخطر الذي يحمل لنا من بعيد رائحة السحر وروح المجهول. وقطع الأصدقاء الصمت وقالوا في نفس واحد: ما بلاش السيرة دي! المثل يقول: اللي يخاف من العفريت يطلع له!

الهمجي الطيب.. وروسو!

وغصت في بحر من الفكر. تذكرت«الهمجي الطيب»الذي وصفه لنا البارون لاهورتان في القرن السابع عشر، حيث قابل الرجل المتمدن رجلاً همجياً من الهنود الحمر في كندا اسمه «أداريو»، جعل يعرض عليه الأخلاق الطبيعية مقابل القوانين الأوروبية التي لا هم لها إلا الإيحاء برهبة العقاب، ويعرض اشتراكية بدائية يجد فيها المرء العدالة والسعادة مقابل المجتمع الجديد، ويرثي لذلك المتمدن المسكين الذي لا فضيلة له ولا قوة، ولا يستطيع أن يجد القوت والمأوى، والذي يبدو في

لباسه مثل مسخرة الكرنفال بثيابه الزرق وجواربه الحمر وقبعته السوداء وشرائطه الخضر، ذلك الذي يموت ألماً في كل لحظة بما يلاقي من عذاب وهوان في البحث عن رتبة أو مال، لا تترك في نفسه سوى اليأس والاشمئزاز آخر المآل! أما الرجل المتوحش فقوي يجيد الصيد والقنص ويقاوم الحرمان والتعب. بل إن الجهل نعمة له، لأن العلوم والفنون هي منبع الفساد. أما هو فالطبيعة هي أمه الرءوم، ولذا فهو سعيد بل يعتبر أن المتمدن هو البربري الحقيقي!

وهل يخرج ذلك عما قاله جان جاك روسو العظيم في «المقال عن العلوم والفنون» إنه ينتهي إلى أن المدنية والترف والعلم وضعتنا في أغلال العبودية والانحلال، وكأن الطبيعة أرادت أن تعاقبنا على خروجنا عن إرادتها وأن تحمينا من العلم مثل أم تنتزع سلاحاً خطراً من يد ابنها!

لقد أشاد بالطبيعة وهاجم المدنية والعلم وإن كان جميلاً ورفيعاً، لكن لم يخلق للانسان لأن ذهنه محدود، ولأن الشهوة تدفعه إلى إساءة استعماله بينما الإنسان في غنى عن هذه الدراسة لأن الطبيعة لقنته كل شيء يقوده إلى حياة بسيطة خالية من الكذب والتصنع والزيف وإتقان الكلام الذي يناقض الأفعال!

وسمعت غطيطا في السيارة، لم ألبث أن انضممت إليه، ولم يوقظنا ـ من فرط التعب ـ سوى سليمان، على باب الفندق، في منتصف الليل!

السواحيلي وأسانتا سونا!

وشكرنا سليمان، وأعطيناه مبلغاً بسيطاً من المال فقال لنا: أسانتا سونا وقال لي بالانجليزية: يعني شكراً بالسواحيلي!

وفي أوغندة، مثل كل دول أفريقيا لغات ـ وليس لهجات محلية ـ بقدر ما فيها من قبائل، فلكل قبيلة لغة. لكن لغة التخاطب أو التعامل هي الانجليزية أو السواحيلي وهي رطانة. وفي الصباح زارنا كالعادة المهندس محمد عبد الهادي سماحة وسألته عن السواحيلي فقال: إنها رطانة تتضمن ألفاظاً عربية كثيرة. فعبارة أسانتا سونا أصلها العربي: أحسنت صنعاً والبعض يقول أسانتا سانا، يعني أحسنت جداً ولمدة سنة! وماجي بريدي يعني ماء بارد. وفي الأعداد هناك «خمسة» وستة وسبعة. وفي الأيام هناك تنين وثلاث وأربع وهكذا.

لماذا الألفاظ العربية؟

من قديم الأزل يسعى الناس إلى اكتشاف أفريقيا. وعندما زار المؤرخ البيزنطي هيرودوت مصر قبل الميلاد توغل إلى شلالات أسوان وظن أن أفريقيا تنتهي هناك. وقبل دياز وليفنجستون وستانلي وبرازا وأوين وغيرهم كان العرب قد عرفوا أفريقيا عن طريق القرن الأفريقي، القريب من عدن ولحج والمكلا وحضرموت واليمن. وكانت التجارة هي أساس الاتصالات في الشرق الأفريقي، على عكس الغرب الأفريقي الذي أخضعه العرب عن طريق الفتوحات الإسلامية، أي الدعوة الدينية.

وكانت الاتصالات التجارية في الشرق الأفريقي وثيقة، لدرجة أن العرب لاسيما الحضارمة واليمنيون استقر الكثيرون منهم في اثيوبيا وجيبوتي والصومال، وتوغل بعضهم في كينيا وأوغندة شرقاً، وتوغّل البعض الآخر جنوباً إلى زنزبار، أو تنزانيا الآن. وعن طريق المعايشة عرفت هذه المنطقة الدين الإسلامي، واتبعت تعاليمه دون ضغط أو تدخل أو حرب. وفي الوقت نفسه تسللت ألفاظ عربية كثيرة إلى اللغة السواحيلي، على النحو الذي ذكرناه.

وكل ذلك ينفي فرية حاول الاستعمار أن يلطخ بها هذه الاتصالات الحضارية البناءة، فزعم أن العرب دخلوا أفريقيا بقصد الاتجار في العبيد. وهذه ليست مجرد مغالطة بل تبجح، لأن العالم كله يعرف أن تجارة الرقيق حدثت في الساحل الغربي لأفريقيا، وأن الأفارقة نقلوا إلى أمريكا كالسوائم وفي ظل أسوأ معاملة ليخدموا السادة البيض، ويقوموا بفلاحة الأرض، والأعمال التي يأنف البيض أن تمتد إليها أيديهم.

الدس الاستعماري قائم!

وعندما بدأت أفريقيا تستروح أنسام الحرية التي تهب من مصر في أوائل الستينات، بدأ الاستعمار يفرق بين البيض والسود، وبين السود والعرب، فأفريقيا عنده هي أفريقيا السوداء. حتى في الرياضة لجأوا إلى هذا الأسلوب، وعندما بدأ تقسيم أفريقيا إلى مناطق رياضية، من أجل التصفيات، كان الاقتراح في أول الأمر أن تتكون منطقة شمالية من

الدول العربية، حتى يتم الانفصال بين العرب وما يسمونه أفريقيا السوداء، أي الواقعة جنوب الصحراء. لكن مندوبي مصر في المجلس الأعلى للرياضة بأفريقيا أصروا على تكوين منطقة تضم دول «وادي النيل» بصفة أساسية، وهي مصر والسودان وأوغندة وأثيوبيا ثم انضمت لها كينيا والصومال وتنزانيا. وبذلك فوّتنا على الاستعمار فرصة أخرى للتفرقة بين شباب القارة الواحدة.

التغلغل الإسرائيلي بأفريقيا!

لكن هل تراجع الاستعمار عن خططه؟

أبداً، وإنما لجأ إلى أسلوب آخر. عهد إلى إسرائيل بالتغلغل في أفريقيا لتمكين نفوذه ورعاية مصالحه، تحت ستار «التعاون الاقتصادي».

في أوغندة مثلا، وقد استقلت عام ١٩٦٢، كان لإسرائيل قنصلية، فتحولت إلى سفارة وأصبح لها سفير هو عميد السلك السياسي، الذي سعى حتى تولت إسرائيل المناصب الهامة والاستشارية، ثم بدأت تعرض خدماتها التدريبية في كل المجالات لا سيما الاقتصادية والعسكرية. وتعهدت ببناء مصنع للسكر، وقدمته هدية للبلد، فهل هي من الغنى بحيث تفعل ذلك كله، لاسيما وأنها فعلت مثله في زائير وغانا وساحل العاج وغيرها؟

وقد فطنت مصر إلى هذا الوضع وبدأت تحاصر النشاط

الإسرائيلي، وتقدم مساعدات بديلة أو مماثلة، وصلت إلى حد مساعدة حركات التحرر عسكريا في القارة، ومحاربة الحركات الانفصالية كما حدث في بيافرا، رغم الظروف الاقتصادية التي كانت تعانيها مصر.

الفدان بعشرين جنيهاً!

ما علينا، نعود إلى الإنسان الأوغندي. إما أنه موظف بسيط لأن المناصب الإدارية العليا محجوزة للانجليز، وهذا وضع طبيعي إزاء الفراغ الإداري الذي تركه الاستعمار.

وإما أنه عامل في متجر أو مصنع مالكه في الغالب هندي أو باكستاني من الوافدين، المستوطنين، وهي أهم الجاليات المتحكمة في التجارة والاقتصاد. وإما أنه فلاح، وأمر الفلاح الأوغندي عجيب!

فالأرض كلها ملك الدولة، ما عدا أرض مملكة بوجندة فهي ملك للكاباكا. والنظام المتبع في التمليك هو «الحكر»، فالملكية لمدة ٩٩ سنة مثلا، وللمالك حق الانتفاع دون ملك الرقبة. وثمن الفدان ـ رغم خصوبة الأرض إلى حد مذهل ـ زهاء عشرين جنيهاً. وأهم الحاصلات القطن وهو من نوع السكلاريدس الذي كانت تزرعه مصر، والشاي والبن والأناناس والموز، الذي توجد منه أصناف كثيرة، ومنه الصغير حلو المذاق، والكبير الذي يستعمل في صنع نوع من الخبز، أو يقلى ويؤكل. كما أن هناك البنجر وقصب السكر، و«اليام» وهو الطعام الأفريقي المفضل، وهو نبات درني كالبطاطس يُعجن كالعصيدة ويؤكل.

والشيء العجيب إن الفلاح الأوغندي يبلغ من القناعة بحيث

يكتفي بقوت يومه، حتى إنه قد يبذر ٢٠ فداناً ويكتفي بمحصول خمسة أفدنة إذا كان يكفيه، ويهمل جني الباقي! وأوكد هنا إن القناعة قد تكون مصحوبة بالكسل! سواء، لأن الاستعمار لم يزيّن لهم قيمة العمل، أو بحجة شدة الحرارة مثلا، رغم أن الطقس معتدل بسبب الأرتفاع عن سطح البحر، ودرجة الحرارة تتراوح بين ٢٥ و٣٠ درجة مئوية، وإن كان الإحساس بالرطوبة يجعلها تبدو أشد!

تجربة عجيبة في ماساكا!

وفي زيارتي الأولى لهذه البلاد الساحرة حرصت على الاستمتاع بتجربة سمعت عنها، فعلى بعد ٥٠ كيلومترا من كمبالا توجد قرية اسمها «ماساكا»، تقع على خط الاستواء تماماً. وسافرت إليها بالسيارة مع بعض الرفاق. وهناك وجدنا دائرة كبيرة مرسومة بالجير، قطرها زهاء خمسة أمتار، ونصفها في نصف الكرة الشمالي ونصفها الآخر في نصف الكرة الجنوبي، بحيث يمكنك أن تقف على خط منتصف الدائرة، وتضع قدماً هنا، وقدماً هناك. أو تقف في نصف الكرة الشمالي وتمد يدك لتصافح صديقاً في نصف الكرة الجنوبي. شعور عجيب وممتع، حتى إننا ظللنا نكرر اللعبة في مرح.

ولعل ذلك كان إضافة إلى ما اتخذته في قرارة نفسي، وهو أن أكرر زيارة لؤلؤة أفريقيا كلما أذن الله بذلك. وقد حرصت على تنفيذ القرار، حتى بعدما حدث لنا هناك يوم ٥ يونيو ١٩٦٧. لكن هذه حكاية أخرى!

إن شريط الذكريات الحلوة لرحلاتي في أوغندة يتدفق في سعادة تَدَفق مياه النيل، أو ينساب في سلاسة كأنه معزوفة موسيقية ألفها بيتهوفن، لكنه لا يخلو من لحظات نشاز تتمثل في ذكريات سيئة لأن هذه هي سُنة الحياة. والإنسان السعيد دائماً لم يخلق بعد. ونحن العرب ندرك ذلك جيداً، حتى إننا إذا سعدنا وضحكنا كثيراً توجسنا شراً وقلنا: اللهم اجعله خيرًا!

ومن الأيام التي لا أنساها أبداً يوم ٥ يونيو ١٩٦٧. كُنَّا قد وصلنا إلى كمبالا، ولعبنا مباراة دولية كروية في إطار بطولة دول أفريقيا مع أوغندة، وفاز فريقنا القومي ١/ صفر.

وفي الصباح التالي فوجئنا بسكرتير السفارة الأستاذ محمد تيمور يدخل علينا الفندق، وهو في غاية الجزع، ويخطرنا بأن الحرب نشبت بين مصر وإسرائيل، ودعانا إلى مرافقته إلى أعلى تل من تلال كمبالا السبعة، لنستمع إلى الراديو بوضوح. كانت الساعة زهاء السابعة صباحاً، وكان المجتمعون المهندس محمد حسن حلمي رئيس البعثة ورئيس نادي الزمالك الآن والكابتن محمد لطيف والأستاذ فهمي عمر رئيس الإذاعة الآن والمهندس عبد الهادي سماحة الذي جاء يودعنا، وأنا. وذهبنا إلى التل، وسمعنا صوت المذيع أحمد سعيد يجلجل ويقول: اسقطت قواتنا ٣٠ طائرة للعدوا ـ وبعد لحظات أصبحت الطائرات المسقوطة ٧٨..

وقلت: إذا كنا أسقطنا في ساعتين زهاء ٨٠ طائرة، تبقى القاهرة ضاعت يا جماعة! تبقى اتهدمت!

السفر إلى الخرطوم!

استبد بنا الجزع على بلدنا وأهلنا، وقررنا بالإجماع أن نسافر فوراً ولا ننتظر موعدنا الأصلي للعودة في اليـوم التالي، خاصة وأن هناك احتمالاً كبيراً في أن تكون مطاراتنا مغلقة!

وكان من رأيي أن نسافر إلى طرابلس بليبيا ثم نكمل رحلتنا إلى القاهرة بالسيارات، فيما رأى الكابتن لطيف أن نسافر إلى الخرطـوم ثم نكمل إلى القاهرة بالقطار إلى وادي حلفـا، ثم بالباخـرة إلى أسـوان، وأخيراً بالقطار إلى القاهرة. لكن الأمر على كل حال مرهون بوجود طائرة تنقلنا فوراً من كمبالا.

وعدنا إلى الفندق لنخطر البعثة بحزم الأمتعة والاستعداد للسفر، ثم اتجهنا إلى مكتب شركة مصر للطيران، حيث بذل مدير المكتب الأستاذ أحمد رجب جهداً صادقاً ومضينا لحل المشكلة. وأخـيراً وجدنـا طائـرة لشركة ساس متجهة إلى أثينا، وبنينا أملاً كبـيراً على أن قائدهـا سوف يستجيب لنا ـ إزاء ظروفنا هذه ـ ويهبط في الخرطوم.

وجاءت الطائرة إلى مطار كمبالا، وكان قائدها إنساناً، فلم نحتج لوقت طويل لإقناعه، ولكنه خشي فقط أن يكون مطار الخرطوم مغلقـاً أيضاً، وقلنا له: في هذه الحالة نذهب إلى أثينا ونتصرف!

وعندما اقتربنا من الخرطوم جاءنا الطيار يقول: مطـار الخرطـوم مغلق، كما توقعت. وقلنا له: جرّب مرة أخرى، وقل لهم إن فريق الكرة

المصري معك في الطائرة، واطلب إذناً خاصاً بالهبوط، ولو اقتضى الأمر الاتصال برئيس الوزراء!

السماح لنا بالهبوط

وجاءنا بعد لحظات متهلل الأسارير، وأدركنا من وجهه أنه حصل على إذن بالهبوط، وقال هو إن الموافقة جاءت بسرعة غريبة وبمجرد ما علموا أن فريقاً مصرياً في مأزق!

وهبطنا في مطار الخرطوم، وليس معنا فلوس، ولم نحجز في الفنادق، وقبل أن تنتهي الإجراءات، وجدنا مندوبي وزارة الشباب، وأصحاب الفنادق يتنافسون - في شهامة عربية عظيمة - على استضافتنا. وأقسم لاعب كرة قديم اسمه «كيشو» على أن تكون الاستضافة من نصيبه، وهو صاحب فندق خاص ممتاز. واغتسلنا، وتناولنا طعام العشاء، وجلسنا نتدبر الأمر، وانتهينا إلى أن «الصباح رباح»، أما الليلة فنرتاح، ثم نذهب إلى السفارة في الغد.

تصرف سريع من السفارة

وفي صباح ٦ يونيو ذهبنا الى السفارة، وأوكلنا إلى الكابتن لطيف شرح الموضوع والظروف. وكان السفير في إجازة والقائم بالأعمال صديقاً شخصياً للكابتن وزميلاً قديماً في الدراسة. وكان صوت المذيع أحمد سعيد لا يزال يجلجل، فلم تكن معالم الكارثة قد تبلورت بعد، بل كنا لا نزال نعيش في أضغاث أحلام ووهم كبير!

وأحسن الرجل استقبالنا، ورحب بنا أجمل ترحيب، وشرحنا له الموضوع فقال: لا عليكم، ندبّر كل شيء بإذن الله.

وأجريت اتصالات فورية، قوبلت باستجابة فورية، وتم في الحال تأمين تذاكر سفر بالقطار إلى وادي حلفا، ثم تذاكر بالباخرة إلى أسوان، وتعهدت السفارة بدفع كل شيء، بل أعطتنا مبلغاً كافياً لتدبير غذائنا طوال مشوار العودة! وكانت أريحية كيشو صاحب الفندق فوق الوصف، ورفض تقاضي مليم واحد مقابل استضافة البعثة!!

حفاوة فوق الوصف!

وفي صباح ٧ يونيو استقلت البعثة القطار من الخرطوم إلى وادي حلفا. وظهرت أصالة الشعب السوداني الشقيق وشهامته العربية، وأخوته لشعب مصر. ولم نتمالك أنفسنا فاهتز وجداننا بشدة وسالت عبراتنا في كل محطة على الطريق. فلا يكاد القطار يقف حتى نلمح جموعاً من المواطنين في مظاهرة قومية فوارة، ونتبادل الخطب والقصائد. ونتلقى صفائح الجبن والعسل والحلاوة الطحينية ومئات المعلبات وزجاجات المرطبات. تموين ليس يكفي ٢٥ فرداً فقط وإنما يكفي مائة فرد لمدة خمسة وعشرين يوماً!

وبدأت الأخبار المزعجة

والتصقت آذاننا بالراديو، وخفتت نبرات صوت أحمد سعيد! لم يعد يجلجل!! وبدأنا ندرك ملامح الهزيمة، ونضرب كفا على كف! كان الألم

يهصرنا هصراً. وبهذه الحالة وصلنا إلى وادي حلفا، وإذا بمفاجأة أخرى في انتظارنا!

وجدنا ضابطاً سودانياً قد أوكلت إليه مسؤولية الموقع، والإشراف على شحن الباخرة من وادي حلفا، لأن الحكومة السودانية قررت إيفاد قوات للمشاركة في الدفاع عن مصر، ومن الطبيعي أن يكون لهذه القوات أولوية ركوب الباخرة!

وقلنا للضابط: وأين سنقضي الليل؟

فأومأ إلى فناء محوط بسور من الحصير تتوسطه «سراير» من الجريد اسمها العنجريب وقال: تنامون هنا.

وتقدم منه الكابتن لطيف وهمس في أذنه: غير معقول بتاتاً، هذا فريق مصر القومي لكرة القدم، ولا يمكن أن ينام في مثل هذا المكان غير اللائق.

وقال الرجل: كل المواطنين سواء، ليس بينهم خيار وفاقوس. ومع ذلك سوف نتصرف. وسكت لحظة ثم قال: تسللوا إلى الباخرة فرادى، حتى لا يراكم أحد من الركاب. وسأعطي أوامري للحراس بذلك. وسأغمض عيني!

وتسللنا إلى الباخرة واحداً بعد واحد. واحتللنا أحسن القمرات. بعضنا أخلد للنوم من فرط التعب، والبعض الآخر استبد به مزاج من الأرق والسخط والألم والحسرة على هزيمة البلد والعرب! ومن عجائب طبيعة الإنسان أن الدموع تنثال من عينيه بسرعة ويسر عند الفرح، وأن العيون تصبح عصية التسكاب عند الألم كأنما لتزيد اللوعة!

يوم التنحي . . وبعده!

وبعد أن وصلت القوات السودانية أقلعت الباخرة. وسمعنا خطاب تنحي عبد الناصر، ونحن نبكي! وانقسمنا إلى ثائر على الثورة ومؤيد ومعارض! الذين ثاروا على كل شيء قالوا: هذه تمثيلية مرتبة، فالذي يريد أن يتنحى حقيقة لا يدعو التليفزيون والإذاعة ليستدر العطف، وإنما ينسحب من المسرح السياسي بهدوء. وكبار القادة الذين يخسرون المعارك ينتحرون بتجرع السم!!

والمعتدلون قالوا: حسناً أن يبقى ليتولى إنقاذنا بعد أن أغرقنا! إلا أن الناصريين أحبطوا كل هذه التيارات وتصدوا لها بشدة وعنف، وحيوا في عبد الناصر رباطة الجأش والحرص على إنقاذ البلد من الفوضى التي كانت ستقوم حتماً لو لم يتسلم قيادة السفينة مرة أخرى!

ووصلنا إلى أسوان!

وران الصمت الحزين على الباخرة التي تثاقلت خطواتها وكأنها فلول جيش مهزوم، حتى وصلنا إلى أسوان يوم ١٢ يونيو. وكانت معالم الكارثة ـ التي سموها نكسة ـ قد اتضحت تماماً!

ووجدنا في استقبالنا اللواء طيار مدكور أبو العز محافظ أسوان، وقائد سلاح الطيران السابق، الذي كان عبد الناصر يحترمه ويحبه ولكنه أقاله من السلاح عندما طالب بإلحاح، ووصل إلى حد الاحتداد، ببناء

حظائر حصينة للطائرات. ولم يؤخذ بكلامه، فضربت طائراتنا المكشوفة وهي واقفة في المطارات دون حماية!!

عبد الناصر يتصل..!

ودعانا المحافظ إلى الغداء في نادي التجديف بأسوان. ولم نكد نبدأ حتى دق جرس التليفون، ورفع سكرتير المحافظة السماعة، وجاء يجري وهو أصفر اللون، «وهمس» في أذن المحافظ بصوت جهوري سمعه الجميع: الرئيس طالب سيادتك شخصياً!

وقال عبد الناصر للمحافظ: يا مدكور، فيه طيارة منتظراك الآن في مطار أسوان، اركبها وتعال فوراً، وتسلم سلاح الطيران!

واستأذن منا المحافظ، وذهب إلى المطار كما هو، بدون أن يغير ملابسه. لم يكن هناك وقت!

ونسينا أوغندة ومباهجها، ولم يعد في بالنا سوى مصر!

اليابان

اليابان بلاد الشمس المشرقة والتكنولوجيا الحديثة!
أول ظهور للعرب والأفارقة في ألعاب القوى الأوليمبية!
شوارع بلا أسماء وبيوت بلا أرقام في طوكيو الهائلة!
فتيات الجيشا وطقوس الشاي وتقاليد الترويح المحتشم!
المصعد في طوكيو حمولته ٥ أشخاص لكن ٣ مصريين فقط!
قمة التقدم لكن القاووكي مسرح الأقنعة شديد التخلف!
أضواء الجنزا في اللهو تفوق أضواء ملاهي الدنيا مجتمعة!
الانفجار السكاني ثروة قومية في بلاد تحرص على تقديس العمل!
ضرب هيروشيما بالقنبلة الذرية أبشع جرائم القرن العشرين!
لماذا يرمي اليابانيون هياكل السيارات وعربات السكة الحديد في البحر؟
ما هي أخلاقيات البوذية وحالة النيرفانا أو السكينة؟

في بداية حديثي عن اليابان أقول لكم: أوهايو كوزايماس! يعني صباح الخير، وهو أحد لفظين خرجت بهما من زيارة طويلة لبلاد الشمس المشرقة عام ١٩٦٤، بمناسبة الدورة الأوليمبية في طوكيو.

قبل الزيارة أذاعت اليابان أنها أنفقت ألف مليون دولار على تنظيم الدورة. وكان هذا الرقم مهولاً منذ زهاء ٢٠ عاماً. وعندما وصلت إلى طوكيو عرفت أن معظم هذا المبلغ أنفق في تجديد طوكيو

وتجميلها، حيث أنشئت عشرات الكباري العلوية والأنفاق، لتيسير حركة المرور في مدينة تعدادها أصلا ١٢ مليون نسمة، وفي تجديد شبكة الطرق الموصلة إليها، وإنشاء خط «المونوريل» أو المترو السريع المعلّق الذي يربطها بالمطار، والذي يسير بسرعة ٢٥٠ كيلومترا في الساعة، وفي إنشاء قناة صناعية لتجري فيها مسابقة التجديف، على بعد ٦٠ كيلومتراً من العاصمة، بل وصل الأمر إلى تطهير مجرى النهر الذي يحيط بالقصر الامبراطوري في قلب المدينة الكبيرة. ولهذا كانت طوكيو مجلوة كالعروس التي تتأهب ليوم الزفاف الموعود.

في حي كونجوكوكو - كو!

الرحلة إلى طوكيو كانت شاقة. هبطت بنا الطائرة في مطار المنامة بالبحرين، ثم مطار مدراس في الهند، ومطار بانجكوك في تايلاند، ثم مطار هونج كونج، واستغرقت زهاء ١٧ ساعة من الطيران. وأدركنا مدى تغلغل التكنولوجيا ودقة التنظيم منذ وطئت أقدامنا مطار طوكيو، حيث تم فرز البعثة في دقائق معدودة، وانتظمت السيارات لتحمل اللاعبين إلى القرية الأوليمبية، والإداريين إلى الفنادق المخصصة لهم، والصحفيين إلى قصر الصحافة الذي بني خصيصاً لإيواء ١٥٠٠ صحفي في حي كونجوكوكو - كو، القريب من الاستاد، والذي يضم المركز الصحفي، الذي يجري فيه كل شيء بالكمبيوتر، وتتجمع فيه النتائج - بمنتهى الدقة والسرعة - وتنقل إلى صناديق مخصصة لكل صحفي برقمه، بحيث لا يجد مشقة في البحث عن أية نتيجة.

وحاولت أن أعرف اسم الشارع فكانت المفاجأة! ذلك أن شوارع طوكيو ليس لها اسم أو عنوان مثل حبيبة عبد الحليم حافظ في قارئة الفنجان! وبيوت طوكيو أيضاً ليس لها أرقام، وكان الله في عون موزعي البريد، الذين يوصلون الرسائل رغم هذا التجهيل اللوغاريتمي!

٣ مصريين فقط!

وكنا خمسة نقاد مصريين، وزن كل منا ١٠٠ كيلوجرام، وكانت هذه مشكلة لنا، لأن كل شيء في اليابان صغير الحجم، ما عدا أبطال الرياضة الشعبية «السومو» التي تمارس في شبه عرى، بين رجال كل منهم عبارة عن كتلة من اللحم والشحم. وكانت إقامتنا في الدور السابع. وخرجنا لنتسلم البطاقات الشخصية التي تبيح للصحفي دخول جميع الملاعب، وعدنا معاً، وأردنا أن نستقل المصعد، الذي كتب عليه عبارة «٥ أشخاص فقط»، ولأننا خمسة فقد دخلنا المصعد جميعاً، لكن العامل أصيب بالفزع، وطلب نزول اثنين منا، ولما أشرنا إلى أن الحمولة ٥ أشخاص قال: نعم، لكن ٣ مصريين فقط!!

يأكلون السمك حياً!

وفي فندق الصحافة كان لدينا مطعمان، أحدهما ياباني، والآخر عادي. وقوام المطعم الياباني الأرز الذي يأكلونه كالصينيين بالعصي الخشبية، والسمك الذي يأكلونه حياً، بمجرد غمسه في ماء أو حساء ساخن. ولم أتحمل مجرد النظر، وتحولنا جميعاً إلى المطعم العادي، حيث

يقدم السمك مقلياً أو مشوياً أو مطهواً بالطريقة اليونانية، سواء كان شرائحاً أو سمكاً صغيراً كاملاً.

ولأنني من هواة صيد السمك فقد تابعت كيفية تنمية الثروة السمكية في اليابان فهناك أسطول أعالي البحار، الذي ينافس أساطيل بيرو وروسيا وأمريكا في صيد ملايين الأطنان. وهناك المزارع السمكية في حقول الأرز والجداول والمساقي المحيطة بها، وفي كل التجمعات والمسطحات المائية. بل إنهم يرمون هياكل السيارات وعربات السكة الحديد القديمة في المحيط، قريبة من الشاطىء، لتنمو عليها الطحالب والأعشاب البحرية لتكون غذاء ومأوى للسمك، وتيسيراً على صغار الصيادين! وقد تجولت في الريف، وتفقدت حقول الأرز، ومزارع السمك، في طريقي إلى كيتو عاصمة اليابان القديمة، ومدينة التقاليد.

هيروشيما والميكادو أو الملك الشمس!

وحل موعد حفل افتتاح الدورة. ووصل الأمبراطور هيروهيتو إلى الأستاد. فانحنى اليابانيون في المدرجات حتى كادت جباههم تلامس الأرض خشوعاً للميكادو الملك الشمس بن الشمس!

وبدأت مراسم الافتتاح، وكان من بينها حامل الشعلة الأوليمبية التي أوقدت في أثينا وحملها العداءون إلى طوكيو، وإذا بحامل الشعلة بطل من أبناء هيروشيما القلائل، الذين كتبت لهم النجاة من القنبلة الذرية الأمريكية التي محت المدينة وأهلها من الوجود! وكان هذا الاختيار

دليلاً على أن اليابانيين لن ينسوا هذا اليوم الأغبر، أسود الأيام في تاريخ البشرية!

ودارت المناقشة في المدرجات. البعض يرى أن قنبلة هيروشيما هي أبشع جريمة في التاريخ، وأنها كانت تستحق محاكمة مثل محاكمة النازي في نورمبورج، لولا أن قيصر المانيا قال قولته المشهورة: ويل للمهزوم!

والبعض يرى أنها كانت رداً انتقامياً على إغراق وتدمير أكثر من ٣٠٠ قطعة بحرية في بيرل هاربور غدراً، بالطريقة الانتحارية اليابانية ـ الهاراكيري ـ بدخول الطيارين بحمولاتهم الناسفة المدمرة في القطع البحرية. كما أنها كانت إيقافاً لزحف الجنرال ياماشيتا الذي ابتلع بلاد الشرق الأقصى، وصوناً للبشرية ـ ولو كان مؤقتاً ـ من قيام ياجوج وماجوج!!

أعظم دورة في التاريخ!

ولقد شاهدت الدورات الأوليمبية من هلسنكي عام ١٩٥٢ إلى مونتريال عام ١٩٧٦. وأشهد أن دورة طوكيو عام ١٩٦٤ كانت أعظمها جميعاً في دقة التنظيم، والأخذ بأسباب أحدث تكنولوجيا.

بوصفي صحفياً كنت أجلس في المدرج وعلى يميني تليفزيون فيه ٩ قنوات تنقل الأحداث في الملاعب الأخرى. أرى بعيني مسابقات ألعاب القوى في الأستاد، وأرى في التليفزيون مسابقات السلاح والتجديف وكرة السلة والمصارعة وغيرها في الملاعب الأخرى. وعلى

يساري تليفون أدير رقماً ليوصلني بالقاهـرة رأسـاً!! كان هذا بالنسبـة للصحفي حلماً من الأحلام، لم يتكررا

وزاد من سعادتي أن جاورني في المدرج بطـلان عالميان يحتـلان مركزين متقدمين في رواق الخالدين، أولهما جيسي أوينز نجم دورة برلين عام ١٩٣٦ صاحب الميداليات الذهبية الأربع، والزنجـي الأمـريكي الذي أزعج هتلر ونظريته في تفوق الجيش الآري، ولـم أكن أعرفه من قبل، ولكن عرفني به الصديق زاتوبيك التشيكـي البطل الثاني، نجم دورة هلسنكي الذي أحرز لبلاده ٣ ميداليات ذهبية في الجري الطويل، وأحرزت زوجته دانا الميداليـة الرابعة في رمي الرمح. وكـان زاتوبيـك صديقاً قديماً حيـث كنت قد دعوته لقضاء أسبوعين في القاهرة عام ١٩٥٤، حين كنت مسؤولاً عن اتحاد العاب القوى!

وعندما انطلق المسدس إيذاناً ببدء نهائي سبـاق ٨٠٠ متـر عدوا انطلق في المقدمة عداء زنجي أفريقي بسرعة رهيبة، خشيت معهـا أن يتوقف كما فعلَ غيره، لكن زاتوبيك أكد لي أنه سوف يصنع شيئاً لأن خطواته متزنة! وكاد كبروجوت الكيني أن يحرز الميدالية الذهبية لولا أن البطل النيوزيلندي «سنيل» انتزعها منه.. بمسافة أنف، كما في سبـاق الخيل! وفي الجـري الطـويل حدث نفس الشيء وفـاز البطـل العربـي التونسي الجمودي بالميدالية الفضية. وكان هذا بداية الظهور الأفريقـي والعربي في مسابقات ألعاب القوى الأوليمبية! بل كان هذا تصحيحـاً للأوضاع في الوطن العربي، الذي ظن بفضل إعلامه، أن كرة القدم هي كل شيء!

وليس أدل على هذا من أن البعثة المصرية حالفها الفشل، ولكن فوز مصر بالمركز الرابع في كرة القدم غطى على الفشل!

الجيشا . . والجنزا والترويح!

ولم يكن معقولاً أن أكون في طوكيو ولا أتعرف على حقيقة الجيشا، من قبيل الاستطلاع. وقد تبين لي أن الفكرة الشائعة عن بنات الجيشا خاطئة وظالمة، فلا علاقة لهن بالجنس على الإطلاق! اصطحبت أحد الزملاء وذهبنا إلى أحد بيوت الجيشا، ودفع كل منا ما يعادل ٢٥ جنيهاً استرلينياً - عام ١٩٦٤ - كرسم دخول. واستقبلتنا فتاة غاية في النضرة والجمال، وقادتنا إلى غرفة الشاي حيث انضمت للجمع زميلة لها لا تقل عنها جمالاً، وبدأتا تعدان الشاي في طقوس شبه دينية، وتجاذبنا أطراف الحديث في كل الموضوعات، حتى خيل لنا أنه لم يعد هناك موضوع لم نطرقه. وهذا كل ما في الأمر! ولا أدري ماذا يحدث لو أعجبت بك الفتاة وبادلتها الإعجاب. أغلب الظن أن تتفقا على موعد ولقاء خارج الدار، أما داخل الدار فلا شيء سوى الشاي والحديث الجذاب!

وحي اللهو في طوكيو اسمه الجنزا، وهو في وسط المدينة، وكله ملاه ليلية وحانات، وبه كمية من الأضواء لا مثيل لها في العالم، تزيد عن أضواء المونمارتر في باريس والريباهان في هامبورج وبرودواي في نيويورك وسوهو في لندن مجتمعة. والمرأة في هذا الحي تتخفف من الملابس بقدر الإمكان، بعكس فتاة الجيشا التي ترتدي الكيمونو، الزي الوطني المحتشم.

الثروة البشرية وتقديس العمل!

وقد استلفت نظري في طوكيو أن الذي يصاب بزكام يضع على أنفه كمامة بيضاء، حتى لا ينقل العدوى إلى غيره، ليس خوفاً من الموت فالانفلونزا لا تقتل، وإنما خوفاً على الوقت؛ لأنها تؤثر في كفاءة العمل. ولا تشكو جزر اليابان من اكتظاظ السكان رغم صغر مساحتها بالنسبة لأكثر من مائة مليون نسمة، فإن هذه الطاقة البشرية الهائلة تقدس العمل ولا تضيع لحظة من وقت العمل هباء. وتأكد لي ذلك حين دعينا مرة إلى أحد المصانع الكبرى للأدوات الإلكترونية، ومرة أخرى إلى أحد مصانع السيارات التي تُغرق أسواق العالم، حيث شاهدنا العامل يؤدي عمله بنفس كفاءة الآلة الإلكترونية!

الكاووكي.. المسرح المتخلف!

وإني لأعجب كيف تبلغ اليابان هذه القمة الحضارية والذروة التكنولوجية ويبقى مسرحها على هذا الحضيض الأسفل من التخلف! لقد عنّ لي أن استكمل دراسة البلد بالتعرف على مسرحه وموسيقاه، وإذا بالمسرح ويسمونه الكاووكي ـ عبارة عن مبارة خطابية بين ممثلين يرتدون أقنعة بشعة، بعضهم يقوم بالأدوار النسائية، وكلهم لا تستطيع البقاء بينهم ربع ساعة!

البوذية ومعابدها في اليابان

والبوذية هي العقيدة السائدة في الشرق الأقصى كله، ويعتنقها مئات الملايين من البشر، ومعابدها منتشرة في كل مكان باليابان. وقد نشأت في القرن الخامس قبل الميلاد، على يد أمير هجر الملك بعد أن أنجبته الملكة «مايا» زوجة الملك «شادو دانا»، بطريقة أسطورية، وفقاً لحلم رأته في المنام، وتنبأ له ناسك بأنه سيصبح بوذا مخلص العالم. وقد ترك الأمير المُلك وهام على وجهه مفكراً في شئون العالم ومتاعب البشر، ولم يزعم أنه رسول مبعوث من العناية الإلهية لهداية البشر، وإنما اقتصر على وضع تعاليم وأساليب أخلاقية تكفل سعادة الإنسان في دنياه، حتى يصل حين مماته إلى حالة «النيرفانا» أو السكينة الأبدية، رغم فناء جسده.

وأكتفي بهذه اللمحة السريعة عن البوذية فقد أثقلت عليك يا عزيزي القارىء، ولذلك أقول لك «سايونارا».. أو إلى اللقاء!

اليونان

اليونان بلاد الحضارة الفكرية والأساطير الخرافية!
السياحة في اليونان لم تعد لمشاهدة الأكروبول والبارثينون!
عندما رقصنا الأبيزون في قرية ماراتون بالملابس اليونانية!
بين مغاني جزر بحر إيجه والسهرات في ملاهي البيزوكيا!
بنيلوب زوجة أوليس مضرب المثل للاخلاص الزوجي!
قصة حب وهمي يتسلى بها الفريق المصري في ضاحية كيفيسيا!
المرأة اليونانية فيها لمحات من جمال فينوس ربة الجمال!
الرجل اليوناني يعشق الهجرة للخارج بصرف النظر عن الغنى والفقر!

كدت أطير فرحاً عندما نظم لنا اتحاد الطلبة بكلية الحقوق بجامعة القاهرة رحلة إلى اليونان ثم رومانيا لنتبارى مع فرقها الجامعية الرياضية في مختلف اللعبات عام ١٩٣٧، فقد كانت هذه أول رحلة إلى أوروبا. فحتى ذلك الوقت كانت رحلاتنا الخارجية مقصورة على زيارة فلسطين لنلعب في يافا وحيفا والقدس، ثم إلى بيروت في لبنان، ودمشق وحلب في سوريا، وكل ذلك بالطريق البري، أي القطار ثم الأوتوبيس.

وقد عشقت اليونان وزرتها بعد ذلك عشرات المرات، لاسيما في المدة من ١٩٥٣ إلى ١٩٦٠ حيث كان معدّل الزيارة مرة على الأقل في

السنة. ومن هنا عاصرت اليونان ملكية وجمهورية، رخيصة وغالية، فقيرة وغنية. ولست أعرف دولة أوروبية اختلط أهلها بأهل مصر، وعاشروهم بمحبة ومودة وإخلاص، غير اليونان، فقد كان لها أكبر جالية في مصر، تربو على ٢٥٠ ألف نسمة، مركزة في الإسكندرية وبورسعيد والسويس والمنصورة والقاهرة، لكنها تنتشر حتى في القرى والنجوع، حيث تجد دائماً بقالة خراطبو أو خمارة بنايوتي!

وإذا كان اليونانيون قد نزحوا من مصر عقب التأميمات، وعادوا إلى بلادهم فقد لاقوا الكثير من المتاعب عند عودتهم إلى أثينا، لأن كفاءتهم هيأت لهم فرصة احتلال الوظائف الكبيرة في البنوك والشركات والحكومة والمؤسسات التجارية والاقتصادية، حتى أثاروا حسد مواطنيهم، وتعرضوا لمعاكسات جعلتهم يذكرون أيام مصر بكل الخير، ويرحبون ـ بالعربية ـ بكل مصري وافد لليونان. بمثل هذه الألفة تطيب الإقامة للزائر أو السائح.

ولم أعشق اليونان لهذا فقط، فقد قرأت الأساطير اليونانية للأستاذ دريني خشبة في شبابي، كما قرأت ملخصاً للفلسفة الإغريقية لديل دورانت شرح فيه فلسفة سقراط وأفلاطون وأرسطو وزنون وأبيقور وغيرهم من رواد الفكر العالمي، ومسرحيات أسخيلوس «أبو المسرح» وسوفوكليس، وأشعار أريستوفان، والإلياذة والأوديسا لهوميروس، وتابعت حرب طروادة وعشقت أبطالها هكتور وأخيل وعويس وأجاممنون، ونهلت من منهل الأدب الإغريقي ما جعلني أتابع أو أثير قضاياه في ندوة الأحد، التي واظبت عليها فترة طويلة في صالون عميد

الأدب العربي الدكتور طه حسين، عقب ترجمتي لأزمة الضمير الأوروبي لبول هازارا

الألعاب الأوليمبية نشأت هناك!

بهذه الشحنة الأدبية الفلسفية الحضارية ترددت على اليونان، وقد تضاعفت بشحنة رياضية منذ تابعت الألعاب الأوليمبية التي نشأت في سفح جبل أوليمب المقدس، مقر زيوس رب الأرباب في الميثولوجيا الإغريقية عام ٧٦٦ قبل الميلاد، وظلت تقام كل ٤ سنوات إلى أن ألغاها الأمبراطور تيوديسيوس سنة ٣٩٤ ميلادية، ثم أحياها البارون دي كوبرتان عام ١٨٩٦ حيث أقيمت الدورة الحديثة الأولى في أثينا. وحرصت بطبيعة الحال على زيارة أطلال أوليمب، حيث كانت تجرى الألعاب في جو من القداسة والطهارة الرياضية.

السياحة في اليونان الآن!

ولأن اليونان دولة فقيرة أصلا في مواردها الطبيعية فإنها اتجهت إلى الاهتمام بالسياحة لتنمية الدخل القومي، وأصبحت مع اسبانيا وإيطاليا ويوجوسلافيا في مقدمة الدول السياحية. وقد قصدت بالمقدمة الطويلة التي ذكرتها أن أوضح الخلفية الحضارية التي تشجع على زيارة اليونان، لأن هذه الخلفية تعيش مع الشعوب ولا تنقرض، وإنما تنطبع في السلوك العام، وهو المهم.

وسوف يرى السائح من المعالم الأثرية معبد الاكروبول الذي

أقيم لزيوس رب الأرباب فوق أعلى ربوة في أثينا، وإن تهدمت معظم أعمدته، والبارثينون والمتحف الوطني، والأستاد القديم الذي جدده المليونير السكندري اليوناني أفيروف لتقام عليه أول دورة أوليمبية حديثة، وأطلال أوليمب، لكنه بعد ذلك يعايش الشعب اليوناني في حياته اليومية، ويمارس السياحة الجديدة، الشاطئية والترويحية، في ظلال الحرية والابتسامة والانفتاح الخالي من صور التعقيد والمضايقة في المطارات والحدود والجمارك وغيرها.

مغاني جزر بحر إيجه

والسائح ينتهي الآن من مشاهدة آثار المجد الغابر والحضارة الفكرية القديمة في أسرع وقت ثم يبحث عن الترويح، ولن يطول بحثه. إن كان من عشاق الشاطىء فإن لديه مصيف لوتراكي، الذي تمتد رماله البيضاء في البحر مسافة طويلة، ويهيىء فرصة رائعة لهواة السياحة والرياضات المائية. وإن كان من عشاق الهدوء والاستجمام والشمس والهواء الطلق فإن عشرات الجزر الجميلة تتنافس على اجتذابه، وعلى رأسها جزيرة كورفو وجزيرة ساموس. واليوناني تاجر شاطر ولذلك دبرت وسائل الانتقال والربط بين هذه الجزر وأثينا، حيث لا ينقطع سيل السفن والعبارات ليل نهار. وشجعت الدول مواطنيها على استثمار أموالهم في إنشاء الفنادق والموتيلات والملاهي والمطاعم التي توفر للسائح كل أسباب اليسر والراحة، وكل الترفيه الذي يصبو إليه.

مقاهي أثينا ومحلات البيزوكيا!

وفي أثينا وغيرها من البلاد مثل بيريه وسالونيك آلاف من المقاهي، لا تكاد تجلس في إحداها وتطلب قهوة تركية حتى يسألك الجرسون عن هويتك، فإذا عرف أنك عربي روى لك قصة حياته في الإسكندرية أو أسيوط أو المنصورة. لكن المقاهي لا تقدم القهوة والشاي فقط، وإنما المشروبات الروحية أيضاً وأهمها الرتسينا والأوزو والنبيذ ومعها «دولمة» ورق العنب، لأن العنب والزيتون من أهم حاصلات اليونان.

لكن هذه المشروبات تقدم في الملاهي الليلية بصفة خاصة، وهي حانات وبارات ومراقص، تسمع فيها الموسيقى اليونانية «البيزوكيا»، ولعل التسمية مأخوذة من «البزق» وهو آلة موسيقية وترية، وكثيراً ما تشاهد الرقص الفلكلوري الشعبي وهو الأبيزون، لكن المهم أن السائح يستمتع بليلة حافلة بأسباب المرح والترويح.

قصة حب في كيفيسيا!

وعندما رافقت الفريق القومي العسكري لكرة القدم للعب مع اليونان في ديسمبر ١٩٥٨ نزلنا في فندق هادىء بضاحية «كيفيسيا» الجبلية الهادئة، التي تهجع وسط غابة كبيرة من أشجار البلوط والسنديان والحور، وتغطيها الثلوج. وكان معنا طبيب شاب يفاخر بعذوبته. وذات صباح التقينا بفتاة يونانية حسناء، تجيد العربية لأنها عاشت كل صباها في المنصورة وأحبها الطبيب الشاب من أول نظرة، وصارحنا

بذلك، لكن الحب عقد لسانه حينما اختلى بها، فلم يطارحها الهوى، ولم يفصح لها عن مكنون قلبه. ولكي نسلي أنفسنا من الملل جعلنا الطبيب الشاب لعبتنا طوال الرحلة. وكان ضمن الفريق لاعب يقلد أصوات النساء اسمه سيد شارلي، تطوع لتقليد صوت الفتاة، وتلفن للطبيب وقال له: لاحظت ارتباكك عندما تقابلنا وحدنا وهذا دليل الحب، وإذا كنت قد أحببتني، فإن حبي لك أكبر وأعمق. لا بد أن نتقابل على انفراد، وسوف أحدد لك موعداً!

وجاءنا الطبيب مبتسماً، يفرك يديه في سعادة، وقال في سذاجته العذرية: تصوروا البنت ضربت لي تليفون، ومنتظر منها تليفون آخر، لتحديد موعد للقاء ـ وقد صارحتني بحبها الشديد ـ وظل المسكين ينتظر كلما سمع رنين جرس الهاتف!

وفي الحادية عشرة مساء، والثلج يتساقط من السماء بغزارة، تحدث سيد شارلي وقال للطبيب: الجماعة خرجوا في سهرة، يمكنني أن أخرج لمقابلتك في الغابة، أمام باب الفندق مباشرة، لمدة ساعة. بعد دقائق سأكون هناك!

ولبس الطبيب معطفاً، وذهب إلى الغابة، وانتظر في المكان المحدد أكثر من ساعتين، حتى كاد يتجمد، ولم تجيء الفتاة، لكنها تحدثت في الهاتف معتذرة بأن أهلها عادوا مبكرين فلم تستطع الخروج، لكنها سوف تحدد موعداً جديداً.

وظلت الفتاة ـ سيد شارلي ـ تلاعب الطبيب على هذا النحو أربعة أيام، لكنه أصيب بانفلونزا حادة ولزم الفراش. ولأن حالته كانت تستدر

العطف والرثاء، فقد صارحناه بالحقيقة، لتنتهي مسرحية «الحب الوهمي»!

عندما رقصت الأبيزون في ماراتون!

وفي عام ١٩٦٢ اشتركت مصر في سباق الماراتون الدولي بأثينا، وكنت رئيساً للبعثة المصرية. وكان أبيبي بيكيلا الأثيوبي بطل السباق في دورة روما الأوليمبية عام ١٩٦٠ مشتركاً في السباق، فحظي باهتمام كبير. والماراتون سباق طوله ٤٢ كيلو متراً و١٩٥ متراً وهو سباق تربوي، أقيم تخليداً لذكرى الجندي الإغريقي فيديبيدس الذي جرى من قرية ماراتون إلى أثينا، ليبشر قومه بانتصارهم على الفرس بقيادة «دارا» في سهل ماراتون، فلما وصل إلى أثينا صاح قائلاً: أبشروا، لقد انتصرنا! ثم سقط ميتاً.

واجتمع اللاعبون ورؤساء البعثات في قرية ماراتون. وأقيم حفل راقص قبل بداية السباق. وتقدم عمدة المدينة وطلب من رؤساء البعثات الذهاب إلى دار العمودية لارتداء اللبس اليوناني، فذهبنا وارتديناه. وهو عبارة عن سروال أسود ضيق، وصديرية بيضاء، وحزام أحمر عريض، وقلنسوة حمراء ولها زر كالطربوش. وانطلقنا إلى أكبر ميادين القرية، وعلى أنغام البيزوكيا أدينا رقصة الأبيزون اليونانية الفلكلورية، وهي جماعية تشبه الدبكة اللبنانية. ولم أجد غضاضة في ذلك كله، لأنك كما تكون ترى الأشياء. فالشجرة التي تثير خيال الشعراء ليست في نظر عابر السبيل سوى شيء أخضر يعترض الطريق!

جمال المرأة اليونانية

ومتوسط الجمال مرتفع في اليونان. والمرأة اليونانية الجميلة فيها الكثير من تمثال فينوس ربة العشق والجمال عند الاغريق.فالجسم ملفوف مكتنز دون ترهل، والقامة طويلة والتقاطيع أو الملامح دقيقة، وهي في المدينة تتساوى مع الرجل، وتؤدي كل الأعمال، وفي الريف تعمل في الحقل، وترعى الغنم والماعز، بقدر ما تعمل في البيت. وتتميز في زواجها بالاخلاص والطاعة.

والمدهش أنها نقلت ذلك كله إلى مجتمعاتها الجديدة، فاليونانيون من أكثر الشعوب هجرة، والجالية اليونانية دائماً من أكبر الجاليات الأجنبية في استراليا وأمريكا وكندا وقلب أفريقيا.. ومن اختلاطهم منذ الزمن الغابر بقدماء المصريين عرفوا الحضارة والإدارة والرياضة.. والحزن! وفي القرون الوسطى عرفوا الاحتشام حين خضعوا للحكم العثماني مئات الأعوام.

وهجرة اليوناني ليست بسبب الحاجة أو الفاقة وإنما هي طبع في شعب. واليوم، واليونان تعيش في رغد نسبي نتيجة نمو السياحة بدرجة مذهلة، فإن اليوناني لا يضيع فرصة الهجرة إذا لاحت له، والزوجة تشجعه بطبيعة الحال.

وفي الحديث عن الزوجة اليونانية لا أنسى امرأتين، أولاهما زوجة سقراط الفيلسوف التي سامته صنوف العذاب، والتي قصدها حين سأله

أحد تلاميذه عن الزواج فقال: تزوج يا بني تزوج فإن نجحت أصبحت سعيداً وإن فشلت صرت فيلسوفاً!

والثانية بنيلوب زوجة اوليس التي غاب زوجها في حرب طروادة ٢٠ عاماً، وظلت تنتظره، وتسلي نفسها بشغل الإبرة، وتعد الأيام، بأن تفك آخر الليل ما نسجته طوال النهار، صامة أذنيها عن دعوات الإغراء والكلام المعسول، حتى أصبحت مثالاً للإخلاص الزوجي في سجل التاريخ! كالأولى واحدة في المليون، والثانية هي الزوجة اليونانية العادية.

أمريكا

أمريكا بلاد الميكنة الزراعية والايقاع السريع للحياة!
كل شيء بالزراير من السندويتش إلى سفن الفضاء!
بين قمة الخوف في نيويورك والطمأنينة في كاليفورنيا!
أسلوب رعاة البقر الأجلاف مثير للرعب في تكساس!
عندما زرنا كلاي في فيلادلفيا وتوقعنا له الهزيمة!
بين متعة «الدزني لاند» وعجائب الحياة في لاس فيجاس!
مافيا منظمي الملاكمة تستعبد أبطال العالم الزنوج السُذّج!
روائع زيجفيلد والمسارح الاستعراضية في برودواي!
المقلب الذي شربناه من فريق كوزموس نيويورك الكروي!

الحديث عن أمريكا يحتاج إلى مجلد، لأنها شبه قارة، وسوف أتحدث عنها بإيجاز شديد، أرجو ألا يكون مخلاً. هي الولايات المتحدة الأمريكية، ونقول عنها أمريكا من قبيل الاختصار، كما نقول روسيا بدلاً من الاتحاد السوفييتي، والمكسيك بدلاً من الولايات المتحدة المكسيكية. مساحتها ٩ ملايين و٣٦٤ ألف كيلومتر مربع. يحدها شمالاً كندا، وجنوباً المكسيك، وشرقاً المحيط الأطلسي، وغرباً المحيط الهادي، وتتكون من ٥٠ ولاية، وفيها كل الأجواء، وكل المحاصيل والمعادن، وكل مصادر الثروة والطاقة، وآخر الصيحات التكنولوجية في الزراعة

والصناعة، فهي بلاد الوفرة، بلاد الميكنة، بلاد الزراير، بلاد الايقاع السريع! تضغط على زر في كيب كانافيرال فترى الانسان يمشي على القمر، أو سفينة فضاء تنطلق إلى المريخ! تضغط على زر في أي حقل فترى آلات حصاد جبارة، حتى لجمع القطن، وجمع البطاطس من أعماق الأرض! تضغط على زر فترى أجمل فتيات العالم في استعراض يأخذ بمجامع القلوب في برودواي أو في لاس فيجاس! ومن سرعة إيقاع الحياة يخيّل إليك أن البشر أيضاً تحولوا إلى «مكن»، فالمشي هرولة، والعمل بهمة، لأن الوقت من ذهب!

كيف توقعت هزيمة كلاي؟

في سنة ١٩٨٠ زرت نيويورك لأحاول توقيع عقد مباراة بطولة العالم بين محمد علي كلاي ولاري هولمز في القاهرة، بناء على دعوة من المنظم المستر باتلر صاحب فنادق لاس فيجاس مدينة القمار المشهورة بولاية نيفادا. ونزلت بفندق ريجنسي بشارع ٦١ في بارك أفنيو، على بعد خطوات من الشارع الخامس، الذي يضم ناطحات السحاب، لأنه على مقربة من مقر منظم الملاكمة العالمي الزنجي دون كينج، ونادي كوزموس نيويورك لكرة القدم الذي يضم نجوم العالم، وعلى رأسهم بكنباوار الألماني وكارلوس البرتو البرازيلي وكيناليا الايطالي وغيرهم، على أمل التعاقد معهم للعب في القاهرة أيضاً.

ورغم سهرة خيالية في أحد مسارح برودواي الاستعراضية، ذكرتني بروائع زيجفيلد، ملك الاستعراض السينمائي في الثلاثينيات،

فقد كنت أمشي في شوارع نيويورك مرعوباً، بعد أن نصحني الأصدقاء ألا أسير وفي جيبي أكثر من ١٠٠ دولار، نظراً لكثرة حوادث السرقة بالاكراه، وهو ما حدث للصديق الكبير الأديب يوسف إدريس،على يد فتاة!!

وكان لزاما أن نسافر بالسيارة إلى فيلادلفيا بولاية بنسلفانيا، عبر ولاية نيوجرسي التي تضم ١٧ ألف مهاجر مصري، والسرعة محددة بسبب أزمة الطاقة، لكن الطريق ناعم كالحرير. ووصلنا إلى معسكر محمد علي كلاي، على ربوة خضراء في مشارف المدينة، ويضم قصراً به عشرون غرفة، ومسجداً، وعدة منازل فسيحة، وغابة. وكان محمد علي قد قام بتمرين عنيف مع زميله بطل العالم الأسبق جيمي إيليس، وبعد أن رحب بنا، جلسنا نتحدث، وأبدى شوقه للعب في القاهرة، لكن هالني أمره! فهو زائغ البصر، مشتت الفكر، يعاني آثار عملية إنقاص وزن رهيبة!

مافيا منظمي الملاكمة!

وأثناء الحديث دق جرس التليفون، وإذا بالمتحدث هو المنظم العالمي دون كينج محتكر النجوم، الذي هدد كلاي بفسخ عقده معه إذا لعب لصالح منظم آخر! وعبثاً حاول الأستاذ عبد الله عبد الباري والدكتور جمال العطيفي رحمه الله إقناع دون كينج بفوائد ومزايا لعب كلاي في القاهرة، فرفض إلا إذا كان هو المنظم! وعندما سألاني رأيي في

الموضوع قلت: بركة يا جامع، إن محمد علي كلاي في حالة إرهاق يرثى لها، ولا يمكن أن يهزم لاري هولمز!

وقد زرت دون كينج في مكتبه في بارك أفنيو. زنجي مترهل، في فمه سيجار هافانا فخم، ضحكته تجلجل، وبديهته حاضرة، وحاشيته كبيرة، وسكرتيريّته أكبر، واحتكاره ملعون! وملايينه من دماء الملاكمين المساكين، الذين يحصلون على الفتات من دخل المباريات الهائل، الذي وصل إلى ٤٠ مليون دولار في المباراة!

وكفانا مقلب كوزموس!

وفي نيويورك أيضاً تعاقدت مع فريق كوزموس للمحترفين، الذي لم يعرفه العالم إلا حين انضم له الجوهرة السوداء بيليه البرازيلي، ليلعب في القاهرة مع الأهلي والزمالك. وليته ما لعب، فقد فاز عليه الأهلي بسهولة ٣/ ١ وتعادل معه الزمالك ١/ ١، كأنما نكاية في النقاد الذين يؤكدون تخلف الكرة المصرية، لا سيا في تلك الأيام، بعد الهزيمة من المغرب! لكن الحقيقة أن مستوى اللاعب المصري مذبذب، فهو يفوز عندما تتوقع له الهزيمة، وينهزم حين تنتظر له الفوز! ويا حيرة النقاد معه!

مع السكرتيرات والوجبات السريعة!

وأمريكا هي أيضاً بلاد السندويتش! وأثناء فترة الراحة في الظهر، تهرع السكرتيرات الحسان في الشارع الخامس إلى محلات الوجبات

السريعة، حيث يَقْبَلْن أية دعوة، لأن طبيعة عملهن تقتضي أن يرتدين أفخر الملابس وأن يستعملن أحدث مستحضرات التجميل، وهو ما لا تتحمله مرتباتهن البسيطة نسبياً، بالقياس إلى غلاء المعيشة!

وفي إحدى هذه المحلات شاءت الصدفة أن ألتقي بالصديق الدكتور عبد الرحمن حافظ أستاذ العلوم في جامعة إنديانا، ونجم كرة السلة المصري في عهدها الذهبي، الذي دعاني لزيارة ديترويت مركز صناعة السيارات العالمي بولاية متشجن، وشيكاغو بولاية الينوي، لأنه كما قال لي، في إجازة، ويود أن يتسكع في بعض الولايات للترويح الذي يحسن أن يكون مع رفيق. ورحبت بطبيعة الحال، لاسيما وأن الرحلة سوف تتم بطريق الأوتوبيس! والحقيقة أنه ليس «حافلة» بقدر ما هو صالون رائع، فيه كل وسائل الراحة والرفاهية والترويح.

المشاهد الطبيعية في الطريق خلابة، البحيرات الهائلة والأنهار الجارية، والغابات الكثيفة، والقصور المنيفة، والحدائق المزهرة المثمرة، ثم المصانع المذهلة، التي تستخدم عشرات الآلاف من العمال، وتعدّ لهم قبل المصنع كل ما يحتاجون إليه من مساكن ومرافق ووسائل ترويح!

في بلاد رجال العصابات

وبعد أن أنفقنا يومين رائعين في ديترويت استأنفنا المسيرة إلى شيكاغو في ولاية الينوي. وكان يكابدني شوق إليها! تذكرت آل كابوني السفاح وفيلم «ذو الوجه المجروح» لبول موني، وديلنجر الرهيب والممثل القدير جورج رافت، وحمدت الله أن معي رفيقاً، وأني لن أسير وحدي

في المدينة المجنونة! ولعلي لهذا السبب لم يخالجني الشعور بالخوف الذي طاردني في نيويـورك، بسبب الزنوج العاطلين الذيـن يمارسون السرقة بالاكراه!

والزنوج الآن يتجهون إلى التفوق في الرياضة من قبيل التعويض النفساني، لأنهم من الناحية العقلانية لم ينبغوا كثيـراً في العلم والاجتماع والسياسة والاقتصاد، فيما عدا بعض الفلتات مثل رالف بانش وكينج وغيرهما. ولذلك ترى منهم الآن أسرع البشر عدواً، وأعظم لاعبي كرة السلة والرجبي والبيسبـول والملاكمـة. وهـكذا فرض الزنـوج احتـرام المجتمع الأمريكي لهم، بل إن ذكر اسم محمد علي كلاي الملاكـم، أو عبد الكريـــم عبد الجبار نجم كرة السلة، أو كارل لويس العداء، أو موزيس بطل الحواجز، يعطي للمواطن الأمريكي الأبيض شعوراً بالفخار! وسبحان مغير الأحوال! فقد كانت التفرقة العنصرية على أشدها في بداية هذا القرن. وتحت ضغط الرأي العام العالمي اختارت اللجنة الأوليمبية الأمـريكية عداء زنجياً من عدائـي سبـــاق ٤٠٠ متـــر عدواً، في دورة استوكهولم عام ١٩١٢، وخرج زميلاه الأبيضان في التصفيات، وبقي هو، الزنجي مرشحاً لبطولة السباق! مدربه الأمريكي حبسه يوم السباق حتى لا يكسب، ويكون سبّة في جبين أمريكا!!

مع رعاة البقر في تكساس!

الخوف شعرت به أيضاً في ولاية تكساس، حـين زرت أمـريكا لأول مرة عام ١٩٦٨، متوجهاً إليها بالسيارة من المكسيك. مصر كان

اسمها في ذلك الوقت «الجمهورية العربية المتحدة»، ووقف ضابط الجوازات في لاريدو على الحدود يسألني أين تقع هذه الدولة؟ حاولت أن أفهمه دون جدوى، إلى أن قلت إنها «مصر»! قال: أوه، الأهرام، أبو الهول، الصحراء، الجمل! قلت له: تمام، عليك نور!

الطريق إلى سانت أنطونيو رائع، وقطعان البقر بلا نهاية، وما أكثر الشارد منها على الطريق. وعلى الجانبين محلات كثيرة، لتناول لقمة أو مشروب. ونختلف إلى مائدة، لنفاجأ بلفيف من رعاة البقر، طوال القامة، مفتولي العضلات، عراض المناكب، يرتدون «السومبريرو» أو القبعة المكسيكية، والصدور مدججة بالمسدسات، ودخولهم مثير للرعب، فهم يركلون الباب بالأقدام، فيفتح بأنين وصرير، وضحكاتهم تعلو، وتحس أنهم يوشكون أن يطلقوا الرصاص! شيء مخيف!

وتحاول أن تخرج من سانت أنطونيو فنتوه! المدينة ترتيبها بين مدن أمريكا بعد الخمسين، ومع ذلك فإن بها مطاراً دولياً، وطرقاً رائعة علوية وسفلية وأنفاقاً وجسوراً لا نهاية لها، ورغم أن رقم الطريق معنا، فقد ضللنا الطريق إلى دالاس عدة مرات!

الطمأنينة في لوس أنجيلوس!

على العكس شعرنا بطمأنينة كاملة عندما زرنا لوس انجيلوس عام ١٩٨٣، لتفقد الاستعدادات للدورات الأوليمبية لعام ١٩٨٤. المدينة تحفة في الذوق المعماري والتنسيق الحضاري. أحياء كاملة من

الفيلات وحدائقها الخضراء الزاهية اليانعة. ومناطق إسكان شعبي غاية في النظافة والأناقة، ومواقع لاستوديوهات السينما وقصور النجوم، وشوارع للمشتريات فيها كل ما تشتهي النفوس، ثم تحفة للترويح هي مدينة ديزني، أو «ديزني لاند». مدينة ملاه كاملة فيها كل ألعاب الأطفال، من مراجيح، وحيوانات، وبيوت أشباح، وقطارات رعب، وألعاب تسلية، لكنها متعة للرواد الكبار قبل الأطفال. شكراً للصديق المهاجر المصري، أستاذ الطباعة فايز صليب فرج، الذي دعاني لزيارة شركة يونيفرسال، والديزني لاند، فأتاح لي فرص استمتاع بلا حدود!

العجب في لاس فيجاس!

ومن الفندق في لوس أنجيلوس اتصلت بالهاتف مع المستر باتلر رجل الفنادق والملاكمة في لاس فيجاس بولاية نيفادا، وهو الصديق الذي كان يريد تنفيذ عدة مشروعات سياحية في مصر، لاسيما في منطقة المنتزة بالإسكندرية، فدعاني لقضاء أسبوع هناك، واعتذرت لأن لدي ٤ أيام فقط في أمريكا فقال: إذن ٣ أيام في لاس فيجاس، وحجز لي في فندق بلازا!

والحياة في مدينة القمار عجيبة! اللعب يكاد يتصل «ليل نهار» في كل مكان، والستائر السوداء تسدل عندما يشقشق الفجر، لكي يسود الظلام الحالك، ولا يدري أحد بطلوع النهار وبزوغ الشمس. واسمع العجب، فالفنادق في لاس فيجاس محجوزة، للأثرياء من مختلف بقاع الدنيا، خلال الدورة الأوليمبية في يوليو ١٩٨٤، للمقامرة، ومتابعة

الدورة بالتليفزيون، إن كان هناك وقت فراغ!

هذه الإطلالة السريعة على أمريكا تعطي لمحة عن الحياة في ٨ ولايات فقط، أتيحت لي زيارتها خلال أربع رحلات فما بالك بخمسين ولاية، لكل منها خصائصها وحياتها وتقاليدها التي تحتاج إلى تحقيق خاص؟

غانـا

غانا بين العز والذل. . والانقلابات العسكرية المتوالية!
الشعب يلجأ إلى الأنامالية والتواكلية. . نتيجة لطغيان الحكام!
نكروما بدأ حاكماً مصلحاً لكن حكم الفرد حوله إلى طاغية جبار!
الجالية اللبنانية كانت ١٠ آلاف نسمة وتقلصت إلى أفراد!!
رقاب تطير يوم وفاة ملك الأشانتي. . وبعدد سنوات عمره!
ملك الأشانتي يتخرج من كمبريدج لكنه يستسلم للخزعبلات!
كوماسي مدينة مهجورة يوم يلعب فريق كوتوكو مباراة كروية!
شرطة خاصة ومحاكم خاصة لقبيلة الأشانتي الرهيبة!
عندما ثار الأورانج أوتانج الضخم على لاعب من الاسماعيلي!
عايشت الشعب المطحون خلال المجاعة الرهيبة عام ١٩٨٢!
لماذا رفضت القيام بزيارة مجاملة مع بعثة الأهلي لملك الأشانتي؟

ترددت على غانا فيما بين ١٩٦٢ و١٩٨٢ ما لا يقل عن ١٠ مرات، من بينها مرة واحدة لتغطية دورة الجامعات الأفريقية التي وئدت بسبب الفقر، والباقيات من أجل كرة القدم، مع الفريق القومي وفريقي الاسماعيلي والأهلي بطلي أندية أفريقيا لأبطال الدوري.

وفي كل مرة كنت أجد غانا الجميلة في حال غير التي رأيتها عليها في زيارتي السابقة، نتيجة للإنقلابات العسكرية التي ضعضعت

اقتصاديات البلاد، وتراوحت بين حكم مطلق وشمولي في عهد نكروما إلى دكتاتورية عسكرية كان أقواها في عهد هافونج، إلى حكم مجلس رئاسة يقوده الثائر رولنجز الرئيس الحالي، الذي كان في رتبة الملازم اول حين قام بالانقلاب.

وغانا لا تعرف الوسط، شأنها شأن كل الشعوب المتخلفة التي نسميها «نامية»، من باب الضحك على النفس! إذا وثقت في حاكم سلّمت له ذقنها، وأعطته زمامها يقودها إلى حيث يشاء، وعظمته تعظيماً لابد أن ينتهي إلى غرور وانحراف وفساد!! فإذا جاء غيره وحكم بالحديد والنار، ضنت عليه بالثقة وتركته يفعل ما بدا له، وانزوى الشعب في ملاذ (الأنامالية) و (التواكلية) حتى يحدث الانهيار.

تأليه الحاكم الفرد!

في الستينيات وبداية السبعينيات كانت هناك نفحات الاستقلال وأنسام الحرية التي هبت من مصر لتطوف بأفريقيا وتنقذها من السُبات. وكان نكروما ـ الذي تزوج مصرية من شبرا ـ حاكماً مصلحاً وإن كان حكمه فرديا، لكنه زعيم ومنقذ في البداية مثل كل حاكم فرد. ولم يلبث حملة القماقم وحارقو البخور أن رفعوه إلى مصاف الآلهة، حتى طغى واستكبر وبغى وتنكر وتجبر، إلى أن طارت رأسه في انتفاضة ساخطة!

في عهده ترددت على غانا عدة مرات، ولاحظت في البداية الاتجاه إلى التعمير، ووضع حجر أساس للتقدم في كل مجال. مطارات وطرق

وميادين وعناية بالزراعة والصناعة، وتبادل تجاري ثري، ووفرة في كل شيء، ووحدة وطنية، وهذه نقطة غاية في الأهمية بالنسبة للبلاد الأفريقية، التي تعيش في جهالة قبلية، لدرجة أن بعضها يضم أكثر من ٨٠ قبيلة متنافرة متناحرة، لا تهتم كل منها إلا بأمور بطونها وعشائرها ولقمة عيشها. أما البلد الأم فليست في الحسبان!

وغانا دولة صغيرة تعدادها ١١ مليون نسمة، وعاصمتها أكرا على خليج غينيا، وأكبر مدنها كوماس عاصمة قبائل الأشانتي المحاربة وتعدادها ٣ ملايين نسمة، وهناك قبائل كثيرة غيرها لكن أهمها الجانا.

وقد وجدت تعايشاً طيباً بين الأهالي وعدد من الجاليات الأجنبية، ومنها جالية لبنانية كبيرة تضم زهاء ١٠ آلاف نسمة تعيش في أكرا وكوماسي وسوسو بيريبي وغيرها من المدن الكبيرة، وتكاد تحتكر وسائل الانتقال لاسيما سيارات التاكسي، ومحلات المانيغاتورة حيث تباع الأقمشة. وفي ظل هذا التعايش والتعاون، وحكم بدأ بنوايا طيبة، ورغبة في الاصلاح، كان كل شيء متوافراً. إلا أن النفاق وتأليه الحاكم أفسداه!

شيكولاتة من نكروما!

كان المدرس يدخل الفصل على الأطفال الصغار فيقول للواحد منهم أمام زملائه: أطلب قطعة شيكولاتة من الله لعلها أن تنزل من السماء!

فيطلب الطفل وينظر إلى سقف الفصل فلا ينزل شيء! فيقول له المدرس: اطلب قطعة شيكولاتة من نكروما!

ويجد الطفل قطعة الشيكولاتة هابطة من السقف، فقد أخرجها المدرس من جيبه ورماها في السقف!

بعد ذلك كان لابد أن يتحول المصلح إلى طاغية. ولكل طاغية نهاية! وقد أطاحت به مجموعة من ضباط الجيش قامت بانقلاب عسكري، وبدأت الأحوال تزداد سوءا لقلة الخبرة الإدارية والسياسية والاقتصادية، والاعتماد على المعونات الخارجية. وبالحس اللبناني الاقتصادي المرهف، ومع ما بدأ من إجراءات وقيود ضد الأجانب، بدأت الجالية اللبنانية تتقلص، وتحول مصالحها إلى بلاد مجاورة، ولم يبق منها سوى أفراد قلائل اندمجوا في المجتمع الغاني، بالزواج غالباً، ثم الحصول على الجنسية.

كوماسي يوم المباراة

وكوماسي ثانية مدن غانا هي عاصمة قبائل الأشانتي الرهيبة، وتعداد الأشانتي ٣ ملايين نسمة، وعدد كبير منهم مسلمون، لأن العرب دخلوا غرب أفريقيا لنشر الإسلام، لاسيما عن طريق دولة الأدارسة، وليس بالتجارة كما هو الشأن في شرق أفريقيا. وكوماسي هي مقر فريق «كوتوكو الأسطوري» ـ وهذا هو اسمه الرسمي ـ لكرة القدم. ويوم يلعب كوتوكو فإن المدينة تصبح مهجورة مثل مدن الأشباح، فلا

أحد في الشارع، ولا محال تجارية تفتح أبوابها، لأن الكل قد توجه إلى الملعب، بصرف النظر عن سعته، لأن من وجد محلاً دخل، ومن لم يجد فإنه يكتفي بالوجود على مقربة منه، يشارك في الصياح والرقص من خارج الأسوار! لكن الصورة تطورت داخل الملعب.

أيام مباريات الاسماعيلي في أواخر الستينيات وأوائل السبعينيات كان الملعب مخيفاً بحق. فطبول الحرب تدق، وملابس الغابة غلاّبة إن جاز أن تسمى ملابس، لأنها تستر العورة بالكاد، والريش يزدهي على الرأس، والوجه مطلي بطلاء أبيض في خطوط مرسومة بعناية ولها معان، «والشخاليل» في اليد، والرقص لا يتوقف، والحراب تلمع في الشمس، ومن شأن ذلك كله التأثير في الخصم، الذي لابد أن يرتعد!

وقد اختفت هذه الصورة الآن، وإن بقيت الحشود كما هي، لكن بالملابس المدنية المتحضرة، والموسيقى الراقصة، و«بلياتشو» أو مهرج لتسلية الجماهير.

رقاب تطير.. بحكم الأساطير!

ومن طقوس المباريات أن ملك قبيلة الأشانتي يصل إلى الملعب قبيل بدء اللعب مباشرة، وهو يدخل دخول ملك مهيب، يمشي بتؤدة وكبرياء تحف به حاشية ضخمة، تنشر فوقه مظلة مطرزة ضخمة، وبعضها يروّح عليه بمراوح كبيرة من ريش النعام مثل مراوح كليوباترا، ويقف اللعب كله إجلالا له!

ورغم أن عدداً كبيراً من القبيلة من المسلمين فإن الأساطير تهيمن على تصرفاتهـا، ومنها ما لا يصدقه عقل، وما زلت أرتجف إلى الآن كلما تذكرته، لاسيما وأني عايشته!

ذات ليلة من عام ١٩٦٩ كنا في كوماسي، ننزل في فندق «المدينة» الضخم، وهو من مآثر نكروما قبل الانحراف، حيث شيد فندقاً فاخراً في كل عاصمة من عواصم الأقاليـم، يضم مئات الغرف، وكلها على أحدث طراز، وتضم كل منها أفخر الأثاث وأجهزة التليفزيـون والتكييف. وجاءني مواطن غاني اسمه «عمر الفاروق»، من خريجي الأزهر وقال لي: علمت من مصادر سريـة أن ملك الأشانتي مريض وحالته متأخرة.

قلت: ربنا يشفي جلالته!

قال: كلنا ندعو له بالشفاء، وليس أنت وحدك، لأن المسألة من الخطورة بمكان.

قلت: خطورة لماذا؟ أليس له وريث أو ولي عهد؟

قال: له طبعاً، لكن الخطورة ليست من هذه الناحية، وإنما هي أن الأساطير تقضي بأنه إذا توفي لا تعلن وفاته، ولا يجري دفنه، إلا إذا انطلقت حاشيته في الشوارع والغابات، لتقتل من يصادفها من البشر، دون اي تمييز، ثم تقطع رقابهم وتأخذ الجماجم وترمي الجثث، إلى أن تجمع من الجماجم عدداً يوازي عدد سنوات عمر الملك، لكـي تدفن معه، وعندئذ فقط تعلن وفاته، وتتخذ إجراءات الجنازة!

قلت: أعوذ بالله! هكذا. . في نهاية القرن العشرين؟

قال: الأساطير في قبائل أفريقيا أقوى من المدنية ومن الدين ومن أي سلطة أو ثقافة أو عقيدة!

قلت: وما هو المطلوب منا؟ أن نخرج إلى الشارع بكامل عددنا كبعثة تضم ٣٠ فرداً لنوفر عليكم ٣٠ رقبة؟

قال: ما زالت النكتة على لسانكم دائماً! لو كان الأمر كذلك لما أتيت لك. جئت أنصحكم بعدم مغادرة الفندق لأي سبب، وعليك إخطار زملائك بذلك!

وسلم عليّ عمر الفاروق لكي ينصرف. ولأن الفندق على ربوة عالية تحيط به الغابة، والشارع مقفر موحش، فقد «حبكت» النكتة وقلت له: إذا كتبت لك النجاة في مشوار العودة من الفندق الآن، فدعنا نراك غداً قبل أن نسافر!

نجاة ٣ مصريين!

وفي العام التالي عدنا إلى كوماسي، وكان بين مستقبلينا عمر الفاروق والمدرس المصري الوحيد في المدينة واسمه أحمد جاد. وفي صالة الفندق همست في أذن عمر الفاروق لأهنئه على أنه ما زال على قيد الحياة! وسألته عما حدث فقال: لن أحكي لك ما حدث، وإنما أتركه لأستاذنا أحمد جاد ليرويه لك، لأنه خاض التجربة!

وقال أحمد جاد: كنت ألاحظ خلو الشوارع فعلاً، بعد أن شاع أن الملك مريض يحتضر. ولكن زوجتي أصيبت بألم شديد في أسنانها لا

يحتمل. لم تنفع معه كل أنواع المسكنات. كانت تتلوى من الألم، وجافانا النوم والهدوء، ولم أطق أن أراها تتعذب، فقررت أن آخذها إلى طبيب الأسنان الذي يعالجها دائماً. وزيادة في الحيطة عمّرت مسدسي وأخذته معي في سيارتي الصغيرة الفولكس فاجن، وتوكّلت على الله، فالرب واحد والعمر واحد!

الشارع مقفر. توجست خيفة. وضعت المسدس أمام عجلة القيادة أغلقت نوافذ السيارة. وسرت وأنا أقرأ فاتحة الكتاب وبعض آيات القرآن. وعلى بعد، رأيت أشباحاً تعترض الطريق. عمالقة بالحراب ولبس الغابة. أوقفوني، وتظاهروا بالرغبة في محادثتي. لم أفتح سوى سنتيمتر واحد من النافذة. كان معي زوجتي وطفلنا الرضيع، يعني ثلاث جماجم! سألتهم ماذا يريدون. تلكأوا في الإجابة، «دست بنزين»، وانطلقت بأقصى سرعة! خافوا على أنفسهم وأوسعوا الطريق. نفذت بجلدي!

قلت له: ألف مبروك على النجاة، لكن كم جمجمة؟

قال: كان الملك صغيراً، عمره ٣٧ سنة فقط، وجمعوا ٣٧ جمجمة ودفنوه. وأريدك أن ترى شيئاً. في أعلى قصر الملك هناك جزء مهدوم بطلقة مدفع، هل تدري لماذا؟ في ظرف مماثل انطلق زبانية الحاشية لجمع الجماجم، فقتلوا رجلاً انجليزياً، وكانت غانا مستعمرة، فجاء الجيش الانجليزي وضرب بيت الملك بالمدافع!

قلت: وما هي أخبار الملك الجديد؟

قال: شاب ممتاز خريج جامعة كمبريدج الانجليزيـة! ولكنه ملك الأشانتي حيث تسيطر الأساطير. وفي الحقيقة فإن الحاكم الحقيقي هي الملكة الأم؟

احتجاج الأورانج أوتانج!

بعد هذه الأخبار السارة انطلقنا في الشوارع دون خوف. وقررنا ذات يوم أن نروح عن أنفسنا بزيـارة حديقة الحيـوان التي تضم ـ كما علمنا ـ قرداً ضخماً من نوع «الأورانج أوتان» أو الغوريللا، يتميز بخفة الدم والحركة. وكانت الغوريللا في غاية المرح، نرمي لها الموز والفول السوداني فتلتقطه ببراعة وتشكــرنا «بشقلباظ» أو «بالانس»، وهي ضاحكة الثغر!

وتقدم منها سيد عبدالـرازق ـ بازوكا ـ وهو لاعب عريض المنكبين قصير القامة مفتول الساعد، فرمى لها كما نرمي، وإذا بها تثور ثورة عارمة، وتكاد تحطم القفص، وذهلنا، وجرينا مبتعديـن، وقال قائل: لماذا ثارت هكذا حين رمى لها سيد عبدالـرازق؟

وهرش حسن مختار حارس المـرمى وزوج المانيكـــان والفنانة رجاء الجداوي ثم قال: القرد عنده حق في هذه الثورة، فقد فكر كيف يكون هذا المخلوق حراً بينما هو محبوس في قفص؟!

الطريق إلى كوماسي!

وفي كوماسي مطار دولي، بينه وبين أكرا العاصمة أقل من ساعة، ولكن الترتيب المقرر هو أن تقطع الفرق المصرية هذه المسافة بالأوتوبيس

في ٦ ساعات حتى ينال منها الإرهاق ! المناظر الطبيعية رائعة والخضرة زاهية والجبال والوديان ساحرة، وعلى الطريق نقط مأهولة بها بعض المحلات التجارية البسيطة، وبعض النسوة يبعن الموز واليام، وهو الطعام الأفريقي، والناس طيبون بسطاء، والرحلة يمكن أن تكون ممتعة لمن يشاء، لأنك كما تكون ترى الأشياء!

المجاعة تفتك بغانا!

ويا ليتني ما رافقت بعثة النادي الأهلي إلى غانا في ديسمبر ١٩٨٢ لأداء المباراة النهائية ضد كوتوكو الأسطوري، فقد رأيت البؤس والفقر يخيمان على غانا الجميلة، وينشبان مخالبهما الوحشية في أهلها الطيبين! لقد أدركت تماماً لماذا قال علي بن أبي طالب كرم الله وجهه: لو كان الفقر رجلاً لقتلته!

مجاعة بشعة، وتدهور لا يوصف. كنا على علم بالحالة فسافرنا من القاهرة بطائرة حربية فيها أطنان من المواد الغذائية والمياه المعدنية، وذهبنا إلى كوماسي مباشرة، ووصلنا إلى الفندق الكبير، وإذا بمديره يزعم أنه لا توجد أماكن. ثم بدأ يلين ويكتشف غرفاً خالية كلما رأى الدولارات بعينه، ثم ثبت ثمن حجز الغرفة على ٢٠ دولاراً، فاتسع الفندق للجميع، وظلت عشرات الغرف خالية، فالفندق قطاع عام، وهذه المبالغ لن تذهب للدولة وإنما للمدير المرتشي!

ووجدت غانا أخرى، غانا الذل والهوان! بلاد ليس فيها ماء للاستحمام ولا للشرب، ولا لحوم ولا دواجن، ولا بيض ولا جبن، ولا

كاكاو ولا لبن، ولا قهوة ولا شاي - وهي بلاد الكاكاو والشاي - ولا صابون ولا سجائر ولا أي شيء! الناس يتضورون جوعاً، والأجسام السمهرية الأبنوسية تحولت إلى هياكل عظمية، والقذارة في كل مكان والروائح كريهة، والشعب تحول إلى جيوش من المتسولين!

ولا أدري هل قام الملازم رولنجز بانقلابه العسكري لإنقاذ البلاد من هذه المجاعة أم أن انقلابه كان السبب فيها، بدليل أنه أحبط محاولة انقلاب جديدة؟ ولكن الذي أدريه أن الشعب مغلوب على أمره، ولا ينتظر أن يتحرك ويثور، لأن القبيلة تمزّقه والمجاعة تفتك به، كان الله في عونه.

مع ملك الأشانتي!

وكنت قد رويت الكثير لإدارة بعثة الأهلي عن غانا، وقلت لهم فوق ذلك كله إن الأشانتي دولة داخل الدولة، فلهم بوليسهم الخاص ومحاكمهم الخاصة، بل أقسام شرطة خاصة، فإذا ارتكب أحد الأشانتي جريمة يقبض عليه بوليس القبيلة وله زي خاص لونه كحلي، وتحاكمه محاكم القبيلة. أما الدولة فلا شأن لها بهم!

وإذ تأكد الدكتور عبد الأحد جمال الدين رئيس المجلس الأعلى للشباب الذي رافق البعثة وصالح سليم رئيس الأهلي من مكانة الأشانتي قررا زيارة الملك زيارة مجاملة، ودعواني لمرافقتهما. اعتذرت قائلاً: أعرف أن الملك الجديد خريج كمبريدج، وعمره ٣٥ سنة فقط، ورجل حلو الحديث عالي الثقافة، وصحته جيدة، إلا أن الأعمار بيد الله! فماذا لو داهمته نوبة قلبية؟ إن المثل العامي يقول: أبعد عن الشر وغنّي له!

أثيوبيا

أثيوبيا سد استعماري لمنع قيام بحيرة عربية إسلامية!
أديس أبابا عام ١٩٦١ بين السباع والضباع والاقطاع!
عندما استقبل بطل الماراثون بيكيلا في الشوارع استقبال الغزاة!
الثوار يسجدون للامبراطور عام ١٩٧٤ حين واجههم في المطار!
نظام مانجستو اليساري أقيم لتكملة الحلقة الشيوعية!
أيام الرعب عام ١٩٧٥ والدبابات وحظر التجول ليلاً!
المرأة الأثيوبية تتميز بالأنوثة والنعومة والجنس ترعاه الحكومة!
الحضارمة واليمنيون ملوك «الماركاتو» وأغنى تجار أديس أبابا!
الوات والأنجيرا . الأكلة الشعبية التي توقف شعر الرأس!
نجاة فريق المقاولين العرب بمعجزة من حادث طائرة في أسمرة!

كانت زيارتي الأولى لأثيوبيا عام ١٩٦١ بمناسبة تنظيم نهائي بطولة أفريقيا الكروية الثالثة في أديس أبابا التي يعني اسمها «الزهرة الجديدة»! وقتها كانت إقامتنا في فندق كبير قديم اسمه «جنة اوتيل» أي لوكاندة الفردوس، وهو يقع على مشارف المدينة، وتحيط به مشاهد طبيعية خلابة، لكن ليس له من مقومات الجنة إلا هذه المشاهد!

وفي حديقة الفندق كان هناك أسد حقيقي في قفص حديدي.

وباستثناء التدريب كان هناك فراغ كبير لدى الفريق، الذي لم يكن أمامه سوى الاسترخاء في الحديقة في الصباح مستمتعاً بالطقس الجميل، فإذا اشتدت أشعة الشمس لاذ اللاعبون بغرفهم للدردشة أو النوم، فاللاعب المصري لا يحمل معه كتاباً ليقرأ، ولا يحب أن ترتب له زيارة لمتحف أو مصنع! والطعام في الفندق سيىء المذاق، ولذا فإن الفريق ينتظر دعوة للغذاء أو العشاء لدى السفير أو أحد رجال السفارة، لينقض أعضاؤه على أطباق البامية والملوخية وورق العنب انقضاض الصقور على الحبارى!

والزهرة الجديدة - وقتذاك - كانت غلافاً جميلاً لكتاب رديء! مناظر طبيعية رائعة لكن آخر فقر! مجموعات من الأكواخ الحقيرة من الصفيح أو القش، وبضع عمارات حديثة مملوكة للوزراء، وقصور الأمبراطور المنيفة، كالمنظر الخلفي الرائع في فيلم يحكي قصة بؤس شديد!

هزيمة مصر بسبب الأوكسيجين!

ومن الناحية الكروية فقد حدث العجب - «مصر التي في خاطري» كانت قد هزمت النمسا ١/ صفر قبلها بأسبوع، رغم ٧ انتصارات متوالية للنمسا ضد أعتى الفرق، وإذا بها تخسر أمام أثيوبيا ٢/ ٤ بعد وقت إضافي، لانقطاع أنفاس اللاعبين بسبب نقص الأوكسيجين! وضاع لقب البطولة.. وإلى الآن! وقد حضر المباراة الأمبراطور هيلا سلاسي ومعه كلب لونه لون الأسد، ولأن الزميل

عبد الرحمن فهمي مندوب جريدة الجمهورية ضعيف النظر فقد سأل زميلاً آخر عما يصطحبه الأمبراطور فقال له: أسد! ـ وصدق عبد الرحمن الخبر وكان عنوانه: مصر تخسر المباراة بسبب الأسد والاوكسيجين!

وكان يوسف الشريعي المرهف الحس الخفيف القلب ضحية مقلب دبّره حسين مذكور المعلق التليفزيوني. اصطحبني معه إلى غرفة الشريعي، الذي أشغلته في حديث فني، بينما تظاهر مذكور بالانصراف، إلا أنه تسلل، واختفى تحت السرير، وبدأ يزمجر كالأسد، وأخذت أتظاهر بالانزعاج، ثم صحت قائلاً: لا، إني أشم رائحة أسد قريب، وهو إما على الباب أو في الغرفة!

ولم أكد أنهي العبارة حتى فوجئت بالشريعي مغشياً عليه! ووقعنا في حيص بيص! جرى مذكور لإحضار طبيب البعثة، وجعلت أرش الكولونيا على وجه الشريعي لعله أن يفيق، وكانت حكاية!

الماركاتو والقريظة والحضارمة!

وفي ذلك الوقت كانت الوحدة قائمة بين مصر وسوريا، وكان تيار الوحدة العربية جارفاً، وكان اسم مصر قد اختفى وأصبحت «الأقليم الجنوبي»! ولم يكن الانفصال قد حدث، فقد تحقق في آخر تلك السنة. وذهب الفريق إلى الماركاتو أو السوق الكبير، والتسمية إيطالية. وزيارته ضرورية لمن يلقي به الزمن أو العمل في أديس أبابا، ووجدنا مجموعة كبيرة من الدكاكين البسيطة، معظمها مملوك لأهل اليمن لاسيا الحضارمة. وكانت حفاوتهم بالفريق المصري رائعة. وكانت السلع

الأساسية التي أقبل المصريون على شرائها هي التوابـل والشـاي والبـن و«القريظة» وهي سجادة صغيرة مستطيلة أو مستديرة، وبأحجام مختلفة، مصنوعة من جلود قرود معينة، لونها أبيض في أسود، وكل بقعة سوداء فيها تمثل قرداً كاملاً.

نزهة أسود الأمبراطور بالشارع

والجالية المصرية في أديس أبابا لها وزنها. وعميدها زكي المصري ـ رحمه الله ـ يقيم في أديس أبابا منذ ٤٠ سنة ودعواته وخدماته للفـرق المصرية لا تنتهي. وذات يوم دعانا رجل أعمال آخر هو موريس مكرم الله على العشاء، وقالت لنا السيدة زوجته أنه ينبغي ألا يفوتنا مشاهدة نزهة أسود الأمبراطور في الشارع كل يوم أمام القصر الأمبراطوري، يسحبها الخدم وهي غير مكممة، دون أن يحدث أي شيء، لأن الأسود «شبعانة» إلى حد التخمة! ويصيح يوسف الشريعي: يفتح الله، يا ستي!

ويقال لنا بصراحة: لا تمشوا في الشوارع ليلا، لأن «الهايينـا» ـ الضباع ـ تتسلل من الأحراش إلى الشوارع! وامتنعنا عن الخروج منذ المغرب، ولو أن خبيراً بالأمم المتحدة هوّن علينا الأمر، وأكد أن الضباع لا تهاجم إلا النائم ظانة أنه جيفة!

ثم لماذا نخرج؟ وأين نذهب؟ ففي أديس أبابا وقتذاك ٤ دور سينما فقط كلها درجة رابعة، وتعرض أفلاماً قديمة، وهي نفسها لا تشجـع على ارتيادها لأنها مليئة بكل أنواع الحشرات الصغيرة!

معجزة اسمها: أبيبي بيكيلا!

وكنت قد شاهدت في دورة روما عام ١٩٦٠ العملاق الأثيوبي الحافي أبيبي بيكيلا يكتسح سباق الماراتون بخطوته الأسطورية ونفسه الطويل، فلما عاد إلى أديس أبابا ماجت العاصمة بمئات الآلاف من المواطنين واصطف الجيش في الشوارع لتحية البطل القومي، الذي استقل سيارة مكشوفة، وأمسك بسلسلة في آخرها أسد ضخم طليق، ووراءه موكب من الأفيال عليها طبول تدق وموسيقى تعزف، حتى وصل إلى قصر الأمبراطور هيلا سلاسي، الذي نزل سلالم القصر ـ وهو ثبط يهوذا الهابط من السماء ـ لينحني على البطل ويقبله ويقلده وساماً رفيعاً، ثم يصطحبه إلى داخل القصر ليبدأ حفل تكريمه الخرافي!

وكان طبيعياً أن أسعى للقائه، لكن كانت تنتظرني مفاجأة غير سارة! فقد وجدته أمياً لا يتحدث سوى الأمهرية. واكتفيت بحديث سريع مع مدربه الفنلندي نيسكانين، الذي يتكلم الانجليزية بصعوبة!

الاستعمار يستغل الدين!

وتقع أثيوبيا في القرن الأفريقي، وهي هضبة مرتفعة، وتتفشى فيها القبلية، وأهم قبائلها الغالة الأمهرة، والدناكل، والتجريون. وفي العهد الأمبراطوري كان بها طبقتان فقطهما الملاك والمعدمون. وهي جزيرة مسيحية وسط بحر مسلم، ولذلك قام فيها تحالف بين المسيحية والاستعمار، حتى لا يصبح البحر الأحمر بحيرة عربية إسلامية، وحتى تظل أثيوبيا محور ارتكاز للمسيحية في أفريقيا ربطاً بمسيحية الغرب،

واستغلالا للدين في أغراض سياسية. ولهذا توحي المصادر الرسمية، في إحصاءات مغلوطة عن عمد بأن أغلبية الشعب مسيحية، مع أن العكس هو الصحيح، وتطبيقاً لذلك لا يتولى المسلمون المناصب الحساسة. وتعداد أثيوبيا ٢٦ مليون نسمة، والعاصمة أديس أبابا أي الزهرة الجديدة تعدادها زهاء نصف مليون.

الثوار يسجدون للأمبراطور!

وقبل ثورة فبراير ١٩٧٤ نشبت ثورة أخرى ضد الأمبراطور، يوم سفره لزيارة البرازيل. وكنت هناك مع فريق المحلة في الطريق لغرب أفريقيا، وشهدت العجب. علم الأمبراطور بالثورة وطائرته ما زالت في لاجوس عاصمة نيجيريا فعاد على الفور، وانتظره الثوار بمطار أديس أبابا لكي يقتلوه! وما أن رأوه حتى سجدوا لشبط يهوذا الهابط من السماء! وكانت عقوبة رؤسائهم الإعدام، وألقي بالآلاف في غياهب السجون.

إلا أن الرئيس الحالي مانجستو ميريام قام بثورته، هو وزملاؤه، وسجنوا الأمبراطور، واستولوا على الحكم وأعلنوا الأحكام العرفية. وفي عام ١٩٧٥ زرت أديس أبابا في هذه الظروف، مرافقاً للفريق القومي المشترك في نهائيات دول أفريقيا الكروية التي نظمت في أثيوبيا. وقد عشنا أياماً من الرعب بسبب خطر التجول من العاشرة مساء إلى الصباح، والدبابات تتجول ليل نهار في الشوارع، والرصاص يدوي باستمرار، والدكاكين خالية من البضاعة، والبلاد معرضة لخطر المجاعة. ذلك أن ثورة مانجستو ميريام يسارية، وتعد حلقة في الحزام الأفريقي

الشيوعي الذي يبدأ من اليمن الجنوبي، ويمتد إلى أثيوبيا، ثم الكونجو برازافيل، وأنجولا.

الزي الأثيوبي والوات والانجيرا

والزي الوطني الأثيوبي للرجال هو ينطلون أبيض ضيق يلتصق بالساق ويسمى سورّى، وجاكتة بيضاء كالشال تسمى كوته، وهو زي فريد في أفريقيا، لكنه مناسب للمناخ. فارتفاع الهضبة يجعل درجة الحرارة في بعض الجهات تدور حول ٨ مئوية، وفي البعض الآخر ١٤، وفي أشد الجهات انخفاضاً لا تزيد عن ٢٨ درجة مئوية. أما الزي الوطني للمرأة فهو «الثوب».

والطعام الأثيوبي حريف بصفة عامة. والأكلة الشعبية هي «الوات والأنجيرا». والأنجيرا خبز من حبوب كالقمح والشعير اسمها «التيف»، والوات هي قطع من اللحم أو السمك او الدجاج في صلصة حريفة مليئة «بالبربري» - أي الشطة - وكثيراً ما يضعون بعض قرونها طازجة! وعندما تذوق هذا الطبق فإنك تضع يدك على رأسك لا شعورياً، لأنك تشعر بأن شعرك يطير!

ويبدو أن المرأة الأثيوبية على قسط كبير من الأنوثة والنعومة رغم لونها النحاسي وشعرها المجعد. وأديس أبابا هي المركز الجنسي في شرق أفريقيا، وكانت ترعاه الحكومة، حفاظاً على نظافته، ولكنه ينتشر اليوم في الفنادق، وبنظام محدد.

وفي أديس أبابا الآن عدد كبير من الفنادق الفخمة، التي أنشأها الأمبراطور هيلا سلاسي ضمن مبان ضخمة كثيرة،حين قرر بناء منظمة الوحدة الأفريقية، سعياً وراء الزعامة التي كان يتطلع إليها، ومنها فندق واباشيبيللي، على اسم نهر هام في الجنوب.

الحامي والسامي معاً!

وتنتمي قبائل الغالة إلى الجنس الحامي، وهو جنس زنجي لكن ليس له ملامح الزنوج، فليس لديهم الأنف الأفطس أو الشفاه الغليظة. لونهم نحاسي فاتح وأجسامهم قوية مفتولة. ولغتهم حامية مثل أهالي الصومال وقبائل العفر والساهو، وإن اختلفت اللهجات. وتضم هذه القبائل ٢٠٠ قبيلة فرعية، وتعد أكبر قبائل أثيوبيا،ويبلغ تعدادها زهاء ٩ ملايين نسمة، ومعظمهم من المسلمين.

وتعيش قبائل الدناكل على ساحل البحر الأحمر، وهي عربية مسلمة، شديدة المراس في الحرب، ومقسمة إلى عدة سلطنات أكبرها سلطنة أوسا، وسلطانها يهادن السلطة حتى لا يتعرض هو وقومه للاضطهاد.

أما قبائل الأمهرة فهي امتداد لمملكة أكسوم وللسلالة السامية، وهي مسيحية أرثوذوكسية، وتعد نفسها الصفوة الحاكمة.

النجاة . . في آخر زيارة!

بقيت بعد هذه اللمحة عن أثيوبيا حكاية نجاة كتبها الله لنا، من حادث طائرة في آخر زيارة لأديس أبابا. ففي عام ١٩٨٢ كنت أرافق فريق المقاولين العرب في نهائي بطولة أفريقيا لأبطال الكأس لكرة القدم، ضد بطل زامبيا في لوساكا، وفي طريق العودة عرجنا على هراري عاصمة زيمبابوي ثم أديس أبابا، في طريقنا إلى جدة لكي نؤدي العمرة مكافأة للفريق على فوزه!

وفي خلال الإقلاع الطائرة من مطار أديس أبابا ارتطم ذيلها بالأرض، ولكن الله سلّم. وواصلت الطيران لكي تهبط في أسمرة عاصمة أريتريا. واختل توازن الطائرة أثناء الهبوط، لدرجة أن الجناح ارتطم بالرمل قبل العجل!

وأوشكت الطائرة أن تنقلب، وقرأنا الشهادتين، إلا أن الطيار استطاع أن يسيطر على الموقف بسرعة، واستعاد التوازن. ولما استقر على المهبط وجدنا المطار كله في ذعر، وعربات الإسعاف والإطفاء مستعدة، والناس في هلع. وتوافد الكل علينا مهنئاً لأننا نجونا بمعجزة!

وقال بعضنا: الحمد لله. قل لن يصيبنا إلا ما كتب الله لنا. وقال البعض الآخر: هذه بركة العمرة!

ألمانيا الغربية

ألمانيا الغربية . . مدرسة الالتزام بالنظام وتقديس العمل!
هامبورج والميل القذر . . ورصف الطرق الرائعة بالاسمنت المسلح!
محاكمة نورمبورج لزعماء النازي وسخرية القدر وقنبلة هيروشيما!
أغرب منافسة في هيرتزوجين أوراخ بين الاخوة الأعداء . . !
عندما فاتنا القطار في فيرونا مقر قصة روميو وجولييت!
أروع المشاهد الطبيعية في الغابة السوداء وهايدلبرج وبرختسجادن!
الحكم المحلي الحقيقي يجعل من مدن ألمانيا وأصغر قراها آية في الجمال!
كيف تتابعت الأحداث في ميونيخ بعد قتل الفدائيين للاعبي إسرائيل؟!
وجهة نظر الفدائيين واضحة . ووجهة نظر السلطات الألمانية مفهومة!

أبدأ الحديث عن ألمانيا باعتراف فعندما وصل روميل إلى مشارف الاسكندرية إبان الحرب العالمية الثانية، وتوقف عند العلمين ليستعد لدخول الثغر على جواد أبيض مطهم، دخول قيصر والإسكندر الأكبر، بادرت إلى شراء كتاب لتعليم الألمانية، بالجهود الذاتية، ليس عن خوف أو ممالأة، وإنما لأني أعرف عن الألمان أنهم «ما يعرفوش عربي!»

واندحر الألمان في معركة العلمين لأسباب إيطالية. وخسرت ألمانيا

الحرب، ودكتها الطائرات دكاً، وسوّتها بالأرض. وتركتها خراباً يبابا أو قاعاً صفصفاً!

وذهلت عندما زرتها لأول مرة عام ١٩٥٥، ووجدت أن آثار العدوان أو الحرب قد أزيلت. وأن الخراب والدمار قد اختفيا، وقامت العمارات الشاهقة والمصانع المنيفة في كل المدن. وفي هذه الرحلة زرت برلين الغربية وهانوفر وفرانكفورت وشتوتجارت، وكان كل همي أن أتأمل وأتعلم. وتعلمت فعلاً أن العمل عند الألمان عبادة، وأن النظام له قداسة، وأن لكل دقيقة ثمناً. وتعلمت أيضاً أن العمل شيء، وأن الترويح شيء آخر. فوقت الفراغ كله لهو ومرح، وخروج من المدينة إلى أحضان الطبيعة. في معسكرات ومخيمات ترعاها الدولة، حول البحيرات وشواطىء الأنهار وداخل الغابات الكثيفة. انغماس في العمل والإنتاج، وانغماس في المرح والترويح، والنتيجة هي ارتفاع مستوى الصحة العامة للشعب، والتقدم المذهل والرخاء! كل ذلك رغم وجود جيوش الاحتلال التي لا يوليها الألمان أي اعتبار، من جهة لأنهم لا يعرفون العقد، ومن جهة أخرى لأن جيوش الاحتلال لا تتدخل في شيء على الإطلاق، فكل همها هو عدم تكوين جيش ألماني جديد، يكتسح أوروبا مرة أخرى!

«باسطا» ياسطى!!

وزرت ألمانيا عدة مرات بعد ذلك. وفي عام ١٩٦٣ سافرت مع منتخبات جامعة عين شمس لأداء مباريات مع جامعة ميونيخ عاصمة بافاريا، صعيد ألمانيا. وكان سفري بالباخرة لأول مرة، وهو متعة

واسترخاء، لاسيا وأني لا أعاني من دوار البحر. وصلنا إلى جنوة، وأخذنا القطار إلى ميونيخ، مارين بميلانو، ثم سويسرة والنمسا. ولقلة الخبراء، وخطأ إداري كنا نظن أنه لا تغيير في القطار!

ووصلنا إلى فيرونا، موطن آل كابيوليت وآل مونتاجيو، أهل جولييت وروميو، وفوجئنا بأننا لابد أن نغير القطار، وبينه وبين القطار الآخر خمس دقائق، ومعنا حقائب ثقيلة، «وموضة» الحمالين انقرضت من زمان، ولحق نصف أعضاء البعثة بالقطار، ومنهم الإداري الذي معه التذاكر، وجرى الباقون وراء القطار يلهثون ويحاولون التشبث به، والمذيع الصعيدي فهمي عمر يصيح مخاطباً سائق القطار: «باسطا» ياسطى وحياة أبوك! يعني على مهلك يا أوسطى! لكن الأوسطى لا يسمع، ويتركنا على الرصيف في ورطة لا مثيل لها!!

ونذهب إلى ناظر المحطة فيهدىء روعنا، ويتصل بالمحطة التالية، ويطلب من ناظرها حجز تذاكر المتخلفين، ويخطره بأننا سوف نستقل القطار التالي، وتنقشع الغمة! ونصل إلى مدينة برينر السويسرية بعد اجتياز ممر برينر في جبال الألب، ويتضح أننا كان لابد أن نحصل على تأشيرة دخول لسويسرة، وكنا نظن أنها لا لزوم لها ما دمنا مجرد عابرين، لكن سلطات الجوازات رفضت وأصرت على إنزالنا من القطار، لإتمام الإجراءات، على أن نستقل القطار التالي، الذي يخترق التيرول النمساوي، بعد ١٢ ساعة! ولم يكن أمامنا إلا أن نتسكع في شوارع المدينة الهادئة، فإذا بها تحفة للناظرين!

وأدينا مبارياتنا وعدنا بنفس الطريقة، وكانت الدروس المستفادة

كثيرة، ومنها أن السفر بالقطار والسيارة أمتع وأجدى كثيراً من السفر بالطائرة، لأنه يهيىء فرصة التأمل والدراسة ومشاهدة جمال الطبيعة، وإدراك مدى تقدم المجتمع خارج زيف الحضر والمدن الكبيرة، ومنها أن العبور لا يغني عن تأشيرات الدخول، ومنها أن قطارات المسافات الطويلة تنفصل منها عربات في الطريق، تأخذ وجهة أخرى حتى والركاب ينام!

هامبورج والميل القذر

وفي صيف ١٩٧٠ زرت المانيا مرة أخرى مرافقاً للنادي الاسماعيلي مكافأة له على إحراز بطولة أبطال الدوري في أفريقيا، حيث لعب عدة مباريات في برلين وبايرويت وهرتزوجين أوراخ وهانوفر، وزار هامبورج ونورمبورج، وبصرف النظر عن أن الاسماعيلي فاز على أندية الدرجة الأولى، وانهزم من أندية الدرجة الثانية فإن أساس الرحلة هو الترويح، ولذلك لم يتشنج أحد،وأخذ الجميع الانتصارات والهزائم بروح رياضية لا تتوافر في المباريات الرسمية، التي تحمل مسحة من النعرة القومية والكرامة الذاتية لاسيا في الشعوب النامية، التي ما زالت بعيدة عن إدراك أهداف الرياضة!

وأنفقنا في بريمن أياماً جميلة، فالمدينة نظيفة وكبيرة وبها كل ما يخطر على البال، لأن اللامركزية لا تركز الخدمات في العاصمة وحدها. وفي المدينة أحياء قديمة ترجع إلى العصور الوسطى، حافلة بشوارع مهرة الصناع، وبيوتها قديمة ونمطية، ويتوسط المدينة ميدان «شنورفيرتيل» الحديث، الذي يحوي من الأنفاق والكباري ما يكفل سيولة المرور حتى

في ساعات الذروة. وكل شيء في ألمانيا بنظام، ونظرة العسكري الألماني وسلوكه وبزته تجعل الدم يجف في العروق!

ورتبت لنا رحلة إلى هامبورج أكبر موانىء أوروبا، حيث شاهدنا مقر شركة الطيران ومخازنها وورشها الرهيبة، والأبراج الشاهقة بالمدينة الكبيرة، والميناء الذي يستقبل ملايين الأطنان من البضائع دون أي تكدس، لأن كل شيء بنظام، وزرنا نادي هامبورج لكرة القدم الذي يفاخر بإنجاب أوفه زيلر، معبود الجماهير في الستينيات، وشارع اللهو المسمى «ريبابان»، أو الميل القذر أيضاً، لأن بيوت الهوى والحانات تتراص فيه على مدى ميل كامل! ولم ننزل من السيارة على كل حال!

لكن الذي لفت نظري حقيقة أن جزءاً من الطريق بين بريمن وهامبورج كان يجري إصلاحه، وأن الرصف يجري بالأسمنت المسلح، وهو فادح التكاليف بطبيعة الحال، لكنه يكشف سر «طرق العمر» التي تشق ألمانيا طولاً وعرضاً، ولاسيما الطرق السريعة الواسعة - الأوتوبان - وهي شرايين التجارة والاقتصاد والمواصلات، التي توفر من «ساعات العمل» الملايين، وهي مسألة لا نلتفت إليها كعرب، بكل أسف!

محاكمة نورمبورج وسخرية القدر!

وصدق المثل القائل «ويل للمقلوب»! ففي رحلة مماثلة إلى نورمبورج، بسيارة كبيرة، تجولنا في المدينة وتناولنا الغداء بأحد مطاعمها الكبيرة، بدعوة من مهندس ألماني مليونير، صديق للاسماعيلي، وشاهدنا معسكر الاحتلال الأمريكي الكبير الذي يحتل ضمن ما يحتل

قاعة محاكمة العصر، محاكمة مجرمي الحرب من كبار رجال النازي! وفكرت: أليس من سخرية القدر أن تجري المحاكمة في هذه القاعة التي يحتلها الأمريكيون، الذين ألقوا القنبلة الذرية على هيروشيما ونجازاكي؟ أيهما أبشع وأكثر مخالفة للانسانية؟ أن تحارب من أجل فكرة ـ ولو خاطئة ـ أم أن تحكم بموت مئات الآلاف من البشر المسالمين، دون جريرة، مستعملاً أخسّ وسائل الفتك، متناسياً كل المبادىء الإنسانية، سواء كان الدافع هو الرغبة في الانتقام من إغـراق الأسطـول في بـيرل هاربر، أو وضع حد لتفوق ياماشينا في زحفه المذهل لاحتلال آسيا!

الإخوة الأعداء في هيرتز وجين أو راخ!

وفي قرية صغـيرة من أعمال ميونيخ عاصمـة بافـاريا اسمهـا هيرتزوجن أوراخ لعبنا مباراة كروية، وأنفقنا يومين في زيارة أكبر مصانع الملابس والأدوات الرياضية في العالم، وأكبرهما مصنعان بينهما صراع عنيف لكسب الأسواق العالمية، ومنافسة تجارية منقطعة النظير، واتضح لنا أن المصنعين مملوكان لشقيقين، أطلـق عليهما فعـلا اسـم «الإخـوة الأعداء»، المقتبس من رائعة دستويفسكي: الإخوة كارامازوف!

أطول يوم في التاريخ!

وفي ميونيخ عام ١٩٧٢ أقيمت الدورة الأوليمبية. وبعد أيام من بداية الدورة، هاجم الفدائيون الفلسطينيون القرية الأوليمبية، واغتالوا بعض أعضاء البعثة الصهيونية، وقامت الدنيا ولم تقعد!

وحاصرت قوات الأمن القرية الأوليمبية، وبدأت المفاوضات مع الفدائيين الذين يحتجزون بقية بعثة إسرائيل كرهائن. وطلب الفدائيون أن يكون الوسيط عبد العزيز الشافعي رئيس البعثة المصرية. وتم الاتفاق على أن يغادر الفدائيون مطار ميونيخ في طائرة خاصة إلى الجزائر أو تونس أو القاهرة.

وذهب الفدائيون إلى المطار في الوقت المحدد، مسلحين بالمدافع الرشاشة. وذهبت أنا إلى غرفة عبد العزيز الشافعي في الفندق لأتابع معه عملية الرحيل، على شاشة التليفزيون! وشاهدت، وقلبي يتقطع، مصرع الفدائيين برصاص القناصة! وتوتر الجو، وقامت حملة شعواء ضد العرب، ونحن منهم. وعبثاً حاولنا تبرير موقف الفدائيين، ورغبتهم في إسماع صوتهم للعالم الأصم، ولفت النظر إلى حقهم في استرداد وطنهم السليب، فقد كانت الفكرة المسيطرة على المجتمع العالمي أنهم خرقوا حرمة الألعاب الأوليمبية، أكبر حركة سلمية في العالم!

وبعد اتصال بالقاهرة صدرت التعليمات بعودة البعثة فوراً، وترك الدورة، وكان تفتيشنا في ميونيخ ثم في مطار فرانكفورت عملية تعذيب! وقبل أن نغادر ميونيخ قابلت الأمير فيصل عبد العزيز رئيس رعاية الشباب بالسعودية، والأستاذ محمد حسنين هيكل رئيس تحرير الأهرام في ذلك الوقت، في الفندق الكبير، وأخبرتهما بقرار العودة، ثم انتحيت جانباً بالأستاذ هيكل، الذي كان على موعد مع فالتر شيل وزير الخارجية، وطلبت تدخله لإنهاء مشكلة تعرض لها أحد الزملاء النقاد، الذي ألصقت به تهمة مشينة. وبعد أن سألني هيكل عن مدى اقتناعي

ببراءة الزميل، وعرض المشكلة على شيل قال: القضية لابد أن تعرض على المحكمة، ولا مناص من ذلك، لكني أعد بالسماح بسفره إلى القاهرة!

إلى هذا الحد يقدسون القانون! وإلى هذا الحد لابد أن أتوقف، لكن لابد لي أن أشير أن منطقة الغابة السوداء جمالها يفوق الوصف، سواء في ذلك هايدلبرج، أو بيرختسجادين، وكر النسر، أو المكان المحبب إلى هتلر الذي لم أملك حين شاهدته إلا أن أقول: فوندابا، أي رائع!

والآن أختم هذه اللمحة السريعة عن ألمانيا الغربية وبعض ذكرياتي عنها، بأن أقول لكم: أوفورزين!!

تونس

تونس . . البلاد التي تبيع الشمس والهواء والابتسامة!
حضارة أصيلة انصهرت في بوتقة التاريخ خلال أجيال!
السياح يتقاطرون على المغاني الخضراء والشواطىء الرائعة!
الزي التونسي للجنسين والوجبات الشعبية وتقاليد الزواج!
المرأة التونسية في الواحات الجنوبية تقوم بكل العمل!
الفولكلور الشعبي في حفلات العرس ومهرجانات القنص!
استقبال شعبي رائع لفريق مصر رغم القطيعة السياسية . . !
الحياة كانت تتوقف في تونس يوم تغني أم كلثوم. . !
علمان من تونس لهما كل التقدير: بيرم التونسي والشابي!

كانت زيارتي الأولى لتونس عام ١٩٦٠ في ظروف غريبة. كنت أرافق الفريق القومي لكرة القدم الذي يلعب مع فريق تونس مباراة العودة في إطار التصفية الأوليمبية لدورة روما، وكانت العلاقات السياسية بين البلدين مقطوعة، بسبب تصريح للحبيب بورقيبة نادى فيه «بالتفاهم» مع إسرائيل، وهو الرأي الذي ندد به الرئيس جمال عبد الناصر، فتدهورت العلاقات إلى حد القطيعة!

وعجبي على السياسة! فالقطيعة قائمة الآن، لأن الرئيس السادات نادى بالتفاهم مع أسرائيل، فندد الرئيس بورقيبة بذلك الرأي!

لكن القطيعة لا تقوم أبداً إلا بين الحكومات أو الحكام، أما الشعوب العربية فهي فوق حركات السياسة وألاعيب الساسة! وقد أدركت هذه الحقيقة منذ أن وطأت قدماي أرض مطار قرطاج بتونس، حيث قوبل الوفد المصري بحفاوة تجل على الوصف، على الصعيد الشعبي! وفي ذلك الوقت كانت «الوحدة العربية» على كل لسان، بعد قيام الجمهورية العربية المتحدة بين مصر وسوريا، ولدرجة أن الحفاوة بالفريق المصري تضاعفت في الشارع والفندق وفي الملعب، رغم القطيعة الحكومية من جهة، ورغم وجود القوات الفرنسية من جهة أخرى، فهي لم تجل عن تونس إلا عام ١٩٦٣. وكان العراق يرعى مصالح المصريين في تونس، فبحثنا عن منزل السفير لكي ندعوه لحضور المباراة وفقاً للتقاليد. وذهبنا إليه في ضاحية «بو سعيد» أجمل مصايف تونس، وكان اسمه حكمت الجادرجي، وأكرمنا هو وزوجته الشاعرة رباب الكاظمي، وهي صاحبة قصيدة عصماء في رثاء سعد زغلول، نشرت بجريدة الأهرام. ورحب السفير بالدعوة وقال لنا: لقد أنفقت في مصر ٨ سنوات على ٣ فترات!

جولة في المغاني الخضراء!

وقبل المباراة بيوم نظمت لنا رحلة جميلة بالسيارة، فزرنا مدينة «نابل» بدعوة من نادي الملعب. المدينة صغيرة جميلة نظيفة، وبيضاء مثل كل مدن تونس، واستقبلنا الشباب الرياضي بترحاب أخوي صادق، ثم سرنا على الأقدام في الشوارع، ووراءنا أهل المدينة

لنزور ملاعب النادي ومصانع الخزف والخوص وماء الزهر، ثم غادرنا نابل في وداع حافل إلى «الحمامات» وهي منطقة الشواطىء - البلاجات - وتبعد عن العاصمة ٦٠ كيلومتراً، وعلى طول الطريق شاهدنا الجبال الخضراء ومزارع الكروم والبرتقال، ثم زرنا مصنع تعبئة البرتقال للتصدير، حيث شرح لنا جديدي حسونة صاحب المزرعة كل شيء عن برتقال تونس، الذي كان يصدر منه، في ذلك الوقت، مائة ألف طن!

ودخلنا في منطقة الشواطىء - البلاجات - وشاهدنا الفنادق الفخمة، ومعظمها على الطراز الإسلامي، في بقعة جميلة على الشاطىء تحيط بها خضرة مكثفة وظلال وارفة، وتمتد أمامها الرمال الناعمة، مكونة لوحة جمالية تجل عن الوصف لا سيما في ساعة الغسق، حيث تختلط خضرة الزرع بزرقة البحر بحمرة الشفق بصفرة الرمال! ويفضل السياح هذا البلاج المنعزل في بو سعيد، لأنهم يحظون فيه بحرية «خاصة»، حيث يمكنهم أن يلبسوا ما يشاءون، أو ألا يرتدوا شيئاً، وأن يعيشوا هم على هواهم، دون أدنى تدخل أو مضايقة باسم التقاليد أو الدين أو غيرهما، انطلاقاً من أن السياحة حرية، وأن السائح في حاجة إلى التحرر من كل القيود! وهذه المفاهيم السياحية تحتاج إلى اقتناع بها، قد لا يتوافر في أماكن أخرى، كما يتوافر في تونس والدول التي تعتمد على السياحة كدخل قومي أساسي، ربما في ظل قاعدة أن الضرورات تبيح المحظورات!

كل شيء يتوقف بسبب أم كلثوم!

وتركنا المنطقة الساحرة وشمس الأصيل ترسل أشعتها الرقيقة لتذكرنا بضرورة الرحيل والعودة إلى العاصمة تونس. وفي الفندق علمنا أن أم كلثوم ستغني في نفس الليلة لصالح منكوبي زلزال «أغادير»، وهذا وحده يدلك على مدى التعاطف والتلاحم الشعبي بين مصر وتونس والمغرب. ويوم تغني أم كلثوم يتعطل كل شيء في المغرب العربي كله، وترتب سهرات في البيوت، ويتزاور الناس كأنهم في عيد. وكانت المفاجأة أن راديو الفندق سيغلق لأن هناك عرساً يحييه مطرب تونسي يقلد عبد الحليم حافظ. ولما علم بذلك مرافقنا التونسي السيد دنقير تطوع بإحضار راديو من بيته، ولما اعترضنا حتى لا نحرم أولاده من السهرة أكد لنا أنهم مدعوون لسهرة عند الجيران. وجلس الإداريون يسمعون كوكب الشرق ويلعبون الطاولة - واسمها في تونس - الشيش بيش - ربما من العهد العثماني! أما اللاعبون فقد أخلدوا للنوم مبكرين، استعداداً للمباراة، التي تعادل فيها الفريقان بدون أهداف، رغم أن تونس لعبت الشوط الثاني بتسعة أفراد. وهذا التعادل أوصل فريق مصر لدورة روما لأنها كانت قد فازت في القاهرة، لكن تونس اعتبرت التعادل في هذه الظروف انتصاراً لها!

تونس بين الماضي والحاضر

وقد عشقت تونس وزرتها بعد ذلك مراراً، وذرعتها طولاً وعرضاً. هي قرطاجنة أميلكار القديمة وموطن القائد هانيبال، والرحالة حاتون

أحد كبار المستكشفين. تعرضت لغزو وحكم روما وبيزنطة والفينيفيين، ثم غزاها المسلمون بقيادة حسان بن النعمان، الذي جلب مع جيشه عدداً كبيراً من الأقباط من مصر، بوصفهم خبراء في صناعة السفن، ولذلك سمي المرسى في مدينة قرطاج - تونس الآن - باسم مرسى الروم! ثم جاء الفتح العثماني، وعين «الداي» حاكماً كالوالي التركي في مصر، ثم كان الإستقلال عن آل عثمان، وأصبح «الباي» هو الحاكم. وفي منتصف القرن التاسع عشر تولى الحكم الباي محمد الصدوق، وأراد أن يجعل تونس قطعة من أوروبا، كما فعل الخديوي إسماعيل في مصر، فكانت الديون والتدخل الإيطالي، الذي أدى إلى فرض الحماية الفرنسية على تونس، إلى أن استقلت تونس عام ١٩٥٦، بعد أن اجتاحتها جيوش الألمان ثم الحلفاء في الحرب العالمية الثانية، وتولى الحبيب بورقيبة الحكم، وجددت رئاسته عدة مرات. وتعداد تونس ٧ ملايين نسمة، والعاصمة تونس مليون نسمة، وهي مدينة غاية في الأناقة والنظافة والجمال.

الزي والطعام والقديم والجديد

والزي القومي التونسي للرجال عبارة عن عباءة تحتها سروال طويل. ويضع الرجل على رأسه قلنسوة حمراء شبيهة بطربوش العمامة. وترتدي المرأة عباءة وحجاباً لا يبدي سوى عينيها، ولكن هذا الزي يتقلص مع التقدم الحضاري. ومع ذلك فإن هناك اختلافاً في ألوان زي المرأة تبعاً للمناطق. فالطرحة في المدينة بيضاء،والعباءة في السواحل

سوداء، وفي الجنوب، حيث ينتشر البدو، فغطاء الرأس ملاءة حمراء.

والوجبة الشعبية الأساسية هي «الكسكس» بالسكر أو بالمرق واللحم. ومع ذلك تشتهر كل منطقة بأكلة خاصة. فتشتهر بعض الموانىء «بالسيسة» وهي عصيدة بالكمون والقرفة، وتقدم أحياناً بماء الزهر. وفي جزيرة جربة الكسكس بحساء السمك، وفي جيلالا طبق صلصة باللحم والتوابل وقطع الخبز. وقد أكلت في سوسة طبقاً من السمك على الطريقة اليونانية تكاد تأكل أصبعك وراء كل لقمة منه!

المعالم الأثرية والسياحية

في سنة ٨١٤ قبل الميلاد انطلقت الأميرة الفينيقية «عليسة» من صور وحطت رحالها مع أتباعها في بقعة جميلة على الشاطىء اسمها قرطاج، هي مدينة تونس الآن. ورغم أن الرومان عملوا على سحق دولة قرطاجنة التي قامت في هذه المنطقة وأحرقوها ودمروها فعلاً عام ١٤٦ قبل الميلاد، فإن الأطلال والأنقاض تحكي قصة حضارة هذه الدولة، على طول الشاطىء وليس في مدينة تونس وحدها. بل هي تختلط، لاسيما في الشاطىء القبلي بأطلال المدن الرومانية. وهذا الشاطىء القبلي كان يسمى جزيرة شريك نسبة إلى الفاتح العربي «شريك العبسي» والد قرة بن شريك والي مصر أيام الوليد بن عبد الملك. وهناك آثار أندلسية في سليمان وقرتباليا وبوزلفة وغيرها. والمنطقة ليست أثرية فقط بل هي أيضاً بستان أخضر جميل تجود فيه كل الفواكه لاسيما الموالح

والأعناب، إلى جانب الزيتون والتين والرمان والكرز والخوخ، ومختلف أنواع الزهور ذات العبير الفواح.

ويعد جامع الزيتونة من أشهر الآثار الإسلامية في تونس إلى جانب القلاع المنتشرة في ربوعها وكلها من الطراز العربي الإسلامي. ومع أن السياحة من أجل الآثار بدأت تنقرض لتحل محلها سياحة الترويح والشواطىء فإن زائر تونس يقتطع من وقت ترويحه لحظات لكي يستروح من خلال الأطلال نسمات الأمجاد التاريخية.

الفولكلور الشعبي في تونس

وقد عنيت بزيارة الواحات في جنوب تونس، وهي تحظى بإعجاب الشباب لا سيما شباب فرنسا المغرم بالصحراء وبالقديم وبالمغامرة. ورغم تمسك البدو بالتقاليد فإنهم يرحبون بهؤلاء الشباب، ولا يجدون غضاضة إلا في محاولة تقبل الأوضاع الغريبة التي تطالعهم في السلوك المتحرر لا سيما «البيكيني» وغيره. والناس هناك يعيشون في قناعة ورضا يتولد من الإحساس بالعجز عن تلبية ما تشتهيه النفس، كما قال العلامة جوستاف لوبون.

ولأن الواحات تعاني من هجرة الرجال إلى الحضر فإن المرأة تقوم بمعظم العمل، فهي تربي الطفل وترعى الحديقة، وتجني الزيتون، وتربي الدواجن، وترعى الماشية، وتصنع الأطعمة والأغطية.

وليلة الدخلة مشهد فولكلوري رائع، وتسبقه ليلة الحنة، حيث

يحتفل بتجميل العروس في بيت صديقة أو قريبة لها، وتوضع الحناء على شعرها وقدميها ويديها، ولا تعود إلى دار أبويها إلا في الهزيع المتأخر من الليل، متخفية في ملاءة سوداء. وفي الصباح ترتدي العروس فستاناً أحمر، وفي أذنها القرط الكبير وفي قدمها الخلخال وعلى صدرها الكردان، ومعظم الحلى من الفضة، وتذهب إلى بيت العريس في صحبة أهلها، بعد أن تتخفى في ملاءة سوداء، أما العريس فينتظرها، لابساً السروال والصديرية، وفي وسطه حزام من الحرير، وعلى رأسه قلنسوة أو عمامة بيضاء، وعلى كتفيه عباءة قصيرة من الصوف الأبيض. وقد شاهدت فرقة تونس للفنون الشعبية بعد ذلك تختتم هذا الحفل، الذي انصرفت قبل إتمامه لارتباطي بموعد السفر، بصورة حية لما يعقب حفل الزواج من رقص شبيه برقص الحجالة البدوي، الذي يمارس في قبائل الصحراء الغربية بمصر.

ومن المشاهد الفولكلورية التي لا أنساها مهرجان الصيد بالصقور، ويسمونها البزاة، جمع باز. والصقور تبني أوكارها في أركان الكهوف الصخرية بالصوارية وقليبية، ويطوف المروضون بهذه الأفكار ليجمعوا فراخ الصقور ويغذوها باللحم المفروم، وعندما ينبت ريشها يبدأون في ترويضها وتدريبها على صيد الحجل، وهو نوع يماثل الحبارى في الخليج العربي. وفي الثاني من مايو ـ أيار ـ من كل عام يقام مهرجان ضخم للصيد بالصقور، يتضمن كل ألوان الفروسية الشعبية والعربية، ومنه البرجاس والتحطيب على الخيل ورقص الجياد.

مسرحية معرّس جديد!

ويحب التوانسة اللهجة العامية المصرية ويفهمونها جيداً، بسبب الأغاني والأفلام والمسلسلات الإذاعية والتليفزيونية والكتب المصرية، وبصرف النظر عن صعوبة لهجتهم لكثرة ما يتخللها من حروف «القاف» فإن هناك مسميات كثيرة لا نعرفها في مصر، فالبطيخ يعني دلاّع، والشمام هو البطيخ، والكمثرى اسمها أنجاص وهكذا! وقد شاهدت مسرحية تدور حول عريس جديد واسمها «معرّس جديد»، وما أكثر ما لديهم من ألفاظ عادية تعتبر عيباً في مصر!

ولكنني لا أستطيع أن أختم حديثي عن تونس دون أن أتناول عملاقين، أحدهما أصبح مصرياً وهو الزجال والشاعر الفحل بيرم التونسي، الذي كوّن مع أم كلثوم وزكريا أحمد ثلاثياً غنائياً خالداً، والثاني الشاعر العظيم أبو القاسم الشابي الذي قال:

إذا الشعب يوماً أراد الحياة　　فلا بد أن يستجيب القدر!

الباكستان

الباكستان ملاذ لاجئي أفغانستان/ ضحايا الروس!
محاولات جبارة لمغالبة التخلف وتنمية الموارد!
تأثر كبير بحرب الهند والتقسيم للمرة الثالثة!
تناقض بين عمق محمد إقبال والمؤلفات السطحية!
الأمية ما زالت متفشية بين عمال الزراعة والصناعة!
الأغاخان زعيم الطائفة الاسماعيلية ووزنه بالذهب!
ملوك العالم في الاسكواتش راكتس والهوكي على البخيل!
٣ ملايين لاجىء أفغانستاني و٣ ملايين من المواشي!

كانت البيجوم حرم أغاخان الكبير زعيم طائفة الاسماعيلية من أشهر عشاق أسوان، المشتى المصري المرموق، حيث كانت تقيم ثلاثة أشهر كل عام، متأثرة في ذلك بزوجها الراحل، الذي أقام لنفسه قبراً على الشاطىء الغربي للنيل، يعد من المزارات والمعالم التي لابد أن يتردد عليها السياح. وكانت السيدة الفاضلة، وهي فرنسية، صديقة شخصية للبطل الراحل اسحق حلمي، أول سباح عربي عبر المانش عام ١٩٢٨. وقد عرفني بها، ولما علمت أني صحفي رياضي كثير الترحال، نصحتني بزيارة الباكستان، مع عدم الاقتصار على كراتشي، وإنما يتعين مشاهدة

حيدر أباد وإسلام أباد ولاهور وراولبندي، وأضافت، كم أحببت هذه البلاد!

وخشيت أن أكون «جلياطاً» ـ قليل الذوق معها ـ فأقول: طبعاً تحبينها مادامت تزن الأغاخان كل عام، وتعطيه مقدار ثقله ماساً وذهباً! إلا أني كتمت النكتة، وقلت لها: في أول زيارة لي إلى الشرق الأقصى أعدك بأن أنفق في الباكستان بضعة أيام.

دولة إسلامية كبيرة

والباكستان دولة إسلامية كبيرة، كانت جزءاً من القارة الهندية التي بلغ تعدادها ٧٠٠ مليون نسمة، لكنها انفصلت عن الهند عام ١٩٤٠ بفضل محمد علي جناح الزعيم الذي نادى بوجود دولة إسلامية كبيرة، لا شأن لها بالهندوس والسيخ وغيرهم، وقامت الدولة فعلا، وكانت تضم الباكستان الحالية، وجزءاً آخر يبعد عنها ١٧٠٠ كيلومتر، هو الذي أصبح بنجلادش، واستقل وغدا دولة عاصمتها دكا. وانكمش عدد سكان الباكستان الحالية إلى ٨٥ مليون نسمة، وأصبحت العاصمة إسلام أباد في الشمال.

ومن دواعي الأسف أن الظروف فرضت أن أزور الباكستان صيفاً مرتين. وعندما هبطت بي الطائرة أول مرة في مطار كراتشي شعرت بلسعة الحر وكأنه ألسنة من نار مشتعلة، وتوجهت إلى أكبر فنادق المدينة، وهو يشبه معسكر جيش، أو لعله كان اسطبلا للجياد، ثم جدد وتحول إلى فندق كبير من طابقين. وأحمد الله أني وجدت الغرفة مكيفة، وبها

ثلاجة. وما أن اغتسلت وارتحت قليلاً حتى نزلت لتناول العشاء، لابساً بنطلوناً وقميصاً لأن الحر لا يطاق، ولكن أحد الندل تقدم إليّ في أدب جم، وقال: لابد من رباط الرقبة في صالة الطعام! ولعنته، ولعنت التقاليد والانجليز الذين فرضوها على قوم يعيشون بعيداً عنهم آلاف الأميال، وليس لديهم برد ولا ثلج ولا ضباب!

شمس الضحى في طول اللحى!

وكراتشي مدينة بلا شخصية ولا معالم! في الصباح الباكر خرجت أتجول لأشاهد معالمها، ولأبحث بصفة خاصة في مكتباتها عن كتاب بالانجليزية يشرح فلسفة الشاعر والمفكر الإسلامي الكبير محمد إقبال، وبعد لأي وجدت الكتاب الذي ينم عن عمق تفكير الرجل! لكنني وجدت كتباً إسلامية أخرى تثير الضحك بما فيها من سطحية وضحالة! مجلد يضم أكثر من ٦٠٠ صفحة من القطع الكبير عنوانه: شمس الضحى في طول اللحى!

المجلد كله حوار واجتهاد وتفسير فيما ينبغي أن يكون عليه طول اللحية وعرضها، وكيف تمشط وتهذب وتشذب! ومجلد عنوانه: فكر أهل الحجى في الايمان المرتجى!

توقعت أن يكون ذلك كله من تأليف كتّاب من بالوخستان، إحدى ولايات الباكستان، التي يعشق أهلها تربية اللحى، ويتفاخرون بأطوالها! والخليج العربي كله يعرفهم باسم البلوخستان، وكانوا يملأونه، ولاسيما دولة الامارات العربية، وإمارة أبو ظبي بصفة خاصة.

أين هذا من فكر محمد إقبال الجلي الصريح الصافي؟ إن جوهر فلسفة إقبال هو باختصار شديد: إن الإنسان هو أعلى المخلوقات، وإدراك الإنسان لأصله هو الذي يعاونه في مسيرته في هذا المجتمع المادي، الذي يفتقد جميع المقومات الإنسانية، وتتصارع فيه القيم السياسية والدينية. ومن ثم فإن الدين وحده هو القادر على إعداد الإنسان العصري، وتحقيق ذاته وتصحيح مساره بحيث يتجه دائماً إلى الخير.

ومعلوم أن كوكب الشرق أم كلثوم غنت قصيدة صوفية لهذا الشاعر المفكر الكبير بعنوان «حديث الروح»، وهي مترجمة عن «الأوردو» لغة الباكستان.

بلاج بدكك خشبية ولا روّاد!

بعد جولتي في المحال التجارية والمكتبات، وزيارتي لقبر محمد علي جناح، مؤسس الدولة، الذي يقع على ربوة مشرفة على المدينة، كأنه يحمي الدولة أو يراقب مسيرتها وفق آماله، قصدت البلاج! الشاطىء رملي عريض صالح للسباحة والترويح، لكنني ذهلت لأن كل ما به لا يعدو أن يكون مئات من الدكك الخشبية، العالية شيئاً ما، مثل دكك المقاهي والاستراحات في الطريق من جدة إلى مكة، ولا رواد على الإطلاق! ربما لأن المرأة لا ترتاد البلاج، ولا ترتدي المايوه، ومن ثم لا يرتاده الرجل، لكن حتى في هذه الحالة يمكن أن يرتاده الجنسان دون سباحة، أي دون تحرر من الملابس، ولمجرد الترويح، لأن الطقس على الشاطىء أخف حرارة منه في المدينة، التي ذكرني حرها اللافح بوصف

لونجفلو لصيف الهند حين كانت تضم الباكستان أيضاً، حيث قال: الشمس تتوهج مشتعلة، بين زغب الضباب كلهب مستعر، والجو تغشاه عتمية دخانية صفراء، والكون غلفه السكون الثقيل، فلا تسمع غير نعيق غراب يعلن انتهاء موسم الحصاد، أو حركة سنجاب كسول، أو نشاز صاخب لشجرة خاوية!

الملاذ هو الشمال!

وقد نفذت وصية البيجوم، وسافرت إلى حيدر أباد القريبة من كراتشي، ثم لاهور على حدود الهند، وإسلام أباد العاصمة الرسمية وراولبندي في الشمال المرتفع البارد، وبدأت أتنفس، وأدرس!

ملاعب الهوكي على النجيل في كل مكان، فهي اللعبة الشعبية الأولى. وقد كانت الباكستان بطلة العالم، إلى أن ظهرت الملاعب المغطاة بالقارتان، وهي تؤثر في مسار الكرة وسرعة اللعب، فظهر أبطال جدد هم فرق نيوزيلندة واستراليا والمانيا الغربية، لكن سرعان ما حول الباكستانيون أراضيهم إلى تارتان، وبدأوا يستعيدون سيادة اللعبة.

ملاعب أخرى منتشرة بشكل عجيب هي ملاعب الاسكواش راكتس، بتأثير الانجليز أيام الاستعمار. ومن هنا سيادة الباكستان للعبة على المستوى العالمي، منذ ظهور هاشم خان في الخمسينيات إلى الآن، وإن كانت مصر قد سادت اللعبة في أواخر الأربعينيات بفضل السفير عبد الفتاح عمرو، ثم محمود عبد الكريم ودردير محمد وأبو طالب وتوفيق

شقيق وإبراهيم أمين وغيرهم من أبطال العالم. لكن البطل الباكستاني العالمي الآن هو جاهنجير خان، الذي لا يقاوم!

تأثير الطقس قوي!

المتحذلقون يحاولون أن يصموا البلاد ذات الطقس الحار بالكسل والعزوف عن العمل، لأنهم لم يجربوا حرارة الطقس! حيث تكون أمنية الانسان أن يجد بقعة في ظل ونسمة هواء! نعم في الجنوب ركود وكسل، لكن في الشمال همة وعمل، لمسته في منجم الفحم في كريتا، ومصانع الحديد والصلب، والأراضي الزراعية.

ففي الباكستان ١٣ مليون عامل زراعي، و٥ ملايين عامل صناعي، يعتمد عليهم اقتصاد الدولة، لاسيما في تنفيذ الخطط الخمسية المتكررة.

فقد لاحظت انتشار نسبة الأمية. فأغلبية العمال في القطاعين الزراعي والصناعي من الأميين، أو الحاصلين على شهادة محو الأمية، أي مجرد القراءة والكتابة، أو الشهادة الابتدائية. كذلك فإن الأجور ضعيفة إلى حد كبير، وهذا هو سر الهجرة المستمرة إلى بلاد الخليج العربي والشرق الأوسط. والترجمة الحقيقية لهذا الكلام، هي أن الفقر مازال غلاباً في الباكستان، رغم خطط التنمية. ومشروعات الطاقة الهيدرومائية من خزانات وجسور وسدود لتوليد الطاقة على البحيرات ومساقط المياه، وأهمها في متغلا على نهر جيهلم، وتربيلا على نهر السند!

المرأة والطعام والتقاليد

المرأة الباكستانية قمحية اللون، حلوة التقاطيع، ترتدي الساري، وتعمل في الحقل والمصنع، لكن تحركاتها وأنشطتها مقيدة بالتعاليم الاسلامية. وهي أيضاً طاهية ماهرة ونظيفة، لكن الطعام الباكستاني حريف، مليء بالمشهيات والتوابل والشطة، حتى في اللحم! وقد أعجبتني نكهته ومذاقه حين تناولت طبقاً من «كباب الحلة» فيه قدر متساو من الكباب والشطة، وكنت آكل وأتأوه، وأتلذذ، كأني «أشعب»!! لكن ذلك كان منذ سنوات، أما الآن فإني أمشي بجانب الحائط، وأردد قول الشاعر:

ليت الشباب يعود يوماً   لأخبره بما فعل المشيب

وفي السوق مساومات ومزايدات، وكلنا في الهم شرق، كما قال شوقي. ولكنك ترى بجانب بائعة الفاكهة، رجلاً أمامه ثلاث سلال، ينفخ في مزمار، فإذا بثلاث أفاعي من نوع الكوبرا الخطير تزيح أغطية السلال، وتبدأ في الرقص ببراعة جين كيلي وفريد أستير زمان، وجون ترافولتا الآن! ولأني أكره الأفاعي فقد كنت خارج السوق في غمضة عين!

حفل ترويح في لاهور!

عندما وصلت إلى لاهور بالسكة الحديد وجدتها على شكل قلعة ذات أبراج، وأمامها ساحة بها عربات حنطور مزركشة. نفس العربات رأيتها من قبل في مقاطعة السند، سواء يجرها حمار أو بغل أو حصان،

فالزركشة تشمل العربة والدابة. وقد دعيت إلى حفل رياضي، تضمن رقصا إيقاعياً للخيول، كما في مصر وتونس والمغرب فيما شاهدت، وهو يمثل قمة الترويض في الفروسية خارج نطاق القواعد الدولية للترويض كمسابقة أوليمبية وعالمية، لها شروط خاصة مغايرة.

لكن الذي أذهلني، لأني أشاهده لأول مرة، هو رقص الجمال، الذي يدل على قمة التدريب! على إيقاع الطبول وحدها، دون مزمار، شاهدت الجمال ترقص ببراعة، وجلست أتابع المشهد العجيب في ذهول. ففي مصر وفي البلاد العربية كلها ملايين الجمال، لكنني لم أسمع يوماً من تفكير في تدريب الجمال على الرقص!

وفي لاهور أيضاً شاهدت أكبر مسجد في العالم. وقد بناه أحد حكام المغول الأتقياء، واسمه أورانزيب، حين كانت لاهور عاصمة شبه القارة الهندية.

لكن مأساة الباكستان الآن تتمثل في ثلاثة ملايين لاجىء أفغانستاني عبروا الحدود، ليس من ممر خيبر وحده، وإنما من كل مكان، ومعهم مواشيهم، بنفس العدد، وبكل سماحة الإسلام كان لابد أن تأويهم الباكستان وأن تتعاون مع هيئات الإغاثة العالمية ومختلف الدول، لتدبر لهم الحد الأدنى من الكساء والطعام. وفي مقدمة هيئات الإغاثة الهلال الأحمر والصليب الأحمر والهلال الأحمر السعودي، والمنظمات الخيرية في النمسا وسويسرة وأمريكا وألمانيا الغربية وانجلترا واستراليا والسويد واليابان وكوريا الجنوبية وعمان ودولة الإمارات المتحدة. وكان الله في عون اللاجئين والباكستان!

سويسرة

سويسرة الرقيقة بلاد الصناعات الدقيقة
تقارير البنوك عن أثر الطرق في التجارة والسياحة!
مجالات سياحية منوعة ترضي كل الأذواق!
مستوى معيشة مرتفع لعدم وجود قوات مسلحة!
أيام لا تنسى في فنادق معتدلة على البحيرات!
بين روسو وكالفين وأجراس البقر في سفح الجبل!
الصخب الوحيد في لوجانو صادر من النادي المصري!
في سويسرة أعجب نظام حكم في العالم!
انتماء رائع. رغم تعدد اللغات والمذاهب!

تعددت زياراتي لسويسرة فيما بين ١٩٥٢ و١٩٨٢ مع الفرق الرياضية المصرية، والبعثات الأوليمبية والشبابية، أو لتغطية المؤتمرات الدولية والأوليمبية، لاسيما وأن جنيف وزيوريخ تعدان من محطات التوقف للقادم من الشرق، لزيارة أي مكان في غرب أوروبا وشمالها. وفي كل مرة أرى وأتعلم شيئاً جديداً في سويسرة، الدولة الصغيرة، التي يبلغ تعدادها ٦,٥ مليون نسمة، والتي تعد من أرفع دول العالم من حيث مستوى دخل الفرد.

ذلك أن الطبيعة شكلت أرض سويسرة من جبال وسهول ووديان وبحيرات كثيرة، فنشأت بذلك صناعة الأخشاب والورق والأثاث،

وصناعة مستخرجات الألبان ،والصناعات الزراعية على أرقى المستويات بفضل وجود اليد العاملة الماهرة، ثم الصناعات التحويلية بفضل استغلال الطاقة الكهربائية. وهذا بطبيعة الحال إلى جانب ما اشتهرت به أصلا من صناعات دقيقة كالساعات وأجهزة التوقيت الالكترونية، التي نشاهدها جميعاً في الدورات الأوليمبية والبطولات العالمية لمختلف اللعبات الرياضية.

أثر الطرق في السياحة والتجارة!

والبانوراما الطبيعية لهذه البلاد الصغيرة، واحتواؤها للجبال الشماء والخضرة الوارفة، والأشجار الباسقة، والبحيرات الكثيرة، والثلوج الدائمة، والنظافة المحببة جعلتها قبلة للسياح، على نحو يضاعف الدخل القومي، وينمي صناعة الفندقة والوعي السياحي، بحيث يجد السائح فيها كل ما يتمناه من يسر وراحة وترويح واستجمام واستمتاع بجمال الطبيعة، مهما كان مستواه! فإلى جانب الفنادق الفاخرة هناك «موتيلات» زهيدة الأسعار، على نفس المستوى من النظافة والأناقة.

وفي هذا المقام فإن سويسرة دولة محظوظة، حين أجمع المجتمع الدولي، على اعتبارها دولة محايدة، وأعفاها من تكوين قوات مسلحة تبتلع معظم دخلها القومي، حيث مكنها ذلك من الانفاق على مرافقها وإنشاء صناعتها ومضاعفة دخلها.

وقد أذهلني كسائح أني قصدت بنك جنيف ذات مرة لصرف

«شيك» فلم أستغرق دقيقتين، لأن نظام الإئتمان قائم على الثقة، ولأن القوم يقدرون قيمة الوقت. والأغرب من ذلك أني حين تصفحت تقرير البنك وجدته يدور كله حول الطرق، وأثرها في التجارة والصناعة، وضرورة تعزيزها وتعبيدها باستمرار!.

التليفيريك لجبال الألب لأول مرة!

والحكم في سويسرة فيدرالي، وهناك ٢٣ ولاية، وهو حكم ذاتي حقيقي، ولذلك تجد كل مدن سويسرة في نفس المستوى، لأنها تنال نفس العناية. وزيوريخ هي العاصمة الاقتصادية، وإن كان الرياضيون يعرفونها بطبيعة خاصة لأنها مقر الاتحاد الدولي لكرة القدم، كما أن لوزان هي مقر اللجنة الأوليمبية الدولية، أما العاصمة الإدارية فهي برن، وإن كانت لمدينة جنيف صفة «الدولية»، لاسيما منذ أن كانت مقر الأمم المتحدة فيما مضى، كما أنها ما زالت مقر منظمة العمل الدولية.

وتقع جنيف على بحيرة ليمان المستغلة في الترويح على نحو بهيج ففي وسطها نافورات، وعلى صفحتها لنشات رائحة غادية يستقلها السياح للنزهة مقابل فرنك سويسري واحد لمدة نصف ساعة. وعلى الشاطىء من المقاهي ومشارب الشاي ومحال الحلوى والمشروبات، ما يحيل ظلام الليل إلى شعلة من الأضواء.

وكان مغامرة بالنسبة لي أن أستقل«التليفيريك»من جنيف إلى جبال الألب، التي تشرف عليها من علياء وتحتضن مدينة كالفين في حنان! وكاد قلبي يتوقف حينما صعدت بنا المركبة المعلقة في الفضاء على

سلك، مرتفعة رويدا رويدا إلى عنان السماء، قبل أن ترسو بنا على الجبال الشماء، على ارتفاع آلاف الأمتار، لأجد دنيا أخرى من المرح والترويح! فالثلج يغمر المنطقة، وهواة التزلج يمارسون هوايتهم في انطلاق سعيد، فيما تنتشر على جوانب الجبل المقاهي والفنادق البسيطة النظيفة، والمحلات التجارية والترويحية.

أعجب نظام حكم في العالم!

وفي نقطة على مقربة من «المون بلان» أعلى قمم جبال الألب، وهي على ارتفاع ١٥ ألف قدم، جلست أحتسي فنجان قهوة مع أحد رجال الأعمال السويسريين، وقد تعرفت إليه في التليفيريك، دار حديث حول الرياضة، تبين منه براعة السويسريين جميعاً في الرماية، لاسيما بالبندقية، نتيجة للحياد وإلغاء القوات المسلحة، وهي مفارقة عجيبة لكنها طبيعية إزاء شعور الشعب بالمسؤولية الدفاعية التلقائية!

كذلك دار حديث طويل حول الانتماء والتلاحم الوطني والشعور القومي رغم الاختلاف اللغوي، لأن إقليم جبال جورا المتاخم لفرنسا يتحدث الفرنسية، والوسط وهو الأغلبية يتحدث الألمانية، والجنوب يتحدث الإيطالية، إلى جانب أن الشعب ينقسم من الناحية الدينية إلى كاثوليك وبروتستانت منذ قيام كالفين بحركة الإصلاح الديني. وقد أكد الرجل أن ذلك كله لا يؤثر في انتماء الشعب ووحدته القائمة على وحدة الأرض والهدف والمصير والأمان، وبدليل أنه لم ينشب، بل لم تبدر أية بوادر لأية إشكالات أو صراعات بسبب هذه الخلافات اللغوية والدينية.

لكن الذي أذهلني هو ما علمته من خلال حديثنا السياسي، وهو أن نظام الحكم في سويسرة لا مثيل له في العالم! ذلك أن الوزراء سبعة، يختارون من بينهم سنوياً، ودورياً، رئيس الدولة.

نوعيات مختلفة للسياحة

وحركة السياحة في سويسرة رائجة إلى أقصى الحدود، لأن فيها ما يرضي كل الأذواق، وأمام السائح اختيارات عديدة، لأنها مشتى ومصيف ومنتجع صحي واستجمامي ومجال للترويح والنشاط الشبابي في وقت معاً. فهي في الشتاء مقصد هواة الانزلاق على الجليد، لاسيما في منطقة جبال الألب الشاهقة ذات الثلج الغزير السميك. وهي في الصيف مصيف لطلاب الهدوء في القرى الجبلية، ومنتجع صحي لهواة الاسترخاء والاستجمام على شواطىء البحيرات ومواقع عيون المياه المعدنية، وفي الريف الجميل حيث تسير قطعان البقر في الجبال وبين الغابات يختلط خوارها بصوت أجراس تحملها في أعناقها لترشد الأدلاء والرعاة إلى مواقعها.

والفلاحة السويسرية بردائها الريفي النظيف المحتشم تقوم بأعمال الفلاحة البسيطة، ورعي الأبقار، وجمع الأزهار لكي تضعها في أصيص يزين إفريز شباكها أو شرفتها الأنيقة. وقد زرت قرية «برنر» وفي نيتي أن أنفق يوماً فيها، فبقيت أياماً، مجذوباً بالهدوء الخلاب وأجراس الأبقار وأريج الزهور الذي يتضوع في شوارع القرية، اللائذة بأحضان الجبل الأشم.

ومع فريق الكرة بالنادي المصري البور سعيدي أنفقت أسبوعاً بين لوكادنو وكياسو ولوجانو في الجنوب، معظمه في فنـدق أنيق بسيط على حافة بحيرة لوجانو، يضم ٧٠ غرفة، يقوم بخدمتها ستة أشخـاص، وتكلف الإقامة الكاملة في الفندق ١٣ جنيهاً استرلينياً فقط للفرد، عام ١٩٨٢.

الهدوء والجمال في المنطقة فوق الوصف! والصخب الوحيد الذي بدا نشازاً في هذه السيمفونية الطبيعية هو الصوت العالي للمجموعة، فما زال الهمس المصري كالمدفع الرشاش، والمداعبة المصرية باليد والقـدم واللسان، ويقيني أن هذه عادات عربية عامة بلك أسف!

والمهم أن رعاية الشباب مكفولة، فإلى جانـب الفنـادق المماثلـة لفندقنا تلتف مع البحيرة من كل اتجاه أراض خضراء بلا حدود، مقسمة إلى مخيمات ومعسكرات للشباب، تؤجر لهـم مباشرة أو للهيئـات التـي ينتمون إليها بمقابل زهيد، وهناك برامج للمعسكرات، تشمل كل أنواع النشاط من المشي، وتمرينات الصباح، إلى الرحلات، إلى خدمة البيئة، إلى الديسكو! وفضلاً عن ذلك كله هناك قوارب شراعية ولنشات بخارية للنزهة في البحيرة الكبيرة، وألواح شراعية خشبية لهواة هذه الرياضـة، ومعدات لصيد السمك للهـواة، وكل وسائـل التـرويح التـي تضمـن للسائح إقامة سعيدة، وعودة أكيدة إلى هذه المنطقة الساحرة.

وتربط بين هذه الشواطىء ومدينة لوجانو وسائل مواصلات مختلفة منها الأوتوبيس والترام، بمواعيد محددة، تحفظها السيدات دائماً عن ظهر قلب، لأنها الطريق إلى «المشتريات»! ومن عجب أن يكون في لوجانو،

ولوكارنو، وكياسو من المدن الصغيرة «كراجات» متعددة الطوابق، لعلاج مشاكل المرور، رغم سيولة المرور في كل مدن سويسرة!

جان جاك روسو وكالفين!

وبالرغم من جولاتي في لوزان وزيوريخ وبرن وبحيرات لوسيرن ونيوشاتل ولوجانو وليمان وغيرها فإن متعتي الكبرى كانت في زيارة حائط «كالفين»، الذي بني لحماية البروتستانت إبان حركة التطهير الديني أو الاصلاح التي قام بها كالفين بعد مارتن لوثر. فهذا الحائط العالي مازال من المعالم السياحية الهامة في جنيف. أيضاً يجد السائح المهتم بالأدب والفكر العالمي تمثال جان جاك روسو العظيم، صاحب العقد الاجتماعي والاعترافات، وأحلام جوال منفرد، وإميل، وهلويز الجديدة، على ضفاف بحيرة ليمان. ولأني من عشاق «أعظم من كتب وأروع من أحب»، كما قالت دوقة لوكسمبورج، فإني ذهبت إلى السفارة الفرنسية في برن لأحصل على تأشيرة دخول لفرنسا، وقد أخذتها في لمح البصر، لأن القنصل كان أديباً، ولأني شرحت له السبب! ذلك أن فيفاي، التي كانت عش غرام روسو مع مدام دو ديفو، تقع على مقربة من الحدود السويسرية. ولشدة تأثري بروسو، وهلويز الجديدة، قررت أن أزور مغاني فيفاي، والأرميتاج، أو الكوخ الذي شهد غراميات روسو ومدام دو ديفو. رباه، كم كنت سعيداً وأنا استرجع في خيالي أحداث زهاء قرنين من الزمان؟ أين ذهبت هذه الرومانسية؟ ماذا جرى للدنيا؟!

الصين

الصين الشعبية بين الانغلاق والانفتاح!
كيف خلت من الذباب والطيور والقطط والكلاب؟
الحفاظ على التراث وقصور الأباطرة ومقابرهم!
تقارب رائع بين أعلى الأجور وأدناها في الدولة!
بالعنف تم القضاء على الأفيون.. والفجور والأقذار!
الصين تطبق شيوعية صارمة وتتهم روسيا بالانحراف!
الكوميونات والطبيب الحافي والمصانع الصغيرة بالريف!
الملكية الخاصة مقصورة على قيراط بمنزل الفلاح!
سور الصين العظيم أول خط دفاعي رهيب في التاريخ!
١٣٥٠ مليون نسمة ولا توجد أزمة تموين ولا إسكان!
نظام قاس ومعيشة كفاف والشعب يتحمل لوجود القدوة!

كانت زيارتي الأولى للصين الشعبية في أغسطس ١٩٧٣ أيام الانغلاق في عهد ماوتسي تونج، وإن كان قد بدأ الحديث عن الثورة الثقافية، وعن دبلوماسية البنج بونج، التي أدت إلى تقارب بين الولايات المتحدة الأمريكية والصين. وكانت المناسبة تنظيم الصين لأكبر تجمع عالمي في تنس الطاولة ضم ٩٥ دولة من دول العالم الثالث، للتنافس، والتعليم، بوصفهم أبطال العالم دون منازع، ولديهم أمهر

المدربين، الذين وزعوا فيما بعد على دول أفريقيا وأمريكا اللاتينية وآسيا، كرسل سياسية ورياضية. وقد طالت زيارتي الأولى هذه زهاء شهر، وأتيح لي خلالها أن أتجول كما أشاء، بين المدن الكبرى مثل كانتون وشنجهاي والكوميونات أو المزارع الجماعية، والمشروعات الصناعية والزراعية الكبرى.

وكانت زيارتي الثانية في نوفمبر ١٩٨١ مع فريق مصر للناشئين في كرة القدم، الذي فاز بكأس «سور الصين العظيم»، فتغلب على فرق أستراليا والصين والولايات المتحدة. واستغرقت الزيارة زهاء عشرة أيام، في ظل الانفتاح الذي تدفق السياح بسببه على الصين، وما أدراك ما الصين!

أكبر بلاد العالم!

الصين بلاد واسعة مترامية الأطراف، طولها من الشرق للغرب ٥ آلاف كيلومتر، ومن الشمال إلى الجنوب ٥٥٠٠ كيلومتر، ومساحتها ٩ ملايين و ٦٠٠ ألف كيلومتر مربع، فهي من حيث المساحة ثالثة دول العالم بعد الإتحاد السوفييتي وكندا، وتعدادها الآن ١٣٥٠ مليون نسمة ومن ثم فهي أكبر دول العالم. وبحكم امتدادها المهول ففيها كل أنواع الطقس. جنوبها استوائي حار رطب على مدار السنة، وغربها وشمالها يتعرضان لريح الشمال الباردة التي تهب من سيبريا ومنغوليا فتجعل شتاءها قاسياً بحيث يبلغ معدل الحرارة ٣٠ درجة تحت الصفر، وفي الشرق شتاء معتدل وصيف حار رطب، وكثيراً ما تختصر فصول السنة

إلى فصلين فقط. وفي الصين سهول فسيحة وجبال شماء وأنهار كثيرة أهمها اليانج تسي كيانج، والنهر الأصفر الذي كان مثيراً للرعب بعصيانه وفيضانه، ولكن ثم ترويضه الآن بالخزانات والقنوات والسدود والجسور المقواة.

بين الإعجاب.. والتعجيب!

وقد اعتمل في وجداني مزاج غريب من الإعجاب والتعجيب لم يلبث أن انداح في تفكيري، إزاء ما شاهدت في الصين من إنجازات ومعجزات. بعضه ما كان يمكن أن يتم إلا بالقسر والإجبار بالعنف والحديد والنار، وبعضه نتاج عمل جماعي مؤمن، والوضع كله ينتهي التفكير فيه إلى أنه «نوع من الرضا بتقشف قاس لا يستطيع أن يتقبله أو يتحمله شعب آخر!».

ولم يغب عن ذهني قط ما قاله المعلم الأول أرسطو في كتابه «السياسة» من أنه لا يوجد نظام حكم يصلح لكل الشعوب، لاختلافها في الطبع والمزاج والتكوين. كل الأنظمة السياسية والاقتصادية من ملكية وجمهورية وديمقراطية ودكتاتورية واشتراكية وشيوعية وغيرها قد تنجح في مكان من الدنيا لكنها تفشل في مكان آخر.

وقد كان يرافقني في تجوالي مترجم يتحدث العربية الفصحى والانجليزية، لكنه كان يتحاشى دائماً الحديث في نقطة العنف والحديد والنار، وهي نقطة انطلاق بديهية في كثير مما تم من إنجاز، مع الإعتراف

بأن الكثير قد تم أيضاً في ظل اقتناع وعمل جماعي، نتيجة لوجود القدوة الحسنة!

إنجازات خرافية!

إن تغيير «الإنسان» الصيني وليد سياسة عنيفة بلا جدال، لكن الإنسان الصيني بعد التغيير أقبل في ظل عمل جماعي مؤمن على الإتيان بإنجازات ومعجزات في الإنتاج الزراعي والصناعي وتنمية الدخل القومي وتغيير ملامح المجتمع وبناء المستقبل. ولو أننا تعرضنا لهذه الإنجازات بالأرقام والأسانيد لاحتجنا إلى كتاب، لكننا نكتفي بأمثلة من واقع المشاهدات:

● كانت الصين «غرزة الأفيون» العظمى في العالم ـ والأفيون صديق السموم البيضاء كالكاوكايين والهيروبين. والألف مليون مدمنون! فهم في حالة هستيريا إلى أن يحقنوا أو يشموا أو يمضغوا الجرعة المعتادة، وهم في حالة خمود تام بعدها، وبين الهستيريا والخمود لا عمل ولا إنتاج! ويصل الأمر إلى حد مأساوي، فتكتشف صباح كل يوم على أرصفة الشوارع آلاف الجثث من صرعى المزورات!

وكان لابد من قانون لمنع تعاطي المخدرات، وكان الجزاء حتماً هو الإعدام، وكانت النتيجة «انقراض» المخدرات نهائياً من الصين، وصحوة المواطنين، وتحول ألف مليون مسطول خامل كسول مريض إلى ألف مليون عامل منتج! ولعلها الآن الدولة الوحيدة في العالم التي لا تعرف المخدرات!!

● كانت الصين ماخورة البغاء العلني والرقيق السري الأبيض والأصفر! وكانت موانيها الكبرى، وبالذات شنغهاي وكانتون، أهم مراكز الدعارة ليس في الشرق الأقصى فقطبل في العالم كله! وبجرة قلم امتنع هذا كله، فالعقاب هو الإعدام، والنتيجة أن الصين الشعبية أصبحت أطهر دول العالم من هذه الموبقات، علنياً وسرياً!

● كانت الصين مباءة للذباب، ومرتعاً للعصافير وكل أنواع الطيور والحيوانات الطفيلية. وببساطة شديدة كانت البداية من ماوتسي تونج. إشارة بإبادة الذباب والتخلص من وصمة القذارة! وعلى الفور خرجت المدارس والمصانع واللجان الثورية في أحياء جميع المدن ـ لجان الحزب طبعاً ـ بهجوم ساحق ماحق على أكوام القمامة وأماكن تولد يرقات الذباب، فأعدمتها وأزالتها من الوجود. وما نجا منها في المرة الأولى تم إعدامه في الحملة الثانية. والبقايا راحت في الزحف البشري الثالث، وهكذا حتى انقرض الذباب، وخلصت البلاد من آثاره الصحية الضارة، ومن مظهر القذارة، وإلى الأبد. ولقد زرت حظائر الماشية في الكوميونات في الريف وزرائب الخنازير الموجودة في كل كوميونة، وهي أقذر حيوانات الدنيا، ولم أجد ذبابة واحدة! وقد تسألني رأيي في سر نجاح هذه الحملة فأقول لك بصراحة إنه اشتراك الكبير والصغير معاً، وبجد واقتناع وإيمان، وبعدم وجود ميكروفون للإذاعة ولا كاميرا للصحف والتليفزيون، كما نرى في حملاتنا إياها!

أكثر من ذلك. ليس في الصين كلها عصفورة، ولا صقر ولا حدأة ولا نسر ولا غراب، ولا أي نوع من الطيور! قال لي المترجم إن العصافير

كانت تأكل محصول الأرز، الغذاء الأساسي في الصين، وكان لابد من إبادتها! الألف مليون يدقون على صفائح بصوت مزعج، فتطير العصافير في الجو، ولأن لها طاقة معينة على التحليق، فإنها تتساقط ميتة حتى انقرضت. ولحقت بها الطيور الأخرى، سواء لأنها هلكت أو انزعجت وهاجرت! وكان حديثنا قبل زيارة سور الصين العظيم عن الجبال الشماء، وتحداني أن أجد نسراً واحداً، ولم أجد!!

ولا يوجد بالصين أيضاً قطط ولا كلاب ولا جرذان. لم أشهد شيئاً من ذلك لا في المدن ولا في القرى. ومن المؤكد أنهم أبادوا هذه الحيوانات أيضاً، لأنهم لديهم الكفاية من الأفواه الآدمية التي لا تتحمل مشاركة أفواه أخرى في قوت يحتاج تدبيره إلى جهاد ومجالدة!

المرأة والزي والطعام

والمرأة في الصين تنعم بمساواة كاملة مع الرجل، لكنها مساواة لا تحسد عليها! فهي ترتدي «البدلة» الصينية التي يلبسها الرجل دون أدنى محاولة للتأنف أو الهندمة، وكثيراً ما تكون البدلة قصيرة أو متهدلة واسعة، فإنتاج البدل بالجملة، وبالنمرة، وليس هناك تفصيل. والبدلة للنهار والليل، للعمل في المصنع أو الحقل أو المكتبة أو المنزل. ولا تضع المرأة الصينية أية مساحيق، فهي للفنانات فقط. ولا تهتم المرأة بجمالها قط، إلا من ناحية نظافة الجسم والشعر واللبس، ومع ذلك فهناك فتيات غاية في الجمال، لكن هناك ظاهرة عامة مشتركة وهي أن المرأة الصينية ليس لها صدر ناهد!

والمطعم الصيني مشهور في العالم كله، وهناك مطاعم صينية في كل عواصم العالم. والطبق الأساسي هو الحساء بفول الصويا المشابه للشعرية، والأرز الذي يؤكل بالعصي الخشبية، التي يثير الأجنبي الضحك حينما يحاول أن يستعملها. وفي الحساء كثير من الأرجل الصغيرة وأوراق الشجر وأشياء دقيقة لا تعرف ماهيتها. ولهم عادات عجيبة في أكل البط فهم يأكلون أرجله ورقابه ومناقيره ورؤوسه وربما أجنحته أما صدوره «وأوراكه» فلا تظهر على المائدة أبداً!

لكن ولائم «الحزب» غنية بالأطباق، وتدخل فيها الأحياء البحرية كلها حتى «زعانف سمك القرش» وسرطان البحر والسوبيا والأخطبوط، وهم يهتمون بموائد الضيافة التي تحفل بكل ما لذ وطاب، ويدعى إليها رجال الحزب بتوسع، فالحفاوة بالضيف فرصة لمثوبة المخلصين! ولذلك تحفل الموائد أيضاً بالمشروبات الروحية، حيث توضع أقداح «التاي» الشبيه بالفودكا الروسية مع أقداح الكونياك الصيني، ليأخذ الضيف جرعة من التاي ليحس بالنار في صدرة فيطفئها بنار أخف هي جرعة الكونياك!

الملكية وجيوش النحل!

والإنسان الصيني عامل عظيم، يؤدي عمله بإتقان وأمانة، ويحترم الآله ويحافظ عليها، ويحاول زيادة الإنتاج لأنها المخرج الوحيد من دائرة الحرمان. فليس في الصين ملكية خاصة للعقارات، وملكية الأشياء تعطى للناس بالتدريج، وحسبما يسمح الدخل القومي ـ فإذا تحسنت

الأحوال سمح للصيني أن يمتلك راديو ترانزستور، وإذا تحسنت أكثر سمح له بماكينة خياطة، ثم راديو عادي، ثم دراجة وهكذا. ولعلهم أباحوا الثلاجة الآن، لكن لغاية عام ١٩٨١ كان واضحاً أن السيارة ما زال دورها بعيداً!

فليس في الصين سيارات خاصة ـ ومصانع السيارات الهائلة تنتج ملايين سيارات الأوتوبيس والحافلات والشاحنات واللوري والجرارات والمحاريث ونصف النقل. ولا توجد إلا سيارات الدبلوماسية والحزب. أما انتقال الجماهير فيتم بالمترو ـ وهو حديث جداً والأوتوبيس، والدراجات.

وعندما تطل من نافذة غرفتك بالفندق في الشارع الأحمر في بكين وهو من أوسع شوارع العالم وأطولها، وفيه منصة الاستعراضات العسكرية ومجلس الشعب والمؤسسات الرسمية، تشاهد ساعة دخول العمال وانصرافهم مشهداً عجيباً لا مثيل له في العالم، هو ملايين الدراجات تزحف في الشارع كأنها جيوش من النمل! ولا شك أن كل راكب دراجة يحلم باليوم الذي يسمح فيه الدخل القومي بأن يحوله إلى مالك سيارة!

المرتبات والإسكان!

والمجتمع الصيني ليس مجتمع وفرة، لكنه مجتمع يضمن للمواطن الحد الأدنى من المسكن والملبس والغذاء، فليس به جائع أو محروم أو عريان أو ساكن قبور أو من يلتحف السماء ـ وإذا كان إطعام ١٣٥٠

مليون فم أمراً صعباً، فإن إيواءهم أصعب. وقد سألت المترجم فقال لي:

إن الحكومة تبني ملايين المساكن الشعبية وتؤجرها للناس بمقابل زهيد. شقتي مثلاً غرفتان وصالة ومرافق وإيجارها يعادل ٣ دولارات شهرياً. والمرتبات أصلاً ليس بينها فوارق شاسعة، فهي تتراوح بين ما يعادل ٤٠ و ٨٠ دولاراً شهرياً، وبذلك يشعر الناس أنه لا يوجد تفاوت ولا استثناء، ويساعدهم على الرضا بما قسم لهم وجود القدوة، فالصفوة والقيادات والوزراء يلبسون لبس العمال ويسكنون سكن العمال، والكل في انتظار اليوم الموعود، يوم يسمح الدخل القومي بمعيشة أفضل فالصين تطبق شيوعية قاسية وتقول إن الروس منحرفون!

سور الصين العظيم والتراث

وسور الصين العظيم من عجائب الدنيا، وهو مقصد السياح. سور يحيط بالجبال الشماء على بعد ١٢٠ كيلومتراً من بكين، يلتف بها كالتنين الخرافي، على ارتفاع شاهق، ويمتد زهاء ١٤٠٠ كيلومتر. وهو أول خط دفاعي رهيب في التاريخ، وقد أقيم لحماية شمال الصين من غزو قبائل البرابرة، ويتكون من كتل حجرية صلبة ضخمة، ينتهي كل جزء منها بقلعة أو نقطة حصينة للدفاع. وهو الآن مزار للأهالي والسياح على السواء، تتقاطر عليه الرحلات والسيارات من كل فج عميق!

وفي الطريق إليه يمر الزائر بمقابر الأباطرة، على بعد ٦٠ كيلومتراً من العاصمة بكين، والمدافن تمثل ذروة فن المعمار الصيني، وفيها جبروت

الماضي والعز والسؤدد، وتحيط بها حدائق غناء، فيها وحدها عصافير، لا تغادرها، وكأنما لديها أمر «بتحديد إقامتها» في هذا المكان، فلا تبارحه قط! عشرات المقابر للأباطرة العظام القدماء، حافظوا عليها لأنها من التراث!

تماماً مثل قصور الأباطرة في بكين، عشرات من القصور التي شيدها أباطرة الأسرات العظيمة لا سيما أسرة مينج عام ١٤٢٠ وهان وشين، فهذا قصر «الاتساق الأعلى»، الذي بناه الأمبراطور يونج لو عام ١٤٢٠، وهذا قصر «التنين» الذي بناه الأمبراطور شي يان لونج من أسرة شين، وهذا قصر «الطهارة السماوية»، وقصر «الاتحاد»، وقصر «الهدوء الأرضي»، وقصر «الحديقة الأمبراطورية»، وقصر «الربيع الدائم»، وعشرات القصور بهذه المسميات الأمبراطورية، كلها آية في الفخامة، بعضها للعرش، وبعضها للطعام، وبعضها للاجتماعات الأمبراطورية، وبعضها للنوم، وبعضها للأميرات، والتجوال فيما بينها يحتاج إلى يوم بأكمله، فهي تحتل منطقة شاسعة في قلب بكين، ولا تخلو طوال النهار من الزوار المبهورين!

في الكوميونات!

وماذا يجري في الكوميونة أو المزرعة الجماعية؟

كل مزرعة تضم زهاء ألف فدان، يوزع عائدها على سكانها كل بحسب عمله، والكل يعمل بهمة. الزراعات الأساسية هي الأرز والفواكه وفول الصويا، ومعها مصانعها ومضاربها ومعاصرها لاستخراج

الزيوت ـ وهناك حظائر المواشي وزرائب الخنازير، والمجزر الآلي، ولكل فلاح بيت صغير تحيطبه حديقة هي من أملاكه الخاصة، ، مساحتها زهاء قيراط ، يربي فيها بعض الدواجن وخاصة الدجاج والبط، وربما «معزة» أو شاة، ويزرع فيها الزهور، وفي كل قرية منها حد أدنى من الرعاية الطبية يتمثل في صيدلية، وطبيب عام تلقى مبادىء الطب والإسعافات الأولية ويسمونه الطبيب الحافي لهذا السبب، فهو ليس حافياً، وإنما أشبه بحلاق الصحة الذي كان يعيش في الريف أيام زمان.

ولا تملك إلا أن تنبهر بالصين. وأن تعجب بقوة تحمل أهلها وصبرهم على المعاناة، وتعلقهم بالأمل مهما طال الزمن. ولعلك تلاحظ دماثة أخلاق الصينيين وأدبهم المفرط وصوتهم الخفيض، وتواضعهم الغريب، فأنت عندهم العالم الوحيد وهم منك يستفيدون، مع أن العكس هو الصحيح!

ولعلك تخرج من الصين مثلي غير عارف بقيمة عملتها وهي «اليوان» لقلة استعمالك لها ما دمت قد صرفت مبلغاً من البنك عند قدومك! ولعلك تخرج منها بعبارة واحدة من اللغة الصينية كما خرجت وهي: ني ها! ومعناها صباح الخير!

أفـريقيا

جنة في أفريقيا اسمها بوروندي!
أفراس النهر في الشوارع وثمن الواحد ٢٥ جنيهاً!
قانون في فبراير ١٩٧٣ لتحريم أكل لحم البشر!
منابع أخرى لنهر النيل العظيم في جبال القمر!
صيد السمك في بحيرة فيكتوريا محفوف بالخطر!
فندق واحد متواضع في العاصمة بوجومبورا!
غابات وجبال مخيفة تتوسطها مزارع الشاي!

في مارس ١٩٧٣ كانت هناك مباراة للفريق القومي المصري الكروي مع فريق بوروندي، في إطار بطولة دول أفريقيا، وكان الطريق السهل للوصـول إلى العاصمـة بوجومبـورا هو السفر إلى بروكسل عاصمـة بلجيكا، ومن هناك رأساً إلى بوروندي، لأنها كانت مستعمرة بلجيكية، شأنها شأن رواندا المتاخمة لها شمالاً، وزائير جنوباً، والتي كانت تسمى الكونجو البلجيكي.

إلا أني رأيت أن أسلك الطريق الصعب، وأن أسافر أولاً إلى أديس أبابا عاصمة أثيوبيا، لتغـطية مبـاراة نادي الاتحـاد السكنـدري مع سان جورج بطل كأس أثيوبيا، في بطولة أندية أفريقيا لأبطال الكأس، ومن هناك أستقل الطائرة إلى بوجومبورا.

ولأنها كانت سفرتي الأولى إلى بوروندي فقد أرسلت برقية إلى سفارة مصر هناك بموعد وصولي على طائرة «ايرزائير» من كمبالا عاصمة أوغندة، التي أصل إليها على الطائرة الأثيوبية. وكانت المفاجأة الأولى تأخر جميع الطائرات، وانصراف القائم بالأعمال الذي انتظرني في مطار بوجومبورا حتى يئس من معرفة موعد الوصول!

رحلة جوية رهيبة!

وبعد رحلة جوية رهيبة في طائرة ايرزائير الصغيرة الخفيفة، التي تلاعبت بها الرياح الشديدة، والأمطار الاستوائية الغزيرة المصحوبة ببرق ورعد يثيران الرعب، هبطنا في مطار بوجومبورا على بحيرة تنجانيقا وسط ضباب كثيف، لأجد مفاجأة أخرى في انتظاري!

لقد ضربت «لخمة» شديدة عندما تفحصت وجوه المستقبلين ـ على قلتهم ـ فلم أجد أحداً من رجال السفارة المصرية. وزاد ارتباكي وأصبحت أشبه بفلاح يصل إلى محطة القاهرة لأول مرة حين تبين لي أنه لا توجد سيارة للشركة ولا سيارة أجرة لتنقلني من المطار إلى أي فندق، لأني لم أحجز في فندق معين!

إلى الفندق الأوحد!

وانصرف الناس جميعاً، قادمين ومستقبلين، ولم يبق سواي. وجلست مبتئساً مكتئباً فوق حقيبتي، أندب حظي مثل رجل كان ضحية حادث فشل في مدينة غريبة ثم استجمعت شتات نفسي، وتوجهت إلى

أملي الوحيد الباقي، الذي يتمثل في مدير المطار، عندما سمعت صرير بابه وهو يتأهب للانصراف، لأنه لا ينتظر طائرات أخرى في تلك الليلة الليلاء.

واستقبلني الرجل بدهشة، لكن ببشاشة وترحاب. وشرحت له ظروفي فقال: كان القائم بأعمال سفارتكم في انتظارك لمدة طويلة، ولم يكن لدينا معلومات عن موعد وصول الطائرات التي تأخرت كثيراً فانصرف آسفاً، لكنه أوصاني بك خيراً، وإن كنت انشغلت عنك، ونسيتك تماماً عندما وصلت الطائرة وانهمكت في العمل! تعال معي على كل حال، فعربتي في الخارج.

قلت له: أشكرك. كان في حسباني أن أستقل سيارة «تاكسي» إذا لم أجد أحداً بانتظاري، إلا أني بحثت عن تاكسي فلم أجد!

قال: ليس في بوجومبورا مواصلات عامة! لا أوتوبيس، ولا ترام، ولا تاكسي. الناس هنا يمشون أميالاً كل يوم!

قلت: خير كل ما ينتهي بخير. أكرر لك شكري، وأرجو أن تتكرم فتوصلني إلى أي فندق، أقضي فيه ليلتي لأني مرهق، إلى أن أتصل بالسفارة غداً لأدبر أمري! قال: إنك قطعاً لم تحجز. والصعوبة أن هناك فندقاً واحداً صغيراً، يملكه رجل يوناني، وأن فريقاً مصرياً لكرة القدم قد وصل، ولابد أنه زحم الفندق، وأرجو أن تجد لك مكاناً!

الطريق الموحش!

المطار على بعد نصف ساعة من العاصمة. الطريق موحش، يلتوي كأفعى ضخمة تشق طريقها في قلب الغابة التي تكتنفه من الناحيتين. الظلام دامس، والسكون مطبق، لا يقطعه سوى هزيم الرعد، وهطول المطر الذي ينهمر كأنما من أفواه قِرَب، وأصوات طيور عجيبة ومخيفة وبعيدة عن الشاعرية، فلا هي شقشقة عصافير، ولا هديل حمام أو يمام، ولا دعاء كروان، ولا حتى نعيق غراب، حتى قلت في نفسي: لعل الرخ حقيقة وليس طائراً خرافياً!!

ولعل مدير المطار كان يراوده نفس التفكير، لأنه لاذ بالصمت طوال المشوار، إلى أن وصلنا إلى الفندق، لأجد المفاجأة الثالثة! لا أماكن خالية!

فن الفندقة!

كان الرجل اليوناني صاحب الفندق الأوحد أستاذاً في فن الفندقة. بابتسامة عريضة أخبرني أن كل غرفة مشغولة، لكي يخفف عني الصدمة. وبادر إلى إحضار خريطة كاملة للفندق تشمل كل الغرف وأسماء شاغليها، حسماً لأية مناقشة. ثم نظر إلى زوجته وابنته اللتين تساعدانه وقال لي: لكنها لن تترك زبوناً قادماً من مصر ينام في الشارع!

وقلت له: الله يعمر بيتك! وشكرت مدير المطار الذي ظل واقفاً حتى انفكت الأزمة، وودعنا وانصرف.

ويبدو أن صاحب الفندق تذكر شيئاً فجأة فقال لي: هل علاقتك طيبة برئيس البعثة المصرية؟

قلت: إنه صديق حميم، وإن كان خصماً لدوداً في لعب الطاولة!

قال: إنه ينزل في غرفة بسريرين، وهذا يحل لنا المشكلة الليلة، ونتدبر الأمر فيما بعد!

شريك رغم أنفه!

وراجع الرجل رقم الغرف، ورأف بحالي فحمل حقيبتي، وصعدنا إلى الدور الأولى، ودق الباب، ففتح رئيس البعثة وهو يعرك عينيه لأنه كان نائماً، وما أن شاهدني حتى ذهل وقال: يخرب بيتك، لماذا تأخرت؟ لقد أخذت غرفة بسريرين لأني أعرف أنك لم تحجز!

كان رئيس البعثة المهندس محمد حسن حلمي رئيس نادي الزمالك ووكيل إتحاد كرة القدم ومدير الفريق القومي وقتذاك. ولأننا أقلقناه فقد أراد أن يتسلى بالحديث معي، لكنني كنت في حالة إعياء فقلت له: الصباح رباح يا حلمي!

وبقيت معه شريكاً في الغرفة بقرار من رئيس البعثة، الذي نبه على صاحب الفندق أن مشكلتي قد تم حلها على هذا الوجه ولا داعي للبحث عن غرفة لي!

بوروندي جنة!

وعندما أصبح الصبح، تناولنا طعام الفطور، ثم ذهبنا إلى الأستاذ للتدريب في وجبة الصباح. الملعب صغير سعته ١٥ ألف متفرج، مثل ستادات المحافظات في مصر، في مرحلتها الأولى. والمدرجات ممتلئة حتى في التمرين، لأن الجمهور كروي. وبعد التدريب صعدنا في جبال القمر الشماء لنتفرج على مصانع الشاي، على ارتفاع ألفي متر. الطريق معبّد، يتلوى بين غابات كثيفة على الجانبين، تتخللها مزارع الشاي التي أنشأها البلجيك، والطقس بارد، والأرض خضراء سندسية، وفي أسفل الجبال تتجمع السيول المنسابة من أعلى لتكوّن بحيرة كبيرة، تقع بين بوروندي وزائير، ويفاخر الناس بأنها من منابع النيل، والمشهد كله لوحة رائعة أبدعها الخالق جل جلاله.

أفراس النهر بالشارع!

ومرّ عليّ القائم بالأعمال في المساء ليخطرني بالاستعداد لرحلة صيد سمك في بحيرة تنجانيقا، التي تمتد من بوروندي إلى تنزانيا، أو في نهر «رونيزي» على حدود زائير، في الرابعة من صباح اليوم التالي.

وما أن ركبنا السيارة وبدأنا نتحرك من الفندق الأوحد حتى رأيت خيالاً ضخماً وسط الشارع، ففركت عيني لأتأكد أني لست أحلم، ولاحظ الرجل الدبلوماسي قلقي فقال لي: لا عليك، هذا منظر سوف تشاهده كثيراً في الطريق، فأفراس النهر تخرج ليلاً من النهر ومن البحيرة لكي تتنزه في الشوارع، فرادى وجماعات!

وحمدت الله لأن أفراس النهر من أكلة العشب! وران الصمت لحظة، إلا من صوت طيور الغابة، ثم قال لي الرجل: هنا رجل يوناني ذكي، استغل هذه الظاهرة، وحدّد مبلغ ٢٥ جنيهاً لكل مواطن يسلمه «فرس نهر»!

وسألته: وماذا يصنع بها؟

قال: لقد أنشأ مصنعاً للحم المحفوظ، على غرار «البيلوبيف». وحَدّث عن مكاسبه ولا حرج، لأن أطنان اللحم في الفرس الواحد الذي يشتريه بمبلغ ٢٥ جنيهاً، يبيعها بما لا يقل عن ٣٠٠ جنيه!

الصيد المرعب!

ووصلنا إلى آخر قرية في بوروندي واسمها كاتومبا، على حدود زائير، وعلى كوبري نهر روزيزي الذي يصب في بحيرة تنجانيقا. وقفنا نصطاد السمك «بالشلاطة» بطريقة «اللطش»، فهي سنارة مركبة، بها ثلاثة أسلحة حادة. وقد رفضت من البداية أن أجلس على شاطىء النهر، بين الأعشاب الطويلة، التي تصدر منها خشخشة مخيفة، لا سيما وأن المنطقة مشهورة بكثرة الأفاعي!

وكان الفجر قد شقشق، وبدأت جيوش الضوء تبدد فلول الظلام الحالك. ووقفنا على الكوبري فوق نهر روزيزي، ولم أكد أدليّ السنارة في الماء حتى لمحت تحتي مباشرة قطعان التماسيح وأفراس النهر، فألقيت بها في الأرض وانطلقت أجري مبتعداً!

وذعر القائم بالأعمال وقال لي مستفسراً: ماذا جرى؟

قلت له: أنظر حولك، قصدي أنظر تحتك! أي صيد هذا؟ هل جئنا لنصطاد السمك أو التماسيح وأفراس النهر، وماذا لو طاشت لطشة السنارة وجاءت في واحد منها بدلاً من سمكة؟

وهدأ القائم بالأعمال من روعي وقال: نصطاد في البحيرة أفضل. واستدار لنجلس على شاطىء البحيرة الكبيرة، فهي تلي بحيرة فكتوريا من حيث المساحة، إلا أني وجدت الشاطىء مليئاً بالأعشاب الكثيفة والأحراش، فرفضت لأنها مأوى للزواحف والحشرات، فقال: ليس أمامنا إلا أن نعود إلى بوجومبورا ونحاول الصيد من نادي الشراع اليوناني، وهو نادي الرياضات البحرية الأوحد.

وتسللنا إلى النادي، وجلسنا على مرسى اليخوت الشراعية، ولم يطل انتظاري، فقد غمزت السنارة، لكن أول صيد لي كان ثعباناً ضخماً، بكل أسف؟ وأنا لا أكره ولا أخشى شيئاً سوى الثعابين، فرميت السنارة مرة أمرى، وجريت، قائلاً: لا يا عم، يفتح الله!

وقف أكل لحم البشر!

وعدنا إلى الفندق، ووجدنا فريق الكرة يستعد لتناول طعام الفطور، وكنت لا أزال مضطرباً، لدرجة أنهم لاحظوا ذلك وسألوني، وشرح لهم القائم بالأعمال ما حدث، فتضاحكوا وقالوا: لقد انزعجنا عليك، حسبنا أنك قد أكلتَ أكلاً لمّا!!

قلت: لم يصادفنا سوى فرس النهر- سيد قشطة - في الشارع، فرادى وجماعات، ثم بعض التماسيح في نهر روزيزي على حدود زائير، حيث حاولنا أن نصطاد!

قالوا: لا نقصد هذا، ولكن من ذا الذي لا يفكر فيما تخفيه وراءها هذه الغابات الكثيفة. ألا يحتمل أن يكون وراءها قبائل من أكلة لحوم البشر؟

وانشغلت بهذا الموضوع، لكن البحث عن الحقيقة محرج أشد الحرج. ذلك أن مرافقينا من اتحاد بوروندي لكرة القدم قوم في غاية الرقة ودماثة الخلق، كما أن رجال سفارة مصر دبلوماسيون حريصون على عدم الخوض في الموضوع.

وبعد الظهر أقيمت المباراة وسط جمهور ملأ الملعب، وخلا من المظاهر الأفريقية التي أخافتنا في الستينيات! طبول التام تام تدق دقة الحرب، والخرز الذي يستر الوسط، والريش الذي يعلو الرأس، والوشم الأبيض على الخدود والجسم الأبنوسي، والرقص بالحراب، وغير ذلك من مظاهر التحدي والتحفز والاستفزاز. بل بالعكس، كان الجمهور يرتدي الملابس الأوروبية، ويشجع اللعبة الحسنة، رغم تحمسه لفريقه القومي. وفازت مصر ٣/ صفر، وانصرفنا من الملعب، لنستعد لحفل شاي دعانا إليه النادي اليوناني الاجتماعي!

بوجومبورا تهجع في السابعة مساء، ولا يمشي في الشارع ليلاً سوى أفراس النهر، ولا يسهر سوى أعضاء النادي اليوناني، وكلهم يملكون

سيارات، بل تمتد بهم السهرات لأنها تشمل الأكل والرقص والموسيقى عادة.

ومِلْت على سكـرتير النادي وهمست في أُذنه: ما أخبار أكلة لحوم البشر في هذه المنطقة؟

وقال الرجل: لا تخافوا، فقد صدر في الشهر الماضي قانون يحرّم أكل لحم البشر! لكن من قبيل الحرص يجب أن تراعوا عدم التوغل في الغابة!

قلت: طبعاً، لأن القانون نشر في الجريدة الرسمية، وربما أذيع في الراديو، لكن من يدري إذا كان أهل الغابة قد علموا به، وبدأوا يطبقونه؟!

وعدنا إلى الفندق، ولم أغادره قط، إلى أن حان موعد السفر. واليوم، بعد ١٢ سنة، لابد أن الغابة قد علمت بالقانون ونفذته، ولذلك فإني على استعداد أن أزور بوروندي أكثر من مرة، لأنها بالحق جنة في وسط أفريقيا!

المكسيك

المكسيك بلاد المارياتشي والروديو والسومبريرو!
الاعجاز الرياضي البشري في ظل الارتفاع عن سطح البحر!
الفرق بين أهرام التيوتوكان وأهرام فراعنة مصر!
المراعي بلا نهاية والخيول الشاردة والطائرات بالمزارع!
دور الرياضيين العرب في الألعاب الأوليمبية هو التصفيق!
وجبة نيفة في كهف . . كان مخبأ لفدائيي الهنود الحمر!
كانت المكسيك مخزناً للقمح وأصبحت تستورده الآن!
عجز رهيب في ميزان المدفوعات رغم وفرة مصادر الثروة!
المرأة المكسيكية فيها جمال الاسبانية وأنوثة العربية!

عندما زرت المكسيك عام ١٩٦٨ بمناسبة الدورة الأوليمبية أنفقت فيها ثلاثة أسابيع سعيدة، تمنيت في ختامها أن تطول ولو أسبوعاً واحداً آخر. وعندما زرت المكسيك عام ١٩٨٢ لمدة ثلاثة أيام تمنيت لو أنها قصرت، فقد أصبحت مدينة مكسيكو سيتي العاصمة شيئاً لا يطاق!

في المرة الأولى تأثرت المباريات والمسابقات في مدن كبيرة كثيرة مثل بوبيلا ووادي الحجارة وليون وغيرها، وأتيح لي أن أزور أكابولوكو المصيف الهائل، وأن أتجول في الريف وأن أعايش المكسيكيين وأقترب منهم

وأعرف طباعهم وعاداتهم ،وكان كل شيء يسير بأناة وهدوء، وكانت بوادر الخير تنتشر في الحضر والريف على السواء!

وفي المرة الثانية كان الزحام فوق الوصف، وكان تدهور الحالة الاقتصادية وبالاً على الحياة العامة، والارتباك مسيطراً على كل شيء!

المكسيك دولة كبيرة

اسمها الرسمي الولايات المتحدة المكسيكية. تعدادها ٧٠ مليون نسمة، والسكان في تزايد مستمر، والحكومة تحارب هذه الظاهرة وتحاول تخفيض نسبة التزايد. ومدينة مكسيكو سيتي العاصمة أصبحت أكبر عواصم العالم، فهي تضم أكثر من ١٤ مليون نسمة، لأن الهجرة إليها من الريف مستمرة، شأنها شأن القاهرة، وكذلك فإن بها كل عيوب القاهرة من تكوس وسوء مرور وضياع «ساعات عمل» وتلوث جو وبيئة، وليس هذا هو الرباط الوحيد بين المكسيك ومصر. فالمكسيكي يحب الطعام الدسم المسبّك كما يحبه المصري، وهو ابن نكتة يطلق النكات على حكامه وعلى نفسه وعلى الأمريكان، كما أنه شديد التدين، ففي مدينة المكسيك مئات الكنائس، والمرأة المكسيكية مخلصة لزوجها كل الإخلاص.

أهرام التيوتوكان!

وإذا كان الرحالة النرويجي تور هايردال قد بنى قارباً فرعونياً من ورق البردى أقلع به من الاسكندرية لزيارة المكسيك، لكي يثبت أنه

كانت هناك صلة بين الفراعنة وسكان المكسيك القدماء من قبائل المايا والتيوتوكان والأرتيك والفونتك والمكستك وغيرها من قبائل الهنود الحمر، لكن كل ما أثبته هو هذا التشابه في الطباع بين المصري والمكسيكي. وقد زرت أهرامات التيوتوكان في المكسيك، ولا صلة بينها وبين أهرامات الفراعنة العظام. إنها مصاطب من اللّبن الأخضر، عريضة، وغير مرتفعة، وملحق بها معابد بدائية مكرسة لإله الشمس وإله القمر، وأقيمت بعد أهرامات الفراعنة بأكثر من ألفي سنة، ولا تشبهها في شيء. ربما كان التشابه الوحيد هو في استغلال المنطقة سياحياً، فحولها الفنادق والملاهي وكل ما يغري السياح على التردد عليها.

مصارعة الثيران والروديو

وفي المكسيك مصارعة ثيران على الطريقة الأسبانية، باعتبارها مستعمرة اسبانية مسابقة، كما أن فيها ألواناً عجيبة من الفروسية. وقد شاهدت صورتين من فروسية الروديو، وهي مقصورة على رعاة البقر - الكاوبوي - وفي إحداهما تنطلق البقرة من الحظيرة بسرعة البرق، ويلاحقها على الفور فارس من رعاة البقر على جواده، ليلحق بها وبلمسة بارعة من يده لذيلها يطرحها أرضاً بجبروت عجيب لأنه لا يؤثر على الفارس ولا على البقرة، التي ظننت في كل مرة أنها فارقت الحياة.

النوع الآخر من الروديو هو محاولة راعي البقر ركوب جواد أخضر

بري، لم يسبق ركوبه، ولم يوضع سرج على ظهره، وهي عملية في غاية الخطورة، وكثير من الفرسان لم يستطيع البقاء لمدة ثوان فوق صهوة الجواد الثائر الجامح، الذي يرفض أي قيد كالرجل الحرا والجمهور ملتف حول الحلبة في لهفة، الرجال يصفقون ويهللون للنجاح سواء كان من نصيب فارس أو جواد، والنساء كالعادة يصرخن، والكل في انتظار الدم، لدرجة فكرت معها: هل الإنسان دموي؟!

زمان كان التعذيب تلذذاً بإيذاء الغير، من قبيل السادية، كما حدث للمسلمين في صدر الإسلام على يد قريش، وكما حدث للمسيحيين قبلهم في عهد الرومان حيث كان الجلادون يسوقونهم إلى حلبة مليئة بالأسود الضارية ليصارعوها وهم عزل من أي سلاح صراعاً غير متكافىء، والصياح والصراخ المخمور على أشده في المدرجات! وحتى عندما انتهى التشفي لأسباب دينية، بدأت محاكم التفتيش التنكيل لأسباب سياسية، ولكن المنطلق واحد وهو السادية. أما ما شاهدته في المكسيك فهو في الروديو ماسوشية، هو حب لتعذيب النفس، أكثر منه حباً في كسب الشعبية والنجومية!

الريف المكسيكي والسومبريرو!

إن الانتقال بالطائرة يفقد الإنسان متعة السفر التي تسعده إذا سافر بالسيارة، وقد ذرعت المكسيك طولاً وعرضاً بالسيارة، لأني كنت أريد مشاهدة الريف على حقيقته. وكان الخطر الوحيد يتمثل في «الشوارد» من

قطعان الخيل والبقر على الطريق السريع، حيث تظهر فجأة فتربك قائد السيارة.

وفي الأشعار زمان كان هناك الخان الذي تنزل فيه لتجد سريراً يرم عظامك بعد رجرجة العربة التي تجرها الخيول، ولقمة تسد رمقك، ومغطساً يخلصك من وعثاء الطريق، أما الآن فهناك الموتيل الذي يأويك، وينظف سيارتك ويملؤها بالبنزين. وما أكثر الموتيلات ونقط الإسعاف في طرق المكسيك الطويلة. وربما كان ذلك ميزة للمكسيك على كل البلاد العربية، رغم أهميته من الناحية السياحية!

وليس هذا فقط، فقد لاحظت وجود مطار صغير في كل قرية مكسيكية، أولعلنا نكون أوضح فنقول كل «إقطاعية مكسيكية»، وهذا لا يمنع أن الظاهرة الجلية في وضح النهار على طول الطريق هي «السومبريرو»، القبعة المكسيكية الشهيرة الكبيرة، التي تقيك وهج الشمس! وما من سائح بالمكسيك إلا يعود ومعه سومبريرو أو أكثر «تفرّح» الأولاد!

الكبريتو والتاكيلا والمارياتشي!

وكل ما في اسبانيا تجده في المكسيك. ليس فقطمصارعة الثيران، ولا جنون كرة القدم؟ وإنما الرقص أيضاً من البوليرو إلى الفلامنكو السريع مع إضافة أنثوية من خلال إيقاعات الكاريوكا والكوكاراتشا والكونجا والرومبا والسامبا المتسربة من البرازيل وأمريكا اللاتينية. وللايقاع هناك

سحر تماماً مثل أفريقيا، وبالنسبة للمرأة بصفة خاصة، مع أنوثة مصرية! فأية نقرة بالإصبع تؤدي إلى هزة في أعطاف المرأة المكسيكية، التي تتأول كغصون البان، وكأنها راقصة مصرية شرقية محترفة أو فتاة مصرية عادية ترقص مع زميلاتها في غرفة!

وأذكر أن اللجنة المنظمة لدورة المكسيك الأوليمبية عام ١٩٦٨ دعتنا إلى عشاء في كهف خارج المدينة، كان قوامه طبق «الكبريتو» المشهور، وهو شواء الجدي، أو النيفة في مصر، مع مشروب التاكيلا الروحي، وهو المشروب الوطني، الذي أقبل عليه غير المسلمين منا.

وخلال الحفل قدمت لنا فرقة الفنون الشعبية رقصات مكسيكية، ماذا أقول؟ الإيقاع الذي يدفع الحجر إلى الرقص، والأنوثة الطاغية، والوحدة الحركية البارعة، ثم الجمال!

إن التهجين معروف في علم الوراثة - وجمال المرأة المكسيكية وليد عملية تهجين، بين الاسبان والهنود الحمر. لكن الاسبان في عهد الإستكشاف كانوا مهجنين أيضاً، مع العرب بالفتح الأندلسي. ومن هنا جمعت المرأة محاسن الجمال في العربية والاسبانية والهندية الحمراء. ويؤيد ذلك فاصل «المارياتشي» الذي عرضوه، وهو عبارة عن مواويل غرامية بإيقاع بطيء، ومناجاة وماجيناه، تحت شرفة المعشوق، على الجيتار أو العود، بطريقة: يا مين يجيب لي حبيبي وياخد من عيني عين؟ - وهي الأغنية التي هاجمتها النكتة المصرية، وأخذتها دليلاً على الكسل، من عاشق يريد أن نسعى نحن لإحضار حبيبه له!!

الإعجاز البشري!

إن الألعاب الأوليمبية هي أعظم تجمع شبابي للجنسين في تاريخ البشرية من أجل تحقيق التفاهم والسلام بين الشعوب ـ ومنذ أيام الإغريق الذين بدأوها عام ٧٦٦ قبل الميلاد، كانت تقام بين مدن اليونان، في سفح جبل أوليمبي المقدس مقر الإله زيوس رب الأرباب في الميثولوجيا الإغريقية، كل ٤ سنوات. وهي مسابقات بين أفراد، يفوز فيها «الأعلى والأسرع والأقوى»، وهذا هو شعار الدورات حتى الآن. وقد ألغى الأمبراطور الروماني تيوديسيوس الألعاب القديمة عام ٣٩٤ ميلادية. وبعد اكتشاف حفائر أوليمبيا في القرن الماضي عمل البارون الفرنسي دي كوبرنان على إحياء الدورات الأوليمبية، وأقيمت الدورة الحديثة الأولى في أثينا عاصمة اليونان عام ١٨٩٦، وما زالت تقام بانتظام كل ٤ سنوات إلى الآن. هذا تعريف سريع بالحركة الأوليمبية كمدخل لما أريد أن أقول لك.

إن دورة المكسيك الأوليمبية عام ١٩٦٨ كانت «معرضاً» للإعجاز البشري. ويكفي أن مسابقات الرجال في ألعاب القوى بها ٢٢ مسابقة، وسجلت فيها ٥ أرقام قياسية عالمية، ظلت قائمة إلى عام ١٩٧٩ حيث سقط أحدها، ثم ظلت ٤ أرقام منها قائمة حتى عام ١٩٨٣، وهي أرقام ١٠٠ متر و ٤٠٠ متر و ٤×٤٠٠ متر عدوا والوثب الطويل. وتدل الدلائل على أن بعضها سيظل قائماً حتى بداية القرن الحادي والعشرين!! لماذا؟

ذلك أن المكسيك هضبة عالية ارتفاعها فوق ٧ آلاف قدم، ومن هنا

يقل فيها الأوكسيجين، ولذلك فإن الذي يتدرب في الارتفاع، ويتعود على نقص الأوكسيجين، لا يحس ما يحسه الآخرون من معاناة في التنفس. ولهذا السبب أيضاً تألق خلال الدورة أبطال كينيا وأثيوبيا في الجري الطويل بوصفهما من أعلى هضاب العالم ولدرجة أن فوز البطل العربي التونسي محمد القمودي ببطولة الجري لسباق ٥ آلاف متر اعتبر ضرباً من الإعجاز، لأن تونس في مستوى سطح البحر!

مخزن القمح فرغ!

والمكسيك تدهورت أوضاعها الاقتصادية الآن، فالعجز في ميزان المدفوعات ببلايين الجنيهات، وكانت مخزناً للقمح تأخذ كفايتها منه وتصدر الباقي، إلا أنها تستورده الآن، ومشاكلها تشابه مشاكل مصر، فالقوة الأساسية من شعبها مستهلكة لأنها من الشباب الذين يمثلون ثلثي عدد السكان، والتدهور الاقتصادي وانخفاض سعر «البيزو» أدى إلى وجود ثلاثة أسعار للدولار كما هو الحال في مصر!!

وفي المكسيك بترول وقصدير وفوسفات وبن وفضة وزنك، وكل ذلك بوفرة، ولكن الروتين يعطل الإصلاح، وكثرة القرارات الاقتصادية ترهب رأس المال الأجنبي والقطاع الخاص، وكما ترى فإنها مشاكل كل الدول النامية، ويضاف إليها جشع التجار واستغلال الطبقة الحاكمة، وضآلة الإنتاج في ظل القطاع العام. ويسعى الرئيس هورتادو إلى إصلاح الوضع الاقتصادي، مع الاتجاه إلى السياحة، بوصفها أمل المستقبل.

هل هناك هنود حمر؟

وندع مشاكل المكسيك الاقتصادية لنبحث في جذور هذا الشعب الكبير. لم يستطع هيردال النرويجي أن يثبت صلته بالفراعنة، وسحنة المكسيكي مختلفة تماماً عن سحنة المصري. كذلك لم يثبت أنهم قبائل تترية أو مغولية هربت من برد آسيا ولجأت إلى المكسيك بحثاً عن الشمس. وإنما الأصح أنهم قبائل أصيلة من الهنود الحمر، الذين عاشوا منذ فجر التاريخ في أمريكا الشمالية والوسطى والجنوبية. ومعالم حضارة قبائل المايا والأزتيك والبتوتوكان وغيرها قائمة حتى الآن، كما أن معالم وجه «الهندي الأحمر» وقوامه واضحة في كل مكسيكي حتى لو كان مخلّطاً مع دم اسباني أو أمركي، تماماً مثل قبائل الإنكا في سفوح جبال الانديز بأمريكا الجنوبية، والمورمون والأباش وغيرهم في سفوح جبال روكي وغابات كندا بأمريكا الشمالية.

وكانت لقبائل الأزتيك حضارة عظيمة إلى أن جاء الاسبان وهدموها، وهزموا آخر إمبراطور لهم «كواهتموك» دون قتال حقيقي، بسبب نبوءة عراف حذر من الرجل الأبيض، وخيانة قبيلة هندية أخرى رشاها الاسبان الغزاة ببعض الماعز، واستولى الاسبان على المكسيك وسموها في البداية «اسبانيا الجديدة» واستعمروها ٣٠٠ سنة إلى أن استقلت عام ١٨٢١. وثارت المكسيك مراراً على النظام الإقطاعي، ولعلك تذكر فيلم «فيفا راباتا» وفيلم «فيفا فيللا» وهما من أشهر الثوار، وتبعهما غيرهما إلى أن نفذ الإصلاح الزراعي عام ١٩٣٤.

وتحتار في شعب يعاني من الفقر مع أنه يملك كل مقومات الغنى! وإني لأخال كل مكسيكي معوز يغني مع عمر الخيام وأم كلثوم:

هل يرضينك هذا الظمأ والماء ينساب أمامي زلال؟!

وقد تحدثت في ذلك مع مليونيرين مكسيكيين أحدهما من أصل لبناني، والثاني من أصل سوري، وكلاهما صاحب مصانع نسيج، فقالا: سبب التناقض كله هو سوء الإدارة!

ورغم ذلك كله فإن زيارة المكسيك متعة!

انجلترا

انجلترا بلد القانون غير المكتوب!
الحكم المحلي الحقيقي والمدن لا ينقصها شيء!
تاريخ انجلترا كله من خلال برج لندن!
فوز الانجليز بكأس العالم ١٩٦٦ . . مجاملة!
تصفية فرق البرازيل والأرجنتين وأوروجواي بالتحكيم!
الشباب والحمام والمرح في ميدان الطرف الأغر!
الفتاة الانجليزية وأحلى ميني جيب وأجمل السيقان!
التليفزيون البريطاني مدرسة للكرة والرياضة!
الريف الانجليزي آية في الجمال والهدوء!
ذكريات في متحف الشمع وجسر ووترلو!
الانجليز في بلادهم غير الانجليز المستعمرين!
لندن ليست شارع أوكسفورد كما يظن العرب!

في رحلتي هذه إلى انجلترا سوف أترك لك مملكتك التي تحبها وتعرف كل شبر فيها، وتتفقد سير الأحوال بها كل يوم، حتى لو أقنعت نفسك بأنك قد زرت انجلترا!! وفيما أعلم فإن مملكتك حدودها واضحة، فهي تمتد من الماربل آرش وفندق كمبرلاند بطول شارع أوكسفورد، ثم يميناً إلى بيكاديللي والطرف الأغر. وحتى منطقة محلات هارودز، لن أصفها لك، لا سيما بعد القنبلة! وبصراحة أكثر

أدعك لمشترياتك، وأحكي لك عن إنجلترا التي تعرفها!

في طريقي لإنجلترا عام ١٩٦٦ لحضور مباريات كأس العالم تزاحمت في رأسي الأفكار! شكسبير الذي قرأت زمان بحثاً يحاول تعريبه ويقول أن اسمه الأصلي «الشيخ زبير» - حاجة تضحك! - والقراصنة وعلى رأسهم مورجان وبلاك، الملكة أليصابات، كرومويل أول وآخر رئيس جمهورية، هنري الثامن وزوجاته، جيمس الثاني الذي حرّم كرة القدم لأنها تلهي الشباب عن واجباته، نيوتون وفرانسيس بيكون وديكنز وكيتس وشيللي وهويز ونيلسون ومومو ولوك وكوك ولورد بايرون وأوسكار وايلد وشو وغيرهم من أعلام الفلسفة والحرب والإستكشاف والشعر والعلم والأدب. برج لندن، وقصر باكنجهام، والهايدبارك، ومتحف الشمع، ونهر التيمز، ويمبلدون وويمبلي، مترو الأنفاق، ومسرح الأولدفيك، والريف الإنجليزي إسكس وسسكس ويوركشاير ولانكشير، ومناجم الفحم وثورة بولدوين رئيس الوزراء الإمبريالي على إدوارد الثامن، حين انتقد أوضاع عمال المناجم، ثم تخليه عن العرش من أجل مسز سمبسون!

أفكار لا حصر لها، لأن انجلترا تاريخ! وأصارحك بأني كنت مشحوناً بأفكار مبتسرة عن الإنجليز، الطغاة، المستعمرين، وكل ما عرفناه عنهم من صلف وبرود، إلى جانب كراهية خاصة لبلفور صاحب الوعد المشؤوم للصهاينة! وربما كنت حاقداً عليهم لأنهم احتلوا بلادي عام ١٨٨٣، ثم الكثير من البلاد العربية، ولأني كنت قد قرأت في شبابي عبارة تقول إن التاريخ يكتب على هوى الانجليز، لدرجة

أنهم كسبوا معارك وهمية لم يكسبوها، مثل موقعة جوتلند البحرية، ووترلو ضد نابليون، مع أن الفضل للقائد الألماني بلوخر، وانهيار التل بجنود نابليون!

قوم يستحقون التقدير!

إلا أن كل الأفكار الحاقدة تلاشت من نفسي منذ أن وطأت قدماي أرض مطار هيثرو العظيم في لندن! بكل الأدب، وبالبسمة الحلوة المريحة استقبلنا رجال الجوازات والجمارك وسائقو التاكسي وكل من قابلناهم. وكنا مجموعة تضم يوسف الشريعي مدير الفريق القومي لكرة القدم، ومحمد حسن حلمي رئيس نادي الزمالك، وعلي زيوار وحسين مذكور من معلقي التليفزيون والمذيع فهمي عمر وأنا. واستأجرنا شقة كبيرة في ريجنت بارك. ووزعنا الاختصاصات. حسين مذكور يتولى التدبير المنزلي والخزيني والمشتريات، محمد حسن حلمي يتولى الطبيخ فهو طباخ ماهر، علي زيوار يتولى الغسيل، فهمي عمر عليه عمل القهوة والشاي، ويوسف الشريعي يتولى الإشراف على عمل الشغالة التي تقوم بالتنظيف. وكانت الأكلة الرئيسية فتة بالدجاج مع الشطة والمشهيات. وكثر الزوار. الفريق عبد العزيز مصطفى وكيل الاتحاد الدولي للكرة والاتحاد المصري، المرحوم جلال قريطم رئيس رعاية الشباب، محمد عبده صالح الوحش المدرب المشهور، مجدي النحاس الصحفي ومسلك البالوعات، وصالح سليم رئيس النادي الأهلي الآن وغيرهم. وذات يوم عاد حسين مذكور مسؤول

التدبير المنزلي بمشترياته، وكان من بينها معلبات لحم محفوظ، وبالصدفة جلست أطالع ما هو مكتوب على هذه المعلبات، فإذا بها: للكلاب فقط!

أسبوع في المدن الكبرى

في ذلك الوقت كان الحدث العالمي الكبير هو مسابقة كأس العالم لكرة القدم، وكانت مجموعة إنجلترا ضعيفة، تضم أوروجواي وفرنسا والمكسيك، أما المجموعة القوية فكانت تضم البرازيل والمجر وبلغاريا والبرتغال، وتلعب في ليفربول ومانشيستر، بينما تلعب مجموعتان أخريان في برمنجهام وشيفيلد. واخترنا الكابتن محمد لطيف وأنا أن نقيم أسبوعاً في ليفربول بصفة أساسية، وأن ننتقل بين المدن الأخرى. وشاهدنا تصفية فريق البرازيل بالعنف، وظهور فريقي البرتغال وكوريا الشمالية، ونكسة فريقي أسبانيا وإيطاليا، إلا أن أهم ما لاحظناه أن هذه المدن لا ينقصها شيء، فهي على قدم المساواة مع العاصمة لندن في كل شيء، ففيها كل المرافق ومحال الاستبضاع والترويح وبنفس الجودة، وهكذا يكون الحكم المحلي دون شعارات ترفع ولا تطبق!!

وعدنا إلى لندن بعد انتهاء الدور الأول، ودعوت الكابتن لطيف لكي يقيم معنا. فالفيلا كبيرة لكنه اعتذر لارتباطه بحجز آخر، وقبل فقط الدعوة للغداء. وعندما اقتربنا من الفيلا سمعت نباحاً، وحبكت النكتة

فقلت للطيف: يبدو أن حسين مذكور اشترى لحماً محفوظاً مرة أخرى!!

برج لندن والمعالم السياحية

وفي انتظار بدء مباريات دور الثمانية بكأس العالم الكروية سنحت لنا فرصة التجوال لمشاهدة معالم لندن السياحية. بدأنا بحديقة هايدبارك الجميلة، وركن الخطابة عند الماربل آرش، حيث سمعنا خطيباً زنجياً يسب الحكومة، وشرذمة قليلة تتفرج عليه أكثر مما هي تستمع إليه. وشاهدنا تغيير الحرس في قصر بكنجهام، حيث لا ترمش عين، وتأملنا نهر التيمز بعد أن عبرنا جسر ووترلو، وتذاكرنا فيلم روبرت تايلور وفيفيان لي، وزرنا متحف الشمع لمدام تاسو وتذكرنا فيلم متحف الشمع لليونيل أنويل المرعب، الذي كان يقتل ضحاياه، ويغلفهم بالشمع ويضعهم في المتحف إلى أن انكشف أمره! وقابلنا كل الأصدقاء العرب في شارع أوكسفورد حيث قمنا ببعض المشتريات لسببين: أولهما لنشتري ما يلزمنا نحن، وثانيهما حتى لا «نرفت» من بيوتنا حين نعود إلى بلدنا! ومن هناك دلفنا إلى البيكاديللي وميدان الطرف الأغر، ثم حي اللهو «سوهو» من باب العلم بالشيء، ولا أخجل أن أقول إننا تفرجنا على النظام وسيولة المرور والالتزام من المارة والأدب من قادة السيارة، ثم هيبة العسكري الإنجليزي، ونظافة هندامه، وقوة شخصيته، ومدى احترام الناس له المستمد من احترام الناس للقانون ، مع أن إنجلترا هي بلاد القانون غير المكتوب! بلاد

دستور غير مدون إلا في الأذهان والقلوب، حيث حفره التاريخ بأحرف من نورا

واختلفنا على السهرة، ولا أدري كيف ومتى نتفق على شيء! البعض أراد أن ينفقها في ملاهي سوهو، والبعض في ناد ليلي يشدو فيه وديع الصافي وبعض المطربين العرب من الجنسين، والبعض في مسرح الأولدفيك الذي تعرض فيه الروائع على مدى سنوات متوالية! وانتهى بنا الخلاف إلى قرار بالعودة إلى المنزل والسهر مع التليفزيون الذي يعرض لقطات من المباريات، وكانت بحق من أمتع السهرات.

وفي اليوم التالي كانت زيارتنا لبرج لندن الرهيب العتيق! أقدم قلعة وقصر وسجن في أوروبا! هو عدة أبراج هائلة شيدها وليم الفاتح في نفس المكان الذي أقام فيه الأمبراطور الروماني كلوديوس ثكنات لحاميته عندما غزا بلاد الإنجليز منذ آلاف السنين. هناك تسعة عشر برجاً تناطح بعضها بعضاً. أحدها كان يحتفظ فيه هنري الأول ثم هنري الثاني من بعده بمجموعة من الحيوانات لتسلية ضيوفه، ثم أهديت المجموعة إلى حديقة الحيوان بلندن عام ١٨٣٤. وبرج الجرس كان سجناً، ومن أشهر سجنائه سير توماس مور عام ١٥٣٤ والأميرة اليزابث التي أصبحت الملكة اليزابث الأولى فيما بعد. والبرج الأبيض كانت تقيم فيه العائلة المالكة، وفيه تنازل عن العرش شارل الثاني عام ١٣٩٩ بالإكراه! وبرج الدماء الذي شهد مذابح بشعة راح ضحيتها بعض الأمراء. وبرج آخر به مجوهرات العرش البريطاني، التي تقف أمامها مذهولاً، ولا تستطيع أن تتأملها طويلاً لأن الجندي المكلف

بالحراسة يستحثك على المشي! وفي برج آخر ترسانة أسلحة مما استعملت على مر العصور. وفي ساحة الأبراج كنيسة صغيرة، بجوارها قطعة أرض صغيرة، كانت ساحة الإعدام بالبلطة، وعلى مقربة منها نقوش تشير إلى أسماء الضحايا الذين أعدموا بهذه الطريقة، ومنهم زوجات هنري الثامن آن بولين وكاترين هاورد والليدي جين جراي! وساءلت نفسي: ترى كم من السياح العرب طافوا بهذه المعالم واستروحوا هذا التاريخ؟

عودة للمباريات ورحلة بالريف!

واستؤنفت مباريات كأس العالم، وكان الإنجليزي السير ستانلي راوس رئيساً للإتحاد الدولي لكرة القدم، وهو حقيقة شخصية فذة محبوبة، وجامله المنظمون والحكام، على حساب الفرق الأخرى والعدل، حتى فازت إنجلترا بكأس العالم لأول مرة!

وصدقوني أن النية كانت مبيتة على فوز الإنجليز! كان يجب أن تقام مباراة دور الثمانية بين إنجلترا والأرجنتين في ليفربول وفقاً للبرنامج المقرر، لكن اللجنة المنظمة اجتمعت ونقلتها إلى لندن ليلعب فريق إنجلترا في ويمبلي ملعبه المفضل و«المبارك»، وتم الاتفاق على تصفية فريق البرازيل وفريق الأرجنتين وفريق أوروجواي! في الدور الأول ترك الحكم لاعب البرتغال مواريز يضرب بيليه البرازيلي العظيم ويخرجه من المباراة مصاباً لتفوز البرتغال ٣/١، وفي لندن تعهد الحكم الألماني «الجلاّد» كريتلاين بطرد رايتن كابتن الأرجنتين

لتكسب إنجلترا ١/ صفر، وفي برمنجهام تعهد الحكم الإنجليزي فيني بطرد نجمين من فريق أوروجواي لتكسب ألمانيا المباراة! ولولا هذه المؤامرة ما فازت إنجلترا بالبطولة!

وبقيت لنا أيام في لندن فاخترت أن أنفقها في الريف، وبعد جولة في يوركشاير ولانكشير وإسكس وكلها مناطق غاية في الجمال والهدوء، عرجت على ضيعة صغيرة في سسكس، وهي لا تعدو أن تكون بستان فاكهة ومشتلاً للزهور! ومن الطريف أن صاحبها ظن أني أطلب عملاً، فحاول أن يعتذر في أدب جم، لكني أفهمته أني أطلب إقامة قصيرة، بأي مقابل يطلبه. ولا أستطيع أن أعبر بالكلمات عن مدى استمتاعي بهذه الإقامة، ومدى سعادتي بصداقة هذا الرجل وأسرته.

دروس التليفزيون البريطاني!

وقد زرت انجلترا مراراً بعد ذلك لمتابعة بطولة ويمبلدون للتنس، ومسابقات التجديف الدولية في هينلي، وبطولات الفروسية وسباق الخيل في إبسوم، معرض الأناقة لغانيات المجتمع. ولكني أذكر جيداً أني قررت حضور مباريات كأس العالم الكروية بالمكسيك عام ١٩٧٠ بلندن، لأن التليفزيون البريطاني في هذا المقام مدرسة لا تبارى. فإلى جانب نقل مباراتين يومياً على الهواء، هناك برامج تمتد على مدى ساعات لعرض الأهداف في كل المباريات، ثم ندوات للخبراء في القناتين لشرح طرق اللعب، وأسباب الفوز والهزيمة، وتحليل للخطط وكل ما يريد الناقد أن يفهمه ويستوعبه من أسرار هذه اللعبة الشعبية!

أكثر من ذلك! ففي كأس العالم عام ١٩٧٤ حضرنا مباراتين في فرانكفورت بألمانيا وكانت معنا بطاقات الدخول لكل المباريات في ألمانيا، وفجأة قررنا ـ زملائي وأنا ـ أن نطير إلى لندن، لنتابعها في التليفزيون البريطاني المدرسة!

يا عزيزي القارىء العربي لا تقل إنك زرت إنجلترا! إن إنجلترا ليست أوكسفورد ستريت!!

إندونيسيا

إندونيسيا بلاد الجمال والأساطير والمتناقضات!
آخر صيحات الحضارة في جاكارتا وآخر صور التخلف في بالي!
أفاعي جاوة تبلع الأطفال ونمور بورنيو تفترس الرجال!
طبق واحد في فندق إندونيسيا الفخم يعادل مرتب الوزير!
فريق الكرة المصري يردد نشيد الله أكبر بأمر من سوكارنو!
في جزيرة بالي لا يحرق الهندوكيون الموتى فقط بل الأرامل أيضاً!
أكلنا الملوخية في بيت مصرية من دمياط في جنة اسمها بوجورا
المجاري مكشوفة في الشوارع وتتسرب إلى ترع يستحم فيها الشعب!
الجنيه الاسترليني ٨٠٠ روبية في البنك و٨ آلاف في السوق السوداء!
أيام الأسبوع في إندونيسيا بالعربي ما عدا يوم الأحد!!
١٧ تاكسي فقط في جاكارتا مملوكة لفندق واحد والبيتشا للناس!
عسل النحل في اندونيسيا بالشطة.. والكباب بالعسل!!

في سنة ١٩٦٣ وقع خلاف بين إندونيسيا واللجنة الأوليمبية الدولية أدى إلى إيقاف إندونيسيا، وكانت حركة عدم الانحياز في عنفوانها بعد مؤتمر باندونج، فكان رد الرئيس سوكارنو هو تنظيم دورة في جاكارتا على غرار الألعاب الأوليمبية، تشترك فيها دول العالم الثالث، وسماها هو نفسه «الجانيفو» من قبيل الاختصار لاسمها الطويل. ولم تعترض

اللجنة الأوليمبية الدولية نتيجة لوساطة مصرية، واشتركت مصر في الدورة ببعثة ضخمة، ضمن بعثات ٥١ دولة.

وكان استقبال البعثات في مطار جاكارتا يجل عن الوصف. فالشباب المتطوع يقف صفين بالملابس القومية ابتداء من سلم الطائرة، ينشد الأهازيج ويرحب بالضيوف وينثر عليهم الورود، والموسيقى تعزف، والبنات المثقفات يقدمن المرطبات، ويحاولن بالابتسامة الحلوة تخفيف عناء السفرة الطويلة. وخارج المطار صفوف أخرى من الشباب يقدم الفنون الشعبية بأقنعة ضخمة تمثل رؤوس النمور والأسود، تعلوها طبقة عالية من الريش. ثم يسير الموكب الفخم إلى القرية الأوليمبية، بين صفوف من الأهالي وطلبة المدارس الذين منحوا أجازة لمدة أسبوعين بمناسبة الدورة. وكان استقبال بعثة مصر حافلاً ومميزاً لسببين: أولهما علاقة الرئيس عبد الناصر بسوكارنو، وثانيهما أن بعثة فلسطين كانت ترافق البعثة المصرية، ولهذا اندمج الوفدان المصري والفلسطيني في هذا الغليان الوجداني، وشاركا في الرقص الإندونيسي بحرارة، بل علما شباب إندونيسيا الدبكة والرقص البلدي!!

تفاوت المستويات الرياضية

وبعد افتتاح جليل للدورة بدأت المباريات الرياضية في مختلف اللعبات، وسط اهتمام بالغ وشعبي بكرة القدم كالعادة. وإذ كان فريق مصر الأول يلعب في بطولة دول أفريقيا في غانا في نفس الوقت، فقد

سافر الصف الثاني إلى جاكارتا وتألق، وفاز ببطولة الدورة بالقرعة بعد أن تعادل مع كوريا الشمالية في المباراة النهائية ٢/٢. وكان قبلها قد أحرز انتصارات مدوية فهزم السعودية ١٣/ صفر ولاوس ١٥/ صفر وشيلي ٦/ صفر وأوروجواي ٥/ صفر. لكن إذا عرف السبب بطل العجب، فقد كانت فرق هذه الدول فرق أندية وجامعات وليست فرق قومية!

٣ آلاف جزيرة!

وإندونيسيا دولة كبيرة تعدادها يربو على ١٠٠ مليون نسمة، منهم زهاء ٩٠ مليون مسلم، و٤ ملايين صيني إندونيسي بالتجنس، في يدهم كل الاقتصاد والتجارة، وزهاء ٤ ملايين هندوكي في الجزر النائية مثل جزيرة بالي الساحرة، التي كان أهلها من الجنسين عرايا إلا من ورقة توت تستر العورة، وهي جزيرة أسطورية تعيش على هامش الدنيا، جمالها بلا حدود، وتقاليدها جاهلية لدرجة أنه إذا مات الرجل الهندوكي فإن جثته لا تحرق وحدها وفقاً للتقاليد، وإنما تحرق معه أرملته! والحمد لله أن هذا التقليد البشع قد توقف! وكان أصله في الديانة الهندوكية نفسها، التي تقول بأن الأرملة سوف تذهب إلى جهنم، وأن الحياة بعد زوجها حرام، ومن ثم فإن الأوفق لها أن تعجل بالنهاية، وتحرق نفسها في حفل بهيج للوداع!

وجزيرة بالي، لؤلؤة الشرق، تضم أكثر من مليوني نسمة، وهي غنية بالخضرة والماء والصدر الحسن، مصدر الدخل السياحي، حيث

تتقن الفتيات في إبراز الجسد النافر لأنه ليس عورة في عرف الهندوكية. والسياح يتهافتون على الجزيرة لانهم يشاركون في كل الحفلات فأهل بالي يتميزون بالسماحة!!

التماسيح والأفاعي والنمور!

وأثناء وجودنا في الدورة طالعنا في الصحف الانجليزية بجاكارتا أن أفعى ضخمة من نوع الأصلة ابتلعت فتى عمره ١٤ سنة، كان في إغفاءة تحت شجرة بجوار حقل أرز! أما التماسيح فهي جيوش عرمة في أنهار بالي وسومطرة، التي وجد فيها البترول بغزارة، حيث كان إنتاج الشرق الأقصى كله وقتها ٢٦ مليون طن منها ٢٠ مليون طن من سومطرة وحدها. ولهذا كان ثمن لتر البنزين ٢٠ روبية، وهو يعادل ثمن لتر الماء، لأنهم يغلونه خوفاً من التلوث! أما جزيرة بورنيو فهي في قلب خط الاستواء، ومن ثم فهي جزيرة الحيوانات المفترسة لا سيما النمور، ولعلنا لم ننس فيلم «شرق بورنيو» الذي شاهدناه في الأربعينيات، وأكد ما شاهدناه عام ١٩٦٣ على الطبيعة، حيث حرصت اللجنة المنظمة للدورة على ترتيب زيارات ممن يشاء من أعضاء الوفود لجزر بالي وسومطرة وبورنيو بصفة خاصة! الشيء العجيب أني وجدت مئات «الحضارمة» من أهل اليمن، يحتلون قسماً مسلماً من جزيرة بالي الهندوكية، كما وجدتهم في أثيوبيا وكينيا وأوغندة وتنزانيا فهل هم يونان العرب؟ على كل حال فإننا ـ المهندس أحمد الدمرداش توتي ومحمد لطيف والسفير سعد الدين متولي وأمين شعير رئيس البعثة وأنا دعينا إلى قصر في بوجور لنأكل الملوخية! سيدة القصر دمياطية

متزوجة من رجل أعمال من حضرموت حصل على الجنسية الإندونيسية، وكان لديها ببغاء دربته على عبارة: أهلاً، يا بتوع مصر!

أعاجيب «بازار سنين»!

وقد قمت بعدة جولات للتعرف على جاكارتا. المدينة واسعة جداً، كان تعدادها وقت الدورة ٣,٥ ملايين نسمة، معظم مبانيها من طابق واحد وسط حديقة صغيرة، مثل مباني كل المناطق الاستوائية، باستثناء بعض العمارات والأبراج الحديثة للفنادق والمؤسسات التجارية والاقتصادية. وفي المدينة أحياء راقية كان بعضها محرماً على المواطنين أيام الإستعمار الهولندي الذي دام ٣٥٠ سنة!

ومن أشد الأحياء زحاماً وحركة حي «بازار سنين» أي سوق الاثنين. فالأسبوع عندهم يضم ٧ أيام وهي سنين، وسلاس، وربوع، وهميس، وجمات، وسبُوت، أي الاثنين والثلاثاء والأربعاء والخميس والجمعة والسبت، ثم «مينجو» أي الأحد! وقد أثار ذلك غيظي فلماذا لا يكون الأحد هو «أحود» أو أحاد أسوة بالأيام الأخرى! ولهذا ظللت أبحث عن السر وأسأل حتى علمت أن منجو تعني الأسبوع، وأن الأحد سمي باسمه باعتباره ختام الأسبوع! والله أعلم!

وفي سوق الاثنين هذا عشرات الآلاف من وسيلة الانتقال الأولى في جاكارتا وهي «البيتشا»، وهي مقعد ذو مظلة في مقدمة دراجة ذات ثلاث عجلات يقودها سائق. وهي مختلفة عن الركشا المستعملة في مناطق أخرى بالشرق الأقصى، وتدفع أو تجر باليد. وفي جاكارتا زهاء

٢٠٠ ألف بيتشا عام ١٩٦٣، يملكها الصينيون، ويؤجرون الواحدة منها بمبلغ ٤٠٠ روبية ليكسب مستأجرها زهاء ١٠٠ روبية، هي كل دخله! وليس في جاكارتا ترام. وهناك خط أوتوبيس طولي واحد، وليس دائرياً، وسياراته قليلة، ولذلك تسهم في تخفيف الضغط سيارات الشركات والحكومة التي تنقل «بالنفر» خلسة! وفي المدينة الكبيرة ١٥ سيارة تاكسي فقط، مملوكة لفندق إندونيسيا الفاخر، ويخصصها لرواده أولاً، ثم لمن يحجز بالتليفون!

طبق واحد بمرتب وزير!

وبمناسبة فندق إندونيسيا، وهو ١٦ طابقاً، أذكر أنه خصص لإقامة رؤساء البعثات. وقد حضرت فيه أحد الاجتماعات، وتأخر الوقت فلم أستطع العودة إلى قصر الرياضة حيث يقيم الصحفيون، واضطررت لتناول العشاء في الفندق، وطلبت طبق لحم ـ بوفتيك سيراليون ـ فإذا بثمنه ١٥ ألف و٧٥٠ روبية أو ١٦ دولاراً، أي أن الفندق يحسب الدولار بمبلغ ألف روبية، مع أن الجنيه الإسترليني في البنك يساوي ٧٠٠ روبية! ويا للعجب فإن مرتب الوزير في ذاك الوقت كان ١٥ ألف روبية في الشهر، أي قطعة بوفتيك!

لكن المرتب في الواقع لا يكفي الوزير ثلاثة أيام! ويقال هناك إن المنصب الوزاري شرف، والمرتب مجرد مصروف يد، والدولة تقدم للوزير السيارات الفارهة، والمسكن الفاخر، وتهيىء له كل مطالب المعيشة المرفهة!

إلا أن الواقع كان غير ذلك! بمجرد وصولي حولت من البنك ١٠٠ جنيه استرليني بواقع ٨٠٠ روبية للجنيه. وجاءني من يقول لي: كف عن هذه السذاجة، فإن الجنيه الاسترليني في السوق السوداء يساوي ثمانية آلاف روبية!

وأشهد أن زوجتي ذهلت عندما فتحت إحدى حقائبي عند العودة فوجدتها مليئة بحقائب يد نسائية من جلد التمساح، فما أرخصها إذا كان الجنيه الاسترليني بمقام ١٠ جنيهات!

الطعام الصيني والإندونيسي!

وفي «بازار سنين» عربات منتشرة تصنع الأطعمة الشعبية الرخيصة للشعب الفقير، الذي كان يعاني الكثير بسبب ارتفاع سعر الأرز، وهم لا يستعملون الخبز على الإطلاق. والأطعمة الشعبية غريبة الشكل، رخيصة السعر، لكن قيمتها الغذائية معدومة، فهي تكاد تقيم الأود وتملأ البطون المعصوبة، لكنها لا تغذي على الإطلاق! غير أن هناك في السوق محلات ومطاعم تقدم فيها الأطعمة الصينية. وقد يكون الطعام الصيني لذيذ المذاق، ولكن عيبه أن اللحوم التي يتضمنها مقطعة إلى أجزاء صغيرة حلوة الطعم، لكنك لا تعرف هل هي لحم بقر أم خنزير أم ضفدع أم «حنش» أم فأر سمين أم سحلية، بل أخشى أن الأرجل الصغيرة تشير إلى زواحف أقل شأناً وأصغر حجماً! أما الطعام الإندونيسي فعجيب! عسل النحل يضعون فيه قرون شطة من نار!

واللحم يغمسونه في عسل أو في شربات، حتى الكباب ـ ويسمونه ساتي ـ غارق في العسل!

المرأة في إندونيسيا

وسواء في «سوق سنين» أو في الشارع أو في المكتب تلفت المرأة الإندونيسية النظر برشاقتها وجمال قوامها ونعومتها، وقد أدركت هذا بالنظر طبعاً، فليس في جسمها جرام من الشحم، أو أي نوع من أنواع التضاريس إلا ما تفرضه طبيعة الأنثى، وقلت في نفسي: سبحان الله، ناس لا يأكلون إلا الأرز ويزدادون ضموراً ونحافة، وناس يأكلون منه ملعقة واحدة فيكتنزون شحماً وبدانة!

وتذكرت قول الحكيم الألماني الذي قسم المرأة إلى ثلاثة أقسام: امرأة مجتمع، وامرأة جزيرة، وامرأة حجارة! الأولى تجذبك فتسعى إليها، والثانية تعاشرها مضطراً، والثالثة ترميها بحجارة أينما كنت وأينما كانت.

والمرأة في إندونيسيا من النوع الأول، أي امرأة مجتمع، وهي حرة وتتولى كل الأعمال، وتمارس الاختلاط المحتشم على أوسع نطاق، وتنال من القريب والغريب كل الاحترام.

الرباع الذي يأكل في مطعمين!

ومع أن قصر الصحافة كان به مطعم ممتاز يقدم طعاماً شرقياً لمن يشاء وغربياً لمن يشاء، فقد كان مباحاً للنقاد أن يتناولوا طعامهم في

مطعـم القـرية الأوليمبية، مع الـرياضيين، إذا اقتضــت ذلك ظروف المباريات.

وذات يوم تناولت عشائي هناك في المطعم الأوروبي، ولاحظت أن الرباع المصري في وزن خفيف الثقيل عامر الحنفي أنهى عشـاءه بسرعة، وتأهب للانصراف، وسألته عن السبب فقال: عشـان ألحـق المطعم الشرقي!!

كان هذا الرباع يأكل كل وجبة في المطعمين، أي ست وجبـات يومياً، ولا غرو، فهو الرجل الـذي كان في معسـكر الإعـداد للـدورة يتناول في «الفطار» ٢٥ بيضة!!

الشيخ ناصف لا يعرف القبلة!

وما أكثر الطرائف التي شاهدتهـا في إنـدونيسيا! ذات مرة ذهبنـا ـ الزميل الفاضل ناصف سليم وأنا ـ لزيارة المهندس أحمد الدمرداش توتي في غرفته بالفندق، ووجدناه يصلي جاعلاً قبلته تجاه الغرب، فلما انتهى قال له ناصف، وهو أزهري أصلاً: إنت عامل القبلة في الغرب يا باشمهندس!

وقال له توتي: نحن هنا في أقصى الشرق، والكعبة في الغـرب، وهي المقصد! إذا كنت تصلي وقبلتك في الشرق فأنت تصلي لبوذا!!

عندما غنينا بأمر سوكارنو!

أقام الرئيس سوكارنو في قصر ميرديكا ـ الحرية ـ في بوجور، على بعد ساعة من جاكارتا حفلاً ضخماً لجميع الوفود، وأصر فيه على أن يقدم كل وفد نموذجاً من الفنون الشعبية لبلاده، سواء كان رقصاً شعبياً أو غناء أو موسيقى، ووقعنا في حيص بيص، فلم نكن نحفظ شيئاً. وحاولنا الاعتذار لكن سوكارنو أصر. وقررنا أن نغني نشيد «الله أكبر»، الذي ألفه الشاعر عبد الله شمس الدين إبان العدوان الثلاثي، وتطوع المذيع سيد الغضبان بقيادة الغناء لأنه يحفظ النشيد، وتركناه يغني «صولو»، واكتفينا بترديد «الله أكبر»، مع كل الاندونيسيين الموجودين، الذين يدركون جلال العبارة، بما فيهم الرئيس سوكارنو! وكان هذا درساً لبعثاتنا الرياضية لكي تتزود ببعض الأغاني الجماعية والشعبية والقومية!

إسبـانيا

إسبانيا . . وجنون الكرة ومصارعة الثيران!
سياحة بلا حدود بين مغاني الأندلس ومباهج مايوركا!
المرأة الاسبانية تجمع محاسن المرأة العربية والأوروبية!
مزاج ناري للانسان الاسباني وبحث عن الخطر في الأعياد!
قطالونيا والباسك والأندلس تختفي في ثوب كرة القدم!
سفينة كريستوفر كولمبوس متحف عائم في برشلونة!
المشروب الشعبي في إسبانيا هو «الأرشادا» من حب العزيز!
شوارع اسبانيا مهجورة حين يلعب فريقا ريال مدريد وبرشلونة!
الرقص الاسباني حوار بالأرجل بين فحولة الرجل وأنوثة المرأة!
الفن في اسبانيا بين جويا وبيكاسو ودالي وبيزيه ملحن كارفن!
ألفاظ عربية كثيرة في اللغة الاسبانية بسبب الأندلس!

لايسعك وأنت تضع قدمك في إسبانيا لأول مرة إلا أن تسبح بفكرك في بحر التاريخ. فإسبانيا تاريخ! وقد تتداعى الأحداث الكبرى في ذهنك دون ترتيب، فالزحام لا يعرف الترتيب حتى في الأفكار والذكريات!

شريط طويل من الذكريات حافل بالمواقف والأحداث، بالمآسي والأمجاد، مر بخاطري في أولى زياراتي لإسبانيا عام ١٩٥٥، مع البعثة

المصرية في الدورة الثانية لألعاب البحر الأبيض المتوسط ببرشلونة، لأن الدورة تقام في المواتي، حيث أنفقت زهاء ثلاثة أسابيع أتاحت لي أن أتعرف على إسبانيا عن قرب، فلما تكررت الزيارات لاحظت التطور السريع القريب، والتقدم والازدهار نتيجة لتنمية حركة السياحة، حتى أصبحت إسبانيا في مقدمة دول العالم من ناحية الدخل السياحي الذي أربى على ٤ مليارات من الدولارات، حلالاً على قوم أتقنوا بيع الشمس والهواء والابتسامة!

فهذه هي مقومات الرواج السياحي الآن قبل الآثار والذكريات، حتى لو كانت رحلات كريستوفر كولمبوس، ومحاكم التفتيش في عهد فيليب وإيزابللا، التي ذهبت في التاريخ مثلاً للتنكيل والتعذيب، والأرمادا أو الأسطول الإسباني العظيم الذي دمره الإنجليز كما دمروا أسطول نابليون في الطرف الأغر، وأسطول محمد علي في نوارين، وأسطول ألمانيا في جوتلند في بحر الشمال، وكل أسطول يحاول أن ينازع الأسطول الإنجليزي في سيادة البحار، والأندلس بطرازه العربي الذي تخال معه أنك تسمع صيحة طارق بن زياد في جنده: العدو أمامكم والبحر وراءكم فأين المفر!

والرقص الإسباني وطابعه المنقطع النظير في العالم كله، ومصارعة الثيران التي تنفرد بها إسبانيا والبلاد التي كانت تستعمرها مئات السنين، إلى الحرب الأهلية التي عصفت بالبلاد في الثلاثينيات وكانت تؤججها الشيوعية الروسية من جانب والنازية الألمانية من جانب آخر، لتجعل من إسبانيا حقلاً لتجارب فتك السلاح، إلى الشرارات التي تنطلق حيناً

من قطالـونيا وحينـاً آخـر من الباسـك محاولـة أن تعلن الإنفصـال والإستقلال، إلى كرة القدم بما لها من شعبية جارفة تتخفى في طياتها الحركات الإنفصالية بين مختلف الأقاليم!!

في سفينة كولمبوس

كنت أقيـم ببرشلونة في شارع «سان خايمه» ـ هكـذا ينطقون «سان جيمس»! ـ بوسط المدينة، وركبت الترام الخالي إلى الميناء، من خلال شارع عظيم عريض ظليل إسمه رامبلاس، على جانبيه محلات تجارية وعلب لهو لا نهاية لها، وتتوسطه أشجار باسقة، وفي نهايته مرسى خاص لمتحف عائم هو «سفينـة كريستوفـر كولمبـوس»، المستكشف العظيم، ودفعت في تذكرة الدخول زهاء مائـة «بيزتـة»، وبدأت أتجول في السفينة التي اكتشفـت العالـم الغربـي، وأطلقـت لتفكيري العنان، وأنا أمر بقمرة البحار الكبير، وأرى الجرة التي كان يشرب منها الماء، والدن التي كان يعب منها الخمر، وأتخيلـه وهـو يمسح عرقه ويصدر أوامره، وأكاد أسمع صوت السياط وأنين العبيد من المجدفين وصياح الجلادين، عندما دلفت إلى الطابق السفلي، حيث كانوا يسامون العذاب، ويتساقطون كأنهم قرابين اكتشاف جديد!!

جنون كرة القدم

ولا أدري السر في زيارة كريستوفر كولمبـوس كلما عرجـت علـى برشلونة، إلا أن يكون ذلك نتيجة جاذبية لرائحة التاريخ، وما اكتنف

رحلات الإستكشاف الكبرى من قصص ومغامرات، ولكني أيضاً أحببت التجول في شارع الرامبلاس، لأرشف قدحاً من «الأرشادا» البارد، وهو عصير حب الفريز، أو أستمتع بوجبة من السمك والأحياء البحرية الشهية، التي يطلبها الزبون بالإشارة وإن كان الإسبان قد تطوروا الآن، وأصبحوا يتحدثون الانجليزية والفرنسية والألمانية، بعد الإنطلاقة السياحية، وبعد أن كانوا لا يتحدثون إلا الإسبانية.

ولم أنس بطبيعة الحال المرور بنادي برشلونة الكروي العظيم، أغنى أندية العالم، الذي اشترى النجم الأرجنتيني مارادونا عام ١٩٨٢ بمبلغ ٨ ملايين دولار، وقد جلست ذات مرة أتفرج على التدريب فإذا بزهاء ٧٠ ألف مشاهد يتابعونه! وصحيح أن الإسبان مجانين كرة قدم، ولكني اكتشفت أن المنافسة الرهيبة بين ناديي برشلونة وريال مدريد ليست كالمنافسة بين الأهلي والزمالك في مصر، أو الاتحاد والأهلي في جدة، أو النصر والهلال في الرياض، أو العربي والقادسية في الكويت، وإنما هي تخفي التطلعات السياسية والإنفصالية لقطالونيا التي يمثلها نادي برشلونة! وهو نفس موقف إشبيلية ممثلة الأندلس، وسان سباستيان ممثلة الباسك في الشمال، من ريال مدريد.

مصارعة الثيران.. الجنون الأعظم!

وما كان ليفوتني أن أتفرج على مصارعة الثيران، أو الجنون الأعظم في إسبانيا، ولعلك شاهدت فيلم «دماء ورمال» الذي أجاد تصوير هذه الرياضة، ومثله تيرون باور وريتا هيوارث وأنتوني كوين حين كان ممثلاً

صاعداً، لكني في الواقع لم أكرر الفرجة بسبب الإشمئزاز، رغم أني دعيت ذات مرة لمشاهدة أعظم مصارع في التاريخ وهو «الكوردوبيس»، أي القرطبي، الذي كان معبود الجماهير!

الحلبة عبارة عن صالة مكشوفة تسع ٢٠ الف مشاهد على الأقل، كلهم يذهبون في أحسن هندام، كأن اليوم عيد، وتتوسط الحلبة مقاصير يحتلها الكبراء والنقاد والغانيات الحسان. ويبدأ موكب المصارعين في الدخول للقيام بدورة تحية قبل بدء الطعان، وكلهم في أروع بزة، ويعودون إلى الداخل، ثم يعلن النفير عن بدء الصراع، فينفتح باب خشبي ضخم، وينطلق ثور هائج من الحظيرة، يلف في الحلبة والشرر ينطلق من عينيه، ولا يلبث أن يدخل حملة البنادير الحمراء - الباندير يللوز - فيشاغلونه، ويشاغبونه، ويتفادون نطحات قرنه الحامي برشاقة، متحملاً بعض الطعنات لأن البنادير تخفي في طياتها سهاماً وسيوفاً بتارة!

ويهل موكب آخر من الفرسان، على خيول مدرعة مطهمة، وفي أيديهم سيوف طويلة مشرعة وسهام طويلة، واسمهم «البيكادورز»، ومهمتهم وخز الثور الهائج بالسيوف والسهام، حتى يغرق رمال الحلبة بالدماء، فإذا انفرد بأحدهم في ركن، بادر الآخرون إلى نجدة زميلهم، مستعملين اللون الأحمر دائماً لجذب إنتباه الثور إليهم، وبعد عملية التعذيب هذه تخور قوى الحيوان، ويقف الملعب على أطراف أصابعه، ثم ينفجر في تحية كالرعد للمصارع - الماتادور - الذي يرد التحية، ويضع سيفه تحت الحرملة الحمراء، ويقترب من الثور

متحدياً، فيهاجم الثور الحرملة، ويتفاداه الماتادور ببراعة، وسط صياح جنوني، ثم يتقدم إلى إحدى المقاصير ويرمي قبعته لكبير أو حسناء، ويتخذ وضع الإجهاز، ويتحدى الثور الخائر القوى لكي يتقدم، ويواجهه ويغرس السيف في مقتل، فينهار الحيوان تحت وطأة ظلم الإنسان!

والماتادور البارع هو الذي يصرع الثور من أول طعنة، وإلا تعرض هو للقتل بقرن الثور الذي يبقر بطنه! وهناك مظاهر استنكار جماعي إذا فشل الماتادور في الإجهاز على الثور من أول طعنة، هو إلقاء الوسائد التي يجلس عليها المتفرجون في المدرجات إلى أرض الحلبة، فهذه أبلغ إهانة لمصارع الثيران!

لكني أستروح مسحة من الدموية في حب الإسبان للثيران! ذلك أنهم في واحد من أكبر أعيادهم يطلقون هذه الثيران الوحشية من حظائرها، لتجري على غير هدى في شوارع المدن وحواريها وأزقتها، ناطحة بقرونها الماضية كل شيء! ومن عجب أن الشباب والكهول وكل الأهالي لا يختبئون منها، وإنما يجرون أمامها ووراءها، ويعرضون أنفسهم للتهلكة. وهكذا تنتهي «الكوريدا» ـ حفلة المصارعة ـ في الحلبة بقتيل واحد هو الثور أو الماتادور، أما إذا انتقلت إلى الشارع في هذا الاحتفال العجيب بالعيد، فإن الضحايا قد يبلغون العشرات والمئات بين جريح وقتيل!

الحب على الطريقة الإسبانية

وإذا كان الرقص الإسباني، الفريد في بابه، حواراً بالأيدي والأرجل والإيقاع بين أنوثة المرأة وفحولة الرجل، فإن الحب على الطريقة الإسبانية آية في الرومانتيكية. وكثيراً ما تصادف في الهزيع الأخيرمن الليل، بعد أن استسلم أهل الدار للنوم، عاشقاً مدنفاً استأجر فرقة موسيقية يصاحبها مطرب يغني ما يشبه المواويل أو «الماجناه»، فيما يقف هو تحت الشرفة يناجي حبيبته، التي قد تسترق لحظة لتطل عليه، وترسل له قبلة في الهواء، ثم تقفل راجعة على عجل قبل أن يستيقظ أهل الدار!

صورة ساذجة من الحب العذري، الذي لم يعد له وجود في أوروبا والعالم الغربي إلا في إسبانيا، كتراث أندلسي عربي!

المرأة الإسبانية

وإذا كانت الفتاة الإسبانية متحفظة بالقياس إلى الفتاة الأوروبية فإن المرأة المتزوجة شديدة الإخلاص للزوج، تقدس الحياة الزوجية، وهي على كل حال تجمع بين بشرة المرأة الأوروبية وكثيرمن الملامح العربية نتيجة للوجود العربي الذي طال مئات السنين، لا سيما في الأندلس، وخاصة من حيث القوام الملفوف في غير اكتناز، والشعر الفاحم، والعيون الكحيلة كعيون المها، ثم الأنوثة الطاغية!

وتبدو هذه الملامح بجلاء في نساء قادس وإشبيلية وغرناطة وقرطبة وغيرها من حواضر الأندلس، الذي يتميز بالحفاظ على الطراز العربي

يـ ميادينه ومبانيه ومغانيه وخضرته الزاهية بفضل عدد من الأنهار أهمها الـجوادي يانا»، أي الوادي اليانع. وهناك كثير من الألفاظ العربية في لـلغة الإسبانية سواء بقيت كما هي مثل الزيتون والسكر والبركة - أي لـمسيح - أو حرفت!

الفن والفكر في إسبانيا

وللفن والفكر في إسبانيا مكانة محفوظة في الفن العالمي، وهناك ـن الأعمال الإسبانية والأندلسية ما كتب له الخلود، مثل رواية «دون كيشوت» لسيرفانتس، و«تهافت الفلاسفة» لابن رشد، ولوحات فرانشيسكو جويا الكلاسيكية، وبيكاسو التكعيبية، وسلفادور دالي السيريالية، وأشعار لوركا العالمية، وألحان بيزيه لا سيما في أوبرا كارمن الشهيرة، وكل ذلك وغيره نتيجة تفاعل كبير مع المجتمع العالمي، وخاصة بعد الإستكشافات والترحال والغنى والسؤدد الذي دان للإسبان فترات طويلة.

بين الأندلس ومايوركا!

ورغم التقدم الصناعي والزراعي المطرد في إسبانيا، فقد أصبحت لسياحة هي المصدر الرئيسي للدخل القومي، نتيجة لتخطيط سليم، تقوم على إطلاق الحرية للسائح، وتوفير وسائل الإقامة لكل المستويات بعدم الإكتفاء بالفنادق الباذخة، وإنما إقامة موتيلات تسمح بعدم إرهاق

ذوي الدخل المحدود، وهم غالبية السياح الآن، إلى جانب النظافة وبيع الإبتسامة، وإحكام الرقابة منعاً للإبتزاز. وتتبارى المـدن في التجمل استعداداً لاستقبال السياح، ففي الميادين تماثيل ونافورات، وأذكر أن في برشلونة نافورة ضخمة تنطلق منها ثماني طبقات من المياه الملونة تجعلها تحفة للناظرين.

وفي بالما دي مايوركا وجزر البليار شواطىء رملية جميلة يحيطبها النخيل، وتلفها الخضرة، وتحلق فوقها في الجبل بيوت بيضاء كأنهـا أوكار نسور. وترى «التيفولي» أو مدينة الملاهي في كل مدن إسبـانيا، وكذلك المراقص والمشارب والمقاصف، حتى يجد السائح ما يشغلـه ليل نهار إذا أراد، فلا يشعر بالضجر قط، سواء جاء سائحاً ليستمتـع بمباهـج الصيف والشاطـىء، أو ليتأمـل الحياة الإسبـانية والحضـارة الأندلسية.

المـدن المهجـورة!

وإذا كان حب كرة القدم في دم الإسبان فإن يوم لقاء ريال مدريد وبرشلونة يوم مشهود، تبدو فيه شوارع المدن خالية من المارة كأنهـا مدن مهجورة، ليس فقط لأنهما يمثلان إسبانيا وقطالونيا، وإنما أيضاً لأنهما يتنازعان زعامة الكرة الإسبانية.

وإذا كانت قطالونيا تلتف حول فريقها برشلونة فإن إسبانيا لا تنسى

العصر الذهبي لريال مدريد الذي رفعها إلى سماء أوروبا الكروية، حين فاز ببطولة أندية أوروبا في المدة من ١٩٥٦ إلى ١٩٦٠، أي خمس سنوات على التوالي، بقيادة المايسترو دي ستيفانو وبوشكاش وخنتو وسانتا ماريا. إن ريال مدريد، وإسبانيا كلها تعيش الآن على هذا المجد الذي أصبح ذكرى عطرة!

ذكرى عطرة مثل ذكرى الأندلس!!

ساحل العاج

ساحل العاج . بلاد الأدغال والأفيال!
أول رئيس في العالم يتجدد انتخابه ٦ مرات!
أبيدجان العاصمة النظيفة. باريس الصغيرة!
ذهب خرافي وتقاليد عجيبة في جنازة ملك قبيلة!
كل المواليد باسم جلالة الملك في ليلة دفنه!
لماذا لا يدفن الملك إلا بعد شهور من وفاته!
هل راح الفريق الكروي المصري ضحية طقس لا يطاق؟
حكاية سيدة سمينة . أكلها خلاف سياسي!!

تعد ساحل العاج من أجمل بلاد أفريقيا. وهي تقع على الساحل الشمالي لخليج غينيا، وتحدها شمالاً فولتا العليا ومالي، وغرباً ليبيريا وسيراليون وغينيا، وشرقاً غانا، وجنوباً خليج غينيا. الدولة الصغيرة مساحتها ٣٢٢ ألف كليومتر مربع، وتعدادها ٨ ملايين نسمة. والعاصمة «أبيدجان» تحفة في جمالها ونظافتها، حتى أطلق عليها لقب «باريس الصغيرة».

غاباتها كثيفة جداً، فهي تقع شمال خط الاستواء مباشرة، وتنتهي الغابة بمعناها المخيف إلى منطقة أدغال وأعشاب طويلة، سافانا، هي مكمن الأفيال والحيوانات المفترسة والأفاعي الرهيبة من نوع البوا والبابثيون والأصلة. ثرواتها زراعية، فأهم المحصولات هي البن

والكاكاو والفواكه الاستوائية، إلى جانب الأخشاب والجلود والعاج من أنيـاب الأفيـال، التي تشتهر بها، ولدرجة أن فريقها الكـروي القومي اسمه «أفيال ساحل العاج» كعادة الطفولة الأفريقية في تسمية الفريق، ففريق غينيا اسمه «الأفيال» أيضاً ولكن بلغة السواحيلي أي «سيلي»، وفريق نيجيريا «النسور الخضر»، وفريق الكاميـرون «الأسود» وفـريق زائـير «الفهود»، وفـريق الجابـون «مـازيمبي» ـ أي التمـاسيـح! شيء رهيب!

بلاد الأفيال والإستقرار

عندما رسا عندها كبار المستكشفين في القرون الوسطى أسموهـا ساحـل العاج، لكثرة ما شهـدوا من أفيال، كمـا أسمـوا غانـا ساحـل الذهب عندما شاهدوا كثرة عروقه في الجبال. ولكنها ليست بلاد الأفيال فقط، وإنما هي بلاد الإستقرار!

ومن أسف أن من هواياتي «حفظ» أسماء رؤساء الدول في العالم كله، ولكني أعاني من كثرة الإنقلابات العسكرية في أفـريقياوأمريكا اللاتينية! لقد استقلت معظم البلاد الأفريقية عام ١٩٦٠ فتوالت عليها الإنقلابات العسكرية بشكل رهيب، ومـا من حكم عسـكري يحقـق رخـاء للبلاد!! لكـن دولتين اثنتين في أفريقيا السـوداء عرفتـا معنـى الإستقرار، أولاهما ساحل العـاج لأن رئيسهـا فيليكس هوفييه بوانيي تولى رئاسـة الحـزب الديمقراطـي الأفريقـي عام ١٩٤٥، ثم رئاسـة الجمهورية عقب الإستقلال عام ١٩٦٠، وظل رئيساً للآن، فقد تجدد انتخابه للرئاسة ٦ مرات، وهو رقم قياسي عالمي! إمسك الخشب!

ولا شك أن أحداً لا يطاول الرئيس بوانيي، سوى الرئيس الجنرال أياديما رئيس توجو الصغيرة المجاورة لها، والذي تجدد انتخابه ٥ مرات، ما شاء الله.

بطريقة ودنك فين يا جحا!

تأخرت زيارتي لساحل العاج إلى عام ١٩٨٣. كان على فريق المقاولين العرب أن يلعب مع فريق «أفريكا سبور» بطل الكأس، في بطولة أفريقيا للأندية لأبطال الكأس. سافرنا إلى باريس أولاً، ثم إلى دكار في السنغال، وساحل العاج، بطريقة «ودنك فين يا جحا»، حيث أشار بيده اليمنى على أذنه اليسرى!! ومرة أخرى، لكن مجرد عبور، مع المقاولين العرب أيضاً، حين لعبوا مع «أجانرا» بطل توجو عام ١٩٨٣. فقد سافرنا إلى مدريد، فلاس بالماس، فوكاد، فكوناكري عاصمة غينيا فأبيدجان ثم لومي عاصمة توجو، وكانت العودة بنفس الطريق، لكني في مثل هذه الحالات أتخلف حينما أريد، لاستكمال الدراسة!

«جنود» الكرة لا يرون شيئاً!

وفي مارس ١٩٨٤ نظمت ساحل العاج بطولة دول أفريقيا لكرة القدم، التي بدأت عام ١٩٥٧، لتقام كل سنتين، الفريق القومي المصري اتخذ الطريق القصير، وليس طريق جحا، فسافر إلى لاجوس

عاصمة نيجيريا ومنها إلى أبيدجـان، والحمـد لله أنـه لم تكن هنـاك إنقلابات! حتـى الإنقـلاب العسـكري النيجيري ضد الـرئيس شيهـو شيجاري كان قد إستقر! وعلى فكرة، فإن شيهـو شيجـاري معناهـا: الشيخ الشجرة!

ذهبنا يحدونا أمل كبير في إحراز البطولة، التي لم نحرزها منذ عام ١٩٥٩. وهزمنا الكاميرون وساحل العاج وتعادلنا مع توجو، وأحرزنا بطولة المجموعـة، ثم خسرنـا في الـدور قبـل النهائـي أمـام نيجيريا بضربات الترجيح من نقطة الجزاء ٨/٧، في ظل أوضاع درامية قاسية! نجوم الكرة مساكين، فهم لا يرون شيئاً (هم جنـود من الفنـدق إلـى الملعب وبالعكس)! أما الصحفيون فلديهم حرية الحـركة، وفرصـة المعرفة!

أعجب جنازة في التاريخ!

وفي مدينة بواكيه ثانية مدن ساحل العاج، وهـي تقـع في الوسـط وتطل من جهة على الأدغال والغابات الكثيفة، ومن جهة أخرى على منطقة الأحراش والسافانا، دعاني صديق عاجي لمشاهدة جنازة ملك إحدى القبائل الكبيرة، حيث عشت لحظات لا تفارق مخيلتي!

في الطريق قال لي الصديق أن الملك توفي منذ ٦ أشهر، إلا أنه لم يدفن حتى تلك اللحظة، إنتظاراً لجمع المحصول، لكي تتاح لرعاياه من أفراد اقبيلة فرصة تقديم الهدايا المناسبة، واللائقة بمقام جلالته!

وسألته عما إذا كان من الضروري أن أقدم هدية، فقال: لا عليك، لأنك أجنبي.

ووصلنا إلى «حلة» القبيلة، أو مجموعة الأكواخ التي تسكنها على مشارف الغابة، ودخلنا إلى الكوخ الملكي، ووجدنا جلالة الملك الراحل مسجى على فراشه، بملابسه كاملة ووجهه مدهون بالشمع كأنه محنط، وفي ذراعيه قفاز طويل أبيض، وتحيط بالفراش بعض زوجاته وأولاده، وعلى الجدران كمية خرافية من الذهب والمشغولات الذهبية، من الحلى وغيرها.

وسواء لأن التقاليد تقضي بذلك، أو لأن الميت لا يجوز أن يظل دون دفن لمدة ٦ أشهر انتظاراً لجمع المحصول، ولو كان ذلك وسط الغابة الأفريقية، فإن كل من يتقدم للعزاء كان عليه أن يحكي حكاية! كل الحكايات تدور على أنه لم يسمع بوفاة الملك إلا اليوم أو أمس، فحزن أشد الحزن، وهرع لتقديم واجب العزاء! ويروي المعزِّي حكايته، ثم يقدم هديته، ويخرج من الكوخ لينتظر في الساحة!!

كل المواليد بإسم جلالته!

وبعد انتهاء العزاء تجري مراسم دفن الملك، ويدفن معه كل الذهب، وإن كان يستعاد فيما بعد، ثم يبدأ الحفل الكبير: حفل الوداع! تنشق الأرض عن مئات من صناديق علب وزجاجات البيرة، والخمور المصنوعة محلياً من كل المحاصيل، ويبدأ الرقص الصاخب، على أنغام الموسيقى البدائية وطبول التام تام! ويستمر

الحفل إلى الصباح، ويختلط الحابل بالنابل، فالجميع في حالة سكر بيّن، وتنطلق من عقالها شياطين الجنس، وتسيطر الفوضى! وحاولت مراراً أن أنسحب، لكــن هيهات! صديقي تاه. جروني للرقص بالإكراه . رقصت أي كلام، لاسيا كلما لمحت الأسنان الحادة البيضاء تلمع في الظلام! وكلما اقتربت مني فتاة اصطنعت حالة إغماء!

ونتيجة لهذه الفوضى والإباحية فإن كل المواليد الذين يولدون بعد دفن الملك بتسعة أشهر يحملـون إسـم جلالتـه، لأن الأب بالقطـع مجهول!! القبيلة على كل حال لا تلام، لأنها في حالة الجاهلية، أو الوثنية، أو اللادينية!

موقفي كان يصعب علـى الكافـر. لا أستـطيع المشـاركة في هذا العبث، ولا أستطيع النوم، ولا أستـطيع البحـث عن صديقـي الـذي ضاع! انتحيت جانباً من الساحـة، وأخلـدت إلـى النـوم في وضـع القرفصاء. ووجدني صديقي عندما أفاق، وأيقظني، وقال لي: أمامنا مشوار في حلة قريبة، وبعدها نعود إلى أبيدجان!

قلت له كما يقول الإخوة في لبنان: يُخـرب بيتـك، عد بي إلـى القاهرة!

أكلوها . . بسبب خلاف حزبي!

قال لي: أنا مكلف بتحقيق مسألة هامة. تعال معي، أرجوك.

ذهبت معه إلى قرية صغيرة، قرب بواكيه. اللغة الرسمية للدولة هي

الفرنسية، لكن أحداً في هذه القرية لا يعرف الفرنسية. حاول صديقي أن يكلمهم بلغة محلية فلم يفهموا حرفاً، فلكل قبيلة لغتها الخاصة، والقبائل بالعشرات، ولغة السواحيلي المنتشرة في أفريقيا غير منتشرة في ساحل العاج. ذهبنا إلى المدرسة الإلزامية، ووجدنا المدرس، الذي كنا في الواقع نبحث عنه!

قال: جاءني ذات يوم شخص معارض للحكومة، يريد ترشيح نفسه للبرلمان، ساعدته، ونجح. لكنه بعد فترة استجاب للإغراءات، وانضم لحزب الحكومة، انتهت مدته البرلمانية، وأراد إعادة ترشيح نفسه، لكنه وجد أن زوجته قد اختفت نهائياً.

أخطرني بأنه قادم لعمل الدعاية الإنتخابية، والإستعلام عن مصير زوجته، وكانت سيدة بدينة، استقبلته بكل الترحاب فهو صديق قديم، لكني عاتبته على التحول من معارض إلى مؤيد، مع أني ساعدته على النجاح في البرلمان كمعارض، فقال لي: أنا الذي يجب أن يعاتبك! كان يجب أن تحاسبوني أنا، فما ذنب زوجتي؟ لقد علمت أنكم أكلتموها، إنتقاماً مني، لتحولي من معارض إلى مؤيد للحكومة! بل إني أعاتبك أنت بالذات لأنك أكلت منها: شرفاً لم آكل سوى أصابعها، وبالإكراه، وبعد حرج شديد!

أصبت أنا بالغثيان، وقال صديقي: لهذا جئت، وسوف أرفع تقريراً للحكومة إننا نستنكر مثل هذه الإجراءات، ونحارب أكل لحم البشر، ونؤيد حرية الرأي! وفي السياسة متغيرات كثيرة، والرجل الذي تحول

من معارض إلى مؤيد قد تكون لديه أسباب! المفروض أن نسائله وليس أن نأكل زوجته!

طقس لا يسمح باللعب!

نعود للرياضة، ونتساءل لماذا خسر المقاولون أمام أفريكا سبور صفر/ ٢ في أبيدجان، ثم فازوا ٣/ صفر في القاهرة؟ ولماذا خسر الفريق القومي المصري البطولة الأفريقية وعاد بالمركز الرابع **فقط**؟

باختصار شديد: أن تكون درجة الحرارة ٤٠ مئوية في الظل، ودرجة الرطوبة فوق ١٠٠٪، فإن معناه أن تفقد أنفاسك، إذا سرت في الشارع بضع خطوات! فما بالك باللاعب الذي يجري ٩٠ دقيقة بلا هوادة، قد تمتد إلى ١٢٠ دقيقة في حال التعادل؟

أمنيتي أن يصل الناقد الرياضي العربي إلى درجة الإحساس بمعاناة اللاعب أو الفريق الذي ينقده، وأن يقدّر أن هذا اللاعب أو ذاك الفريق هو أحرص الناس على الفوز، لما ينطوي عليه من إرضاء للكبرياء القومية من جهة، ومكاسب مادية وأدبية كبيرة له شخصياً من جهة أخرى!

أما العبد لله، فيحمد الله على النجاة!

فنلندة

فنلندة بلاد الجليد والغابات والبحيرات!
الخشب لرصف الشوارع والشمس في منتصف الليل!
أول ظهور للاتحاد السوفييتي في الألعاب الأوليمبية!
ماذا قالت شقيقة فاروق عندما قامت الثورة؟!
الفنطوي يسجل خمسة أهداف في مرمى فريق شيلي!
أغرب المباريات وأعجب النوادر في دورة هلسنكي!
رمي الرمح هو اللعبة الشعبية الأولى في فنلندة!
كيف دعوت القاطرة البشرية زاتوبيك لزيارة مصر؟
لماذا لم يستطع بطلنا في الوثب بالزانة أن يتدرب؟
نكتة لرئيس الاتحاد الدولي حول فريق مصر الكروي!

ترتبط زيارتي الأولى لفنلندة عام ١٩٥٢ بذكريات تحتل خيالي ولا تريم. فقد عايشت الدورات الأوليمبية لأول مرة، وعرفت دور الألعاب الأوليمبية بوصفها أعظم حركة سلمية في العالم، وقيمتها كمقياس للقدرات البشرية والتفوق الرياضي. ورأيت إسكندناوة لأول مرة أيضاً وانبهرت بمشاهدها الطبيعية الفريدة في نوعها. وعاشرت لمدة طويلة شعباً طيب المعشر رقيق الحاشية، لا يدخر وسعاً في سبيل توفير وسائل الراحة والترويح لضيوفه من جميع أرجاء البسيطة، دون تفرقة

بسبب الجنس أو اللون أو الدين. وعرفت وشاهدت وصادقت نجوماً كنت أحلم بهم أمثال نورمي عدّاء القرن العشرين الفنلندي، وزاتوبيك التشيكي أو القاطرة البشرية، وبوب ماتيـاس الأمريكي بطل العشاري، وبوشكاش نجم الكرة العالمي المجري وغيرهم من الأبطال الخالدين.

شمس منتصف الليل

ذهبت إلى هلسنكي بوصفي إدارياً لفريق مصر في ألعاب القوى، ولذلك أقمت وسط الأبطال في القرية الأوليمبية، التي كانت عشـرات العمارات النمطية، لتكون مساكن شعبية عقب الدورة. وكانت فنلندة نفسها مدار الحديث، لأنه كان عجيباً أن تقدم دولة صغيرة على تنظيم هذا التجمع الشبابي العالمي.

ففنلندة مساحتها ٣٣٧ ألف كيلومتر مربع، وتعدادها زهاء خمسة ملايين نسمة، وتعداد العاصمة هلسنكي زهاء نصف مليون. وطبيعة البلاد ساحرة، فأرضها عبارة عن تربة بركانية جبلية، معظمها بحيرات في المناطق المنخفضة، تحيط بها غابات كثيفة، تتخللهـا مساحـات قليلة قابلة للزراعة. لوحة جميلة كما بدت لي في الصيف، وإن كانت تتحول في الشتاء إلى كتلة واحدة من الجليد!

وقد أتـاح لي تنـظيم بعض المسابقـات والمبـاريات في مختلف المدن أن أتجول في فنلندة طولاً وعرضاً، وأن أستمتع بمناظـر كنـت أعتقد أنه لا مثيل لها في العالم إلى أن زرت السويد والنرويج!

ولكني في الليلة الأولى لم أذق طعم النوم، فقد ظلت الشمس طالعة إلى ما بعد منتصف الليل، وأخيراً لاحظت أن النافذة عليها ستارة سوداء، فلما أرخيتها أظلمت الغرفة، ومع ذلك استبد بي الأرق، لأني شعرت بأني أضحك على نفسي، وبأن هذا الظلام صناعي وبأن الشمس ما زالت في كبد السماء!

وعلمت أن الشمس تظل طالعة في الشمال إلى الفجر، ولا تغيب سوى دقائق معدودات، فالليل الحقيقي لا يتعدى ٣٠ دقيقة. وأن العكس يحدث في الشتاء، حيث لا تظهر الشمس، ويسود الليل عدة أشهر!

الخشب لرصف الشوارع!

والبحيرات الفنلندية تعد بالآلاف، وهي تمتلىء دائماً من ذوبان الثلوج، وكلها محاطة بغابات كثيفة من الصنوبر والسنديان والبلوط والأشجار المتينة، التي تكون ثروة خشبية هائلة. ومن انحدار المياه من الجبال تتولد طاقة كهربائية كبيرة تستغل في الصناعة، ولاسيا صناعة الورق التي تتميز بها فنلندة. والخشب كثير لدرجة أن بعض شوارع هلسنكي مرصوفة به، بدلاً من الأسفلت!

ورغم كثافة الغابات فإن مساحات صغيرة تتخللها تسمح بزراعة بعض الحبوب كالشعير والشيلم والشوفان، والمراعي للابقار من أجل صناعة مستخرجات الألبان بصفة خاصة.

الرياضة الشعبية: رمي الرمح!

وفي القرية الأوليمبية عرفت إداري فريق فنلندة لألعاب القوى، وهو طبيب شاب وثري، يهوى الصيد والقنص. وقد دعاني لرحلة صيد لا أنساها ما حييت. وصلنا إلى الغابة وفتح كوخاً صغيراً جميلاً يملكه، تحيط به جنة من الخضرة والزهور، وبه كل مستلزمات المعيشة، وأمامه مرسى به «لنش» مجهز بأدوات صيد السمك، وبندقية للقنص، وبعد بضع ساعات من المتعة الصافية، خرجنا بصيد وفير من السمك وأرنبين بريين ضربناهما من اللنش، واكتفينا وخرجنا من البحيرة وشوينا أمتع شواء في أحضان الطبيعة!

ولفت نظري أن أمام الكوخ منطقة خُضرة وأعشاب كبيرة، وأن بعض الشبان من الجنسين يتسلون برمي الرمح، ثم انتزاعه، ثم رميه ثانية. ولما سألت الصديق الطبيب عن هذه الظاهرة قال لي: الرمح هو لعبتنا الشعبية الأولى. وأنتم لم تحسوا لوعة شعبنا عندما فاز يونج الأمريكي ببطولة الرمح للرجال، ودانا زاتوبيكوفا التشيكية ببطولة الرمح للآنسات في الدورة! لقد كانت هذه طعنة أدخلت الحزن في قلب كل فنلندي!

قلت: يا أخي لا عليك! إن لعبتنا الشعبية، بل لعبة كل العرب هي كرة القدم، ولو أننا اعتبرنا كل هزيمة فيها طعنة لأثخنت أجسامنا بجراح لا تندمل!!

أخت فاروق.. والثورة!

وفي يوم ٢٣ يوليو من العام ١٩٥٢ كانت ألعاب القوى في الدورة قد انتهت، وتفرغت لمشاهدة الألعاب الأخرى ومعالم فنلندة. وحسب موعد مسبق كنت في الصباح الباكر في أحد فنادق هلسنكي حيث يقيم الدكتور نور الدين طراف ويوسف الشريعي والدبلوماسي فؤاد صادق، وكلاهما نجم كروي سابق وصديق قديم، لكي نخرج في نزهة إلى شمال فنلندة، وكان فؤاد صادق يصحب معه زوجته الأميرة فائقة، أخت الملك فاروق! والمجموعة كانت في رحلة سياحية مواكبة للدورة.

وفي انتظار نزولهم جلست في بهو الفندق، وجاءني رجل الإستقبال يقول: عندي خبر مزعج، أرجو أن لا تسمعه أخت الملك. قلت: ما هو؟ قال: حدث انقلاب عسكري في مصر!

انزعجت، وخشيت أن يكون إنقلاباً دموياً! وإن هي إلا دقائق حتى نزل الأصدقاء، وأشرت إلى الشريعي لكي أهمس له بالخبر، فإذا به يقول لي: سمعناه من الإذاعة البريطانية! وعقبت الأميرة فائقة قائلة: أحسن، ياما نصحناه!!

وكان طبيعياً أن نلغي الرحلة، وأن نجلس إلى الراديو. ولم يتبدد القلق إلا عندما عرفنا أن الشعب احتضن الإنقلاب، الذي جاء تعبيراً عن إرادته وحوله إلى ثورة بيضاء!

نوادر وطرائف من الدورة

● كان اشتراك السوفييت أول ظهور لهم في الدورات الأوليمبية بعد انطواء وراء الستار الحديدي زهاء نصف قرن، للاستعداد، ولاستغلال التفوق الرياضي في الدعاية للنظام الشيوعي! وقد أجادوا وبهروا. وأعجبني منهم إنجازات الأنسات لا سيما تمارا بريس بطلة دفع الجلة، ونينا دومبادز ملكة قذف القرص، وكلتاهما سجلت رقماً عالمياً جديداً فذاً. وعندما قابلت نينالكي أهنئها ضغطت على يدي بشكل آلمني، حتى أن أصابعي التصقت ببعضها بعضاً! ولذلك انصرفت عن تهنئة تمارا بريس!

● كانت بعثة تشيكوسلوفاكيا صغيرة، لكنها أحرزت أربع ميداليات ذهبية نالها زوج وزوجته! الزوج هو اميل زاتوبيك القاطرة البشرية، الذي أحرز بطولة مسابقات ٥ آلاف و١٠ آلاف متر والماراتون، والزوجة هي دانا زاتوبيكوفا التي أحرزت بطولة رمي الرمح. وقد دعوتهما لزيارة مصر ـ من فرط إعجابي بهما ـ لمدة عشرة أيام. وكان وجودهما في القاهرة دعاية كبرى لألعاب القوى المصرية التي ازدهرت في تلك الفترة!

● رجال الدين عندنا يعتبرون الرياضة ـ بالنسبة لهم ـ خروجاً عن الوقار، رغم أنهم يحثون الشباب على ممارستها كوسيلة تربوية. لكن الفائز في مسابقة الوثب بالزانة كان القس الأمريكي بوب ريتشاردز، وبرقم قياسي عالمي جديد، قدره ٤,٦٥ متر. ممثل مصر في هذه المسابقة كان الدكتور جمال الشربيني، ورقمه ٣,٧٥ متر. وكان

حريصاً على التدريب، يوقظني مبكراً صباح كل يوم لكي أصطحبه إلى الملعب الملحق بالقرية الأوليمبية، لكي يتمرن. وفي كل يوم نجد الأبطال يتمرنون على ارتفاع ٤ أمتار، فنخجل أن نطلب إنقاص الإرتفاع، ونعود بدون تدريب!!

● وذات يوم كان أبطالنا في الجري يتدربون في الملعب، في نفس الوقت مع أبطال جمايكا وعلى رأسهم العملاق «وينت» صاحب الميدالية الذهبية في سباق ٨٠٠ متر. وراقب مدرب جمايكا أبطالنا، ثم جاء يقول لي وقد وقف معي مدربنا بسياكس، وهو من يونانيي الإسكندرية: أولادكم لديهم موهبة وسرعة طبيعية، لكنهم يحتاجون إلى «مدرب» يعلمهم الأوضاع السليمة للجري! وابتلع مدربنا اللطمة، وتظاهر بأنه لم يسمع!

● أثناء الدورة فاز المصري محمد نصر ـ رئيس اتحاد رفع الأثقال عام ١٩٨٤ ـ ببطولة العالم لكمال الأجسام، التي أقيمت بأمريكا، وجاء مع مدربه رأساً إلى هلسنكي، كجائزة له على فوزه، ورُتب له لقاء مع محمد طاهر باشا رئيس اللجنة الأوليمبية المصرية وعضو اللجنة الأوليمبية الدولية، وكان من الأسرة المالكة، ويجيد عدة لغات ليس من بينها العربية. وعندما قُدِّم له محمد نصر أراد أن يهنئه، ولكن اللغة العربية لم تسعفه فقال له: معلهش!

كان يريد أن يقول له: مبروك!

● الفتاة الفنلندية غاية في الجمال، ممشوقة القوام، ملفوفة

القد، ذهبية الشعر زرقاء العيون. لكن الفتيات أعرضن عن أبطال العالم مهما بلغت وسامتهم وتهافتن على الزنوج! وذات ليلة كنا في التيفولي ـ حديقة الملاهي ـ وكان يسير معي لاعبان أسمران من فريق كرة القدم هما حنفي بسطان والزنجيري وكلاهما أسود فاحم، وشعره مجعد، وفوجئت بسرب من الحسان يستوقفنا ويتحسس بشرتيهما ثم يرين أصابعهن، ويتضاحكن، لأنهن وجدن أن الطلاء الأسود لم يلطخ أياديهن البضة! وحدث تعارف سريع، وأنسحبت بهدوء، تاركاً الشباب يمرح، لأن المباريات كانت قد انتهت، ولم يكن انسحابي عن ترفع، ولكني كنت عريساً جديداً!

●شاهدت خلال الدورة مباراتين في كرة القدم من أعجب ما شاهدت في حياتي. في الأولى كان سحرة البرازيل يتقدمون على ألمانيا ٣/ صفر ولم يبق سوى ١٣ دقيقة ونجوم الكرة الكاريوكا يستعرضون مهاراتهم الفذة، ويلعبون بالفخذ والكتف والكعب. وفجأة هب الألمان كالإعصار، وسجلوا أربعة أهداف ليفوزوا بالمباراة! ومنذ ذلك اليوم عرفت كيف أن الغرور يقتل، وكيف أن الروح القتالية تحقق المحال!

وفي مباراة أخرى في مدينة توركو في الجنوب شاهدت الضنطوي نجم المصري ببور سعيد يسجل لمصر خمسة أهداف في مرمى شيلي لكي نفوز ٥/ ٤. وكنت مع السير ستانلي راوس رئيس الإتحاد الدولي للكرة والكابتن لطيف المعلق الرياضي المعروف، وأبدى السير ستانلي عجبه لضعف الدفاع المصري، فانبرى له الكابتن لطيف

شارحاً الوضع وموضحاً: أن الظهيرين لم يسبق لهما. . أن لعبا مع بعض!

فقال السير ستانلي ـ وهو مشهور بخفة الدم ـ: حسبت أنك ستقول أن الظهيرين لم يسبق لهما. . أن لعبا كرة قدم من قبل!!

كينيا

كينيا الجميلة . . بين الغنى الفاحش للأقلية والفقر المدقع للأغلبية!
ربيع دائم وثلوج على قمم جبال الكليمنجارو فوق خط الاستواء!
قبائل السامبورو: على العريس أن يفتش عن العروس في قلب الغابة!
قبائل الماساي: على العريس أن يصطاد أسداً ثم يتقدم للخطبة!
إعلانات في الفنادق: لا تمشِ وحدك في الشارع أثناء الليل!
عندما خطف الشمبانزي فنجان الشاي من يدي في فندق الغابة!
لماذا يتفوق أبطال كينيا على المستوى العالمي في الجري الطويل؟!
حفل استقبال للاسماعيلي للتفرج على استخراج السم من الأفاعي!
العاصمة نيروبي نسخة مصغرة من لندن في قلب أفريقيا!
إزدهار السياحة بسبب جمال الطبيعة وحدائق الحيوان المفتوحة!
سباق السافاري للسيارات مغامرة تبهر الشباب العالمي!

قد يكون في أفريقيا بلاد تضاهي كينيا جمالاً، لكن أجمل ما فيها طقسها المعتدل على مدار السنة، وربيعها الدائم، فليس لهما في أفريقيا نظير، رغم أنها على خط الإستواء. ذلك أنها هضبة عالية، يربو ارتفاعها على ٨ آلاف قدم. بل إن فيها جبالاً شاهقة تغطي هاماتها

الثلوج مثل جبال كليمنجارو، التي تحدث عنها همنجواي في روايته الشهيرة، التي تحولت إلى فيلم سينمائي: ثلوج الكليمنجارو.

وتقع كينيا في منطقة رياضية واحدة مع مصر هي منطقة شرق أفريقيا، ومن هنا تشترك معنا في تصفيات الدورات الأفريقية وبطولات اللعبات الجماعية المختلفة، على مستوى الفرق القومية وفرق الأندية على السواء، ولذلك يكثر ترددنا عليها. بل هي فضلاً عن ذلك «محطة» إجبارية لنا حين نسافر إلى غرب أفريقيا، حيث لا يخترق أفريقيا بالعرض خط طيران منتظم إلا لشركة «شرق أفريقيا»، المشتركة بين كينيا وتنزانيا وأوغندة.

والسفر عادة يقتصر على مشاهدة العاصمة الجميلة نيروبي، وهي مدينة حديثة نظيفة، مليئة بالمحلات التجارية على غرار لندن، فقد كان الإنجليز يريدون أن يجعلوا كينيا مستوطناً لهم، عندما اشتدت أزمتهم نتيجة للغارات الألمانية المستمرة على لندن إبان الحرب العالمية الثانية. لكن متابعة سباق «السفاري» العالمي للسيارات يتيح الفرصة لمشاهدة كينيا بأكملها على حقيقتها، بمدنها وبحيراتها وغاباتها، ورؤية قمة الغنى في شوارع نيروبي الجديدة، وفي المستوطنات الريفية للإنجليز والهنود والباكستانيين، الذين يمارسون ميكنة زراعية على أحدث النظم، ويسيطرون على التجارة في الوقت نفسه، ويكونون طبقة من الأغنياء أصحاب الملايين، في حين يعيش عامة الشعب في حالة فقر مدقع. ولهذا تجد إعلاناً معلقاً في كل غرف الفنادق يقول: لا تمش وحدك ليلاً في الشارع!

السرقة بالإكراه . . للرقص!

ذلك أن عمليات الإبتزاز بالتهديد، والخطف بالإكراه، تنتشر انتشاراً رهيباً لا سيما في ليالي الأحد، وتصل إلى حد القتل لدى أدنى مقاومة. ففي ليالي الأحد بالذات يكون الرجل الكيني قد استنزف ما يملك من شلنات في شرب البيرة من الصباح إلى آخر النهار، فإذا أقبل الليل فإنه يحتاج إلى مزيد من الفلوس ليكمل شربه، وليمارس الرقص مع الراقصين. وشرب البيرة والرقص هما الزاد الأول للإنسان الأفريقي!

لكن هذا الخطر لا يضائل من إقبال السياح على كينيا، للإستمتاع بطقسها الجميل وعجائب الغابة وحدائق الحيوان المفتوحة الشاسعة، ومصايفها لاسيا ممبسة، التي تبعد زهاء ٥٠٠ كيلومتر عن نيروبي، وقبائلها التي تعيش على الفطرة في مناطق كثيرة، لا سيما حول بحيرة رودولف، مثل قبائل السامبورو والماساي المحاربة، ثم وسائل الراحة في الفنادق الفاخرة والموتيلات المنتشرة في الطرق بل في قلب الغابة!

سياحة على مستوى!

ولو أنك جلست في مطار نيروبي فترة لهالك تدفق الطائرات المليئة بالسياح، سواء كانت ضمن الخطوط العادية أو طائرات خاصة قادمة من أمريكا ومن مختلف دول أوروبا. ولذلك تشكل السياحة قسطاً كبيراً من الدخل القومي، ومعها الشاي والأذرة والأخشاب والجلود. ولكن ذلك كله إحتكار للمستوطنين الأجانب من الإنجليز والهنود. أما

المواطنون الكينيون فإنهم يقومون بالأعمال الصغيرة، والخدمات الزراعية اليدوية بأجور متدنية، مما يوقعهم في براثن الفقر الشديد!

قبائل على الفطرة!

وإذا كان تعداد كينيا ١٢ مليون نسمة فإن نسبة المتحضرين منهم لا تتجاوز الربع، أي زهاء ٣ ملايين نسمة، أما الباقون فيعيشون في حالة الفطرة البدائية، في شكل قبائل متناثرة، يعيش معظمها كرعاة. والقبائل كثيرة كالعادة، ولكن أكبرها وأهمها الكوكويو، واللو، والماساي، والسامبورو.

والكوكويو هي قبيلة المثقفين والحكام، ومنها الموظفون والضباط والسفراء، وتعنى دائماً بتعليم أبنائها لكي تحتفظ بمقاليد الحكم بين يديها، ولتضرب ـ بسلاح العلم ـ القبائل الطامعة في تولي الحكم.

واللو أكثر عدداً من الكوكويو، ويحاولون دائماً اللحاق بهم في مجال التعليم على أمل أن يتولوا مقاليد الأمور، وخوفاً من سيطرة الكوكويو، الذين لا تفوتهم هذه الإتجاهات والمطامع ويقفون لها بالمرصاد، وبمزيد من التعليم.

اقتل أسداً تتزوج!

والماساي قبائل محاربة شديدة البأس لكن لا يأبه بها ولا يخافها اللو والكوكويو، لأنها قبائل رعاة، تعيش في الغابات وحولها. وهي

بارعة في القنص، ويقال فيما يقال عنها من أساطير أن الأسـد يشـم رائحة الفرد من الماساي على بعد كيلومتر فيجري لينفذ بجلـده، لأن حراب الماساي وسهامهم لا تخطىء الهدف!!

ومن عاداتهم أنه إذا تقدم شاب لخطبة فتاة قال له أبوها: عليك أن تصطاد أسداً أولاً لكي أوافق على أن أزوجك ابنتي!

ويعتبر الأسد مقدم المهر، أو القسط الأول منه. ويخرج الشاب إلى الغابة والأحراش المجاورة لها، ولا يعود إلا برأس أسد، ولو بعد سنة أو سنتين، دليلاً على شجاعته. وبعدها يقدم آخر قسط من المهر وهو بضع بقرات، ثم تبدأ الأفراح والليالي الملاح. ومن غرائب هذه القبائل أن الرجال هم الذين يتجملون، فيلبسون الحلى على الصدور وفي الأذرع، والأقراط في الآذان، التي تخرم منذ الولادة. أما النسـاء فلا يتجملن بالحلى، وإنما بتسريحة الشعر فقط!

مطاردة العروس في الغابة!

وتعيش قبائل السامبورو البدائية حول بحيرة رودولف، في الإقليم الصحرواي الذي يفصل بين أثيوبيا وكينيا، وهو إقليم شديد الوعورة والخطورة، لأن هذه القبائـل تنفـر من الغربـاء وتشـك في نواياهـم. ويعرف هواة الرحلات اتجاهاتهم هذه فلا يدخلون منطقة نفوذهم إلا وهم يحملون الكثير من الهدايا، لتوزيعها على شيوخ القبائل لكسب

مودتهم، وخاصة صناديق البيرة وزجاجات الويسكي! وعندئذ يلاقون أروع استقبال وترحاب.

فما أن يبدأ شيخ القبيلة في فتح زجاجة ويسكي وتناول جرعة منها حتى يتوافد الرجال والنساء وتُنصَبُ حلقة، ويبدأ الرقص الترحيبي بالضيوف، وهو أقرب ما يكون إلى الذكر في البداية، مع تمتمة غير مفهومة، ثم يزداد الإيقاع سرعة، رويداً رويداً. وعيب هذه العملية أن شيخ القبيلة حين يتقبل الهدايا ويشرع في فتح زجاجة الويسكي تقدم له آنية خشبية ويقدم مثلها للضيف ليشربا نخب التعارف والترحيب! ولو أن الضيف رفض المشاركة لوقعت الواقعة، ولذلك يعمد الضيف المسلم إلى «التظاهر» بأخذ جرعة، ثم يسكب الخمر خفية على الأرض!

ومراسم الزواج عند السامبورو مختلفة عنها عند الماساي.. فالفتاة تعجب بالشاب القوي الذي يخطفها ويخضعها. ولهذا فإن العريس يقدم أولاً هداياه من الأرز والملح والفواكه والمواشي، ثم يحدد موعد الزفاف. وفي ليلة الزفاف تنعقد حلقات الرقص وتدور الأقداح حتى يتساقط الرجال من فرط الإعياء، ثم تتسلل العروس هاربة إلى الأدغال، حتى إذا انتهى الحفل تسلل العريس وراءها، يبحث عنها محاولاً أن يقتنصها، إلى أن يعثر عليها ويسوقها إلى عش الزوجية عنوة، أو يحملها حملاً إن استطاع!

أغرب عادات الزواج!

ورغم قسوة هذه الطقوس في زواج الماساي والسامبورو وغيرهما من القبائل، فإن هناك تقاليـد وعادات غريبة في الزواج هناك تجعله أقرب إلى «اللازواج» أو الفوضى الجنسية! وإذا كان طبيعياً أن الرجل له الحق في الزواج بأكثر من واحدة، ولكل منهن ديانتها الخاصة فقد تكون إحداهن مسلمة والأخرى مسيحية والثالثة لا دينية، فإن تسجيل الزواج ليس شرطاً أساسياً، فقد يتم بعد سنوات، وقد لا يتم على الإطلاق! لكن المدهش أن المرأة قد تتزوج من رجل وتنجب منه أطفالاً كثيرين ثم تتركه وتتزوج غيره، وقد تكرر المسألة مع غيرهما، وقد يجيء أحدهم فترتاح إليه وتستقر معه، وفي هذه الحالة فإنه يسجل جميع هؤلاء الأولاد باسمه، بصرف النظر عن آبائهم الأصليين، الذين ينسونهم تماماً، ويقطعون الصلة بهم!!

الشمبانزي يخطف الفنجان!

وسفاري سباق السيارات من معالم كينيا، ويحضر نهايته عادة في أكبر ميادين نيروبي رئيس الجمهورية إيرب موي، وكان جومو كينياتا حريصاً على ذلك قبل وفاته، ورغم إدمانه الخمر في أخريات أيامه، وتتبع السباق وكلات الأنباء، حتى أصبحت شهرته عالمية، وله عشاقه من السياح، لأن المناطق التي يمر بها تحفة سياحية من حيث المناظر الطبيعية الساحرة، والمجهول، وسحر الغابة، ووعورة الطرق، وتنوع الحيوانات.

لكن السياح لهم «سفاري خاص»، إلى حدائق الحيوان المفتوحة، التي تنتهي بمناطق يباح فيها صيد الوحوش، كما أن الغابة بها فنادق اسمها «توب تري» أو «فوق الشجرة» وهي من الخشب، وتقام على فروع الأشجار الضخمة داخل الأدغال، وبها كل وسائل الراحة.

وذات يوم كنت في مؤتمر رياضي بنيروبي، وقمت برحلة في حديقة الحيوان المفتوحة، وكنا قد حجزنا ـ زميلي وأنا ـ للمبيت في فندق من فنادق «فوق الشجرة». وجلسنا في الصباح نرشف فنجانين من الشاي، ووضعت فنجاني على المائدة في الشرفة، لكي أشعل سيجارة، وكان صديقي لم يصل إلى الشرفة بعد، وسرحت في لجة من التفكير فيما يطالعني من بديع صنع الله، ومددت يدي لأتناول الفنجان فلم أجده!

ولشد ما انزعجت! ولكني لم ألبث أن ضحكت، واستدعيت صديقي فجاء والصابون على وجهه ليرى ما أضحكني! شمبانزي ضخم يتعلق بفرع شجرة يتسلل إلى الشرفة، يضحك ملء شدقيه وهو يمسك بالفنجان بعد أن شرب الشاي!!

ثعبان... بارتي!

لكن لي ذكرى سيئة في كينيا. كنت أرافق النادي الإسماعيلي ليلعب في «جورماهيا» بطل كينيا في بطولة أندية أفريقيا الكروية عام ١٩٦٩. وذات صباح تلقينا رقاع دعوة أنيقة لحضور حفل ما بعد الظهر. دسست الدعوة في جيبي دون أن أقرأها، لأني توقعت أن تكون لحضور حفل استقبال على فنجان شاي بعد الظهر.

وجاءت سيارة كبيرة لتنقل الفريق. لا ذهبت بنا إلى فندق، ولا إلى ناد، وإنما إلى مبنى أدركت لأول وهلة أنه مصلحة حكومية. ودخلنا فإذا في انتظاري أسوأ مفاجأة! أقفاص من الزجاج فوق الحصر بداخلها أشجار جافة صناعية، تتلوى عليها أشكال وألوان من الأفاعي السامة!

صرخت، وعدت أدراجي إلى السيارة، أنتظر الفريق إلى أن تنتهي الزيارة، فقد كانت الدعوة لمشاهدة عملية استخراج السم من أنياب الأفاعي، لاستعماله في الأغراض الطبية! ومنتهى الجليطة أن يدعى ضيوف لمشاهدة عملية مخيفة مثل هذه! وكانت النتيجة أني جافاني النوم طوال الليل، فكلما أغمضت عيني أطبق على أنفاسي كابوس كله أفاعي!!

ممبسة الجميلة!

وذات يوم طرت إلى ممبسة على المحيط الهندي، وهي مصيف جميل، به فنادق ممتازة، كل غرفها مكيفة، وكلها تتألق نظافة، وتتفنن في إجتذاب السياح على مدار السنة، بالمعاملة الحسنة والتخفيضات المغرية، ولذلك فإن نسبة الإشغال دائماً مرتفعة. وممبسة إلى جانب ذلك هي العاصمة التجارية والميناء الكبير، ويغلب عليها الطابع العربي، الذي يتجلى حتى في الملابس، فهناك دائماً العباءة والطاقية، وفي البيوت مشربيات على الطراز العربي. وقد جاء العرب إلى المنطقة للتجارة، ومعظمهم من حضرموت وعمان واليمن،

ونزلوا حتى زنزبار التي اتحدت مع تنجانيقا لتكوين دولة تنزانيا. واختلط العرب بالمواطنين وتزوجوا منهم، وذابوا فيهم، لكنهم ما زالوا يحافظون على تعاليم الإسلام وتقاليده، ويؤدون الصلاة ويصومون رمضان، وهم يطلبون من الأزهر الشريف أن يرسل بعوثاً للتعريف بالإسلام ومبادئه وتقاليده، ويطلبون مدرسين للغة العربية حتى لا ينساها أبناؤهم، لأن الحديث كله باللغة السواحيلية، كما يطلبون من الدول العربية استثمار أموالهم في كينيا الغنية بالموارد الطبيعية، حتى يوقفوا التغلغل الإقتصادي الإسرائيلي!

أبطال العالم في الجري!

بقيت نقطة لا بد من توضيحها لكي تكتمل هذه اللمحة السريعة للتعريف بكينيا، فقد فوجىء خبراء ألعاب القوى، أهم لعبة رياضية في العالم، بتفوق أبطال كينيا في الجري، في دورة الألعاب الأوليمبية بمونتريال عام ١٩٧٦ بفوز كينيا بالمركز الثاني في اللعبة، بعد أمريكا وقبل روسيا، حيث فازت بميداليات ذهبية في مسابقات ٣ آلاف متر موانع، و١٠ آلاف متر، و١٥٠٠ متر فضلاً عن ميداليات فضية وبرونزية أخرى، وكانوا قد حققوا نجاحاً مماثلاً في دورة ميونيخ عام ١٩٧٢، وكان بطلهم هنري رونو الوحيد في العالم الذي يملك أرقاماً عالمية في الجري الطويل منذ عام ١٩٧٨، وإن سقطمنها الآن! ما السر؟

السر هو الإرتفاع عن سطح البحر حيث يقل الأوكسيجين، ومن هنا

فإن السعة الحيوية والقدرة على التنفس بيسر هما ميزتان للكينيين حين يجرون في مستوى البحر. وإلى جانب ذلك فإنهم يجرون منذ الصغر، لأن التلميذ الكيني يجري من بيته على مشارف الغابة إلى المدرسة التي يراعى في إنشائها أن تتوسط عدة قرى!!

العراق

العراق.. حيث تستروح أنسام الأمجاد وأنفاس التاريخ!
أشور وبابل والقادسية والجمل.. والنجف وكربلاء..!
هارون الرشيد.. والبرامكة ومغاني نهري الدجلة والفرات
تطور سريع وعجيب في بغداد نتيجة لتخطيط عصري متقد
بناء العراق الجديد بسواعد عمال وفلاحين من ضفاف النيل
مفاجأة أبو سمرة السكرة في مخدع عبد الكريم قاسم بعد سـ
السمك المسقوف وجبة بغدادية شهية على شط دجلة!
مغاني الزوراء متنفس للشعب والحفلات الرسمية في القناة!
في العراق لا يوجد تلاعب في الأسعار لأن العقوبات رادعة
الشعب يعيش حياته رغم الحرب الطويلة بين العراق وإيرا
العراقيون ينطقون الكاف شيناً.. ويحبون الحشايات!!
هل تعرف السكاملي والخُاشوجة والرجى والصمون وخوش
بغداد تغني مع شيكوكو للزعيم الهمشري، العبقري، المفتر
بين إيوان كسرى وحدائق بابل المعلقة ومآسي كربلا عاشوراء!

الذي يزور العراق يشم عبير الحضارة، ويستروح أنسام التاريـ بكل أمجاده ومآسيه. أشور وبابل وكلدانيا وميديا، سميرام وعشتار، حمورابي وبختنصر ونبوخذنصر وتغلت فلاسر وسنحريـ مصرع علي بن أبي طالب، وموقعة الجمل ومقتل الحسن والحسيـ

هارون الرشيد والبرامكة، وعشرات الصفحات الحية في سجل التاريخ، وإن كانت لا تخلو من لطخات الدم الذي أساله كبار السفاحين من أبو الحجاج بن يوسف الثقفي إلى عبد الكريم قاسم!

على مدى ربع قرن ترددت على بغداد عشرات المرات، وعاصرتها وعايشتها وهي تنمو وتكبر، حتى أصبحت في عام ١٩٨٢ عاصمة ضخمة تعج بالبشر، وتحيا وتزدهر، رغم اشتباك العراق وإيران في حرب عنيفة طويلة لا تبقي ولا تذر!

يامّو العباية!

في بداية الستينيات زرت بغداد لأول مرة. كنت معجباً بأغنية عراقية للمطربة سهام رفقي تقول فيها: يامّو العباية حلوة عباتش، جمالك آية زينة صفاتتش!

وكنت أظنها «تتدلع» بهذا النطق للكاف، وإذا به اللهجة العراقية، بل الخليجية كما عرفت فيما بعد. فالسمك يعني سمتش، وأحكي لك تعني أحشي لك! وما أكثر ما سمعنا من حشايات!

أبو سمرة السكرة!

وقتها كان عبد السلام عارف قد خلص البلاد من حكم عبد الكريم قاسم. وكنت هناك مع منتخب الأهلي والزمالك لكرة القدم، حيث قوبلنا بحفاوة منقطعة النظير، لأن الحديث عن «الوحدة» كان حديث

الساعة وأمل الجماهير. وأذكر أن الرئيس عارف حضر المباراة في أرض الكشافة ـ ولم يكن ستاد الشعب قد أنشىء بعد ـ وكان إلى جواره السفير المصري أمين هويدي ووزير الدفاع الجزائري هواري بومدين الذي أصبح رئيساً للجزائر فيما بعد، ونزلوا لمصافحة الفريقين فاشتعل الملعب حماسة وتعالى الهتاف للوحدة!

وكانت الوحدة حديثنا طول الوقت، إلا أن إسماعيل حمودة وكيل الاتحاد العراقي لكرة القدم ومرافق البعثة المصرية قطع الحديث وقال لي: أحشي لك نكتة، عندما اقتحمت القوات مخدع عبد الكريم قاسم في وزارة الدفاع لم يكن ما استرعى الأنظار الرفاهية التي يعيش فيها ـ على خلاف ما يزعم ـ بقدر ما استرعاها مسجل موضوع على «كومودينو» بجوار السرير، فأسرع الضباط يديرون الشريط على أمل العثور على حقائق أو تسجيلات ذات أهمية وخطورة، إلا أنهم كادوا يقعون من الضحك، فما أن دار المسجل حتى دوت في المخدع أغنية أبو سمرة السكرة! كان الطاغية يرفه عن نفسه في الوقت الذي زج فيه ٨٥ ألف سجين في المعتقلات دون محاكمة، ولا تهمة!

الزعيم الهمشري!

كانت هذه الزيارة بعد قطيعة زائفة بين البلدين، وفي ظل دعوة صاخبة للوحدة. وذات يوم دعينا لتناول أكلة شعبية على ضفاف دجلة هي السمك المسقوف، فعلى طول ضفة النهر وعلى امتداد شارع أبو نواس محلات أنيقة نظيفة، في كل منها «راكية» نار، وقودها الحطب أو

الفحم، وبجوار النار حوض كبير من القيشاني أو الصاج أو البلاستيك به أسماك حية مختلفة الأحجام، يختار الآكل منها ما يشاء، وتقسم إلى نصفين في الحال، دون انفصال، وتوضع على قوائم بجوار لهب النار إلى حد الإستواء. والمنظر غريب وأخاذ، والوجبة لذيذة شهية. وقد جلسنا نستمتع بها ونستمع إلى أغاني عبد الوهاب وأم كلثوم في الإذاعة والتليفزيون، لكن أغنية غريبة كانت تنافسهما في ذلك الوقت ويطلبها العراقيون بتهافت غريب. الأغنية كان يرددها شكوكو في أحد الأفلام ويقصد بها عبد الكريم قاسم وتقول: أهلاً وسهلاً بالزعيم الهمشري، العبقري المفتري!

المهم أن أكلة «السمتش» المسقوف أصبحت عادة عند كل من يزور بغداد، التي فهمنا لهجتها العامية بسهولة لأن «إيشلونك» تعني كيف حالك، وماكو يعني لا يوجد وأصلها ما يكون، وآكو يعني يوجد، وشينو يعني ما هذا، لكن كان عسيراً علينا أن نفهم كثيراً من الألفاظ الدخيلة من الفارسية والتركية والإنجليزية. الكرسي مثلاً اسمه «سكاملي»، والملعقة «خاشوجة»، والبطيخ «رجي»، والخبز «صمون»، وخوش خاتون يعني سيدة جميلة، وهكذا.

إيوان كسرى والقادسية!

وبغداد مدينة كبيرة، يقسمها نهر الدجلة إلى قسمين: الرصافة والكرخ. وبها عمارات عالية، لكن أغلب بيوتها من طابقين لسببين أولهما أن أرضها رخوة، وثانيهما أن درجة الحرارة في الظل تصل إلى

٥٥ مئوية، ولهذا فإن المساكن لا تتعدى طابقين تحيطبها حدائق لترطيب الجو. وقد عني التخطيط الحديث للمدينة بإنشاء عدد كبير من المتنزهات والمساحات الخضراء، لعل أكبرها حديقة الزوراء الهائلة. ولا بد أن تكون الزيارات الأولى للمساجد الكبيرة المنتشرة في أرجاء عاصمة الرشيد بطرازها الكوفي وقبابها المذهبة وصحونها الواسعة.

أما الزيارة الثانية فهي عادة إلى «إيوان كسرى» على بعد ٣٠ كيلومتراً من بغداد. المنطقة اسمها «سالمان بك». والإيوان يرجع إلى الدولة الساسانية في القرن الثالث بعد الميلاد، وهو بناء ضخم بالقرميد، إرتفاعه ٣٠ متراً سمك جدرانه ٧ أعمدة، وبه قبة من القرميد أيضاً بدون أعمدة، وهو الذي قال فيه البحتري قصيدته المشهورة ومنها: فهو يبدي تجلداً وعليه كلكل من كلاكل الدهر مرس.

لكن الشيء المهم أن الساحة التي أقيم بها الإيوان كانت مسرحاً لموقعة القادسية، حيث حقق العرب بقيادة سعد بن أبي وقاص أروع انتصار على الفرس. لذلك يفوح من هذه البقعة عبق المجد، ولا تملك إلا أن تطلق للتأمل العنان، فالإستغراق في أمجاد الماضي هروب من الواقع المؤلم للمسلمين!

أسد بابل!

والذي يزور العراق لا بد أن يسعى لمشاهدة حدائق بابل المعلقة، إحدى عجائب الدنيا السبع. وعندما وصلنا إلى بابل توقفنا عند سورها العظيم الذي اندثر، ثم نفذنا إلى أطلالها التي لم يبق منها سوى «أسد

بابل الشهير» الذي أقامه نبوخذنصر، عنواناً لبأس الكلدانيين وسؤددهم، حيث يمثلهم الأسد الذي يطرح تحت قدميه رجلاً يرمز إلى الأعداء. وبعد زيارة المتحف تجولنا بين الأطلال، لنجد أعمدة القصر الكبير وبقايا حدائق بابل المعلقة اللذين أقامهما نبوخذ نصر ملك بابل الكلداني ليسلي بها زوجته عن حنينها لوطنها «ميديا». ولم تكن بابل عاصمة الأمبراطورية الكلدانية فقط بل كانت عاصمة الأمبراطورية السامية في عهد حمورابي العظيم، وإن نقل الأشوريون بعده عاصمة الحكم إلى نينوى. وكان هناك مشروع لإعادة إقامة حدائق بابل المعلقة على النحو الذي تخيله أحد علماء الآثار الألمان، ولكن يبدو أن خطة التنمية أجلته إلى حين.

كربلاء وعاشوراء!

إن المشاهد الجليلة في العراق تتمثل في كربلاء والنجف والكوفة، وإن كانت مغلفة في إطار مأساوي يثير الأشجان. وعلى مشارف كربلاء شهدنا القباب الذهبية والمآذن الشماء لمسجدي أبو الشهداء الحسين بن علي والعباس. ووقفنا أمام مسجد العباس أولاً مبهورين مأخوذين، ودخلنا وطفنا بالمقام المصنوع من الفضة الخالصة، واستمعنا للشرح وقرأنا الفاتحة، ثم توجهنا إلى مسجد الحسين. القبة مغطاة بقشرة سميكة من الذهب، والمئذنتان أيضاً، ووهج الذهب «يضوي» على بعد عشرات الكيلومترات، والأبواب من الذهب، أما المقام فمن الفضة، والسجاد إيراني فاخر، وصحن الجامع مقسم إلى

أقسام للنساء والرجال، تنعقد فيها دروس دينية طوال النهار.

وفي الداخل دنيا روحانية، كلها تبرك وخشوع، جموع لا تنتهي، ودعاء في كل رحاب المسجد، وآيات الذكر الحكيم تتلى في كل ركن، وأتباع الحسين وتلاميذ المسجد يشرحون للأفواج الوافدة ما ترى. البعض يوضح تاريخ أبو الشهداء، ويشير إلى مقبرة جماعية تضم رفات ٧٠ من رفاقه استشهدوا معه في واقعة الجمل، والبعض يشرح: هذا الباب الذهبي هدية من شاه إيران، وكذلك السجاد والطنافس، أما فضة المقام فهدية من الباكستان. وكانت كربلاء هادئة في هذه الزيارة الأولى. إلا أنها يوم عاشوراء مدينة لا تطاق! فالشوارع ليس بها موضع لقدم لأنها مغطاة بأجسام البشر ليل نهار، وفي الساحات أذكار وحلقات لرجال يمسكون سيوفاً بتارة يضربون بها صدورهم العارية ورءوسهم حتى الموت أحياناً، والدماء تسيل أنهاراً في كل مكان ندماً وطلباً للغفران!

النجف الأشرف والكوفة

وفي النجف الأشرف شاهدنا مسجد الإمام علي بن أبي طالب كرّم الله وجهه على نفس الصورة، وإن كان يزيد بعض النفائس، فحول المقام قناديل من «السيفر» النادر المطعم بالجواهر. ولكن المشاعر واحدة، والشعائر واحدة. وأضاف لنا تلميذ المسجد الذي طاف بنا أن المقام يضم رفات ثلاثة بالترتيب التالي: أولهم الإمام علي، وإلى جواره سيدنا نوح، ثم آدم. وقال لنا مندوب مصلحة السياحة الذي يرافقنا: إن

مدافن النجف الأشرف هي أكبر مدافن في العالم، لأن أهالي غالبية المتوفين يفضلون أن يدفنوهم إلى جوار ابن عم رسول الله ﷺ.

ومن النجف اتجهنا إلى الكوفة، وزرنا مسجدها الذي قتل أمام محرابه الإمام علي بن أبي طالب بطعنة خنجر وهو يؤدي صلاة الفجر. وأقفلنا عائدين إلى بغداد، سابحين في لجة الذكريات الحلوة والمرة، دون أن يخفى علينا ونحن نجتاز الفرات في هذه المنطقة الغنية بالخضرة أنها أشبه بجنة تظل رفات الشهداء الأبرار.

فالمنطقة مليئة ببساتين الفاكهة وأشجار النخيل الباسقة التي تثمر زهاء ٤٠٠ نوع من البلح تشتهر به العراق. لكن هناك أيضاً ملايين الأفدنة من الأرض العفية البكر تحتاج إلى مشروعات ري وصرف للإستصلاح وللإستزراع.

ومن المزارات الحديثة الآن قرية الصالحة على بعد ٥٠ كيلومتراً من بغداد، وهي مستوطنة مصرية لأول فوج من فلاحي مصر إستوطن العراق بصفة نهائية، ومعظمه من فلاحي المنوفية. وقد أقامت لهم الحكومة العراقية قرى نموذجية، وزودت كلاً منهم ببقرة و١٠ أفدنة ملكاً له وقرضاً يسدد على أقساط مريحة، ونجحت التجربة. ولا عجب الآن أن يكون في العراق أكثر من مليون عامل مصري من العمال والفلاحين يشاركون في بناء العراق الجديد.

لكن الطريف أن فلاحي مصر في الصالحة عندما استقبلونا قالوا لنا: إحشوا لنا عن مصر!!

الجزائر

الجزائر أرض الكفاح وبلاد المليون شهيد!
أثر الطبيعة الجبلية والاستعمار الطويل والبربر!
الأندية الرياضية الجزائرية وعلاقتها بالمولد النبوي!
متاعب النقاد في سيدي فريج على بعد ٤٠ كيلومتراً!!
انسحاب الفرق المصرية من الدورة الأفريقية بعد علقة!
جمال مدينة الجزائر لا يستهوي السياح بقدر القصبة!
رصيد من المحبة في قلب كل مصري للجزائر الشقيقة!
الحكم الشمولي يصدّق الروس ويغرق في الصناعات الثقيلة!
الفتاة الجزائرية بين قمة التحرر.. وقمة التزمت!
حركة البناء بطيئة لنقص الكوادر بسبب الاستعمار!
نقص المياه مشكلة المشاكل في مدينة الجزائر..!
كيف تعبت لشراء الدزلميطة وكيف أعجبت بالزرابي!

عندما زارت المجاهدة الجزائرية جميلة بوحيرد مصر قوبلت بحفاوة منقطعة النظير، لأنها تمثل بلاد المليون شهيد. وكان جمال عبد الناصر يحب الرئيس الجزائري بن بللا، أول رئيس للجزائر التي ساعدتها مصر بكل قواها في حرب الاستقلال، التي دامت من عام ١٩٥٤ إلى عام ١٩٦٢، وعلى أثرها تولى بن بللا الحكم، إلا أن هواري بومدين استولى

على السلطة عام ١٩٦٥، واستطاع أن يحتفظ بعلاقته الطيبة مع مصر والرئيس عبد الناصر.

كانت هذه فكرتي عن الجزائر عندما زرتها لأول مرة عام ١٩٦٨، موفداً لتنظيم مباريات لفريق النادي الإسماعيلي لكرة القدم، في جميع الدول العربية، يخصص دخلها للمجهود الحربي، وتستهدف إحياء الروح والتضامن بين الشباب العربي، الذي صدمته هزيمة حزيران ١٩٦٧. كنت إذن أعتقد أن العلاقة بين مصر والجزائر سمن على عسل، وأن مهمتي ستكون من السهولة بمكان!

إلا أني فجعت بصراحة، في الفتور الذي قوبلت به في «الاتحادية الجزائرية لكرة القدم»، التي لاوعتني أسبوعاً، حتى مللت الجلوس في شرفة فندق «أليتي» أكبر فنادق العاصمة قبل إنشاء فندق «أوراس»! وزاد من مللي أن اللهجة العربية الجزائرية غير مفهومة، وأن التحدث بالفرنسية أيسر بكثير، لأن حركة التعريب التي يتولاها المدرسون المصريون كانت في بدايتها، وإن بدأت تثمر الآن. وما زلت أضحك كلما تذكرت موقفي حين فرغ الكبريت وظللت أجوب الشوارع، وأسأل في أكشاك السجاير، إلى أن طلبت«ديزاللوميت» بالفرنسية، فوبخني الرجل بغلظة وقال لي: ما تتكلم عربي يا أخي، تريد «دزليطة» إذن! وذات يوم رأيت لافته مكتوبة بخطيد سيىء على دكان يبيع «زرابي»، فلما اقتربت منه تبين أنه دكان «سجاد». والزرابي كلمة عربية فصيحة لكن ليس في الجزائر شيء وسط!

الطبيعة الجبلية . . والبربر . . والإستعمار!

الأفضل أن نأخذ فكرة عن الجزائر أولاً. المساحة: مليونان و٣٨٠ ألف كيلومتر مربع، لكن التعداد قليل فهو زهاء ٢٠ مليون نسمة. طبيعة الأرض جبلية، هضاب تتفرع من سلاسل جبال تمتد طولاً وعرضاً، ويتدرج الإنخفاض تجاه الساحل الذي يتميز بمناخ البحر الأبيض، وتكثر الغابات وإن بدأت تتلاشى بسبب الإهمال. الديانة: الإسلام، والسكان عرب، وبربر في الجنوب.

وصحيح أن الاستعمار الفرنسي طور البلد وأنشأ الطرق وأدخل الزراعة لا سيما القمح والشعير والكروم والفواكه، واستخرج المعادن كالحديد، واكتشف البترول والغاز الطبيعي لخلق طاقة تقوم عليها الصناعة، ولكن التصنيع يتعثر بسبب نقص العمالة وكثرة الهجرة إلى فرنسا! إلا أن الإستعمار في نفس الوقت لم يخلق كوادر إدارية ووظيفية لإدارة المصالح الحكومية، والقطاع العام الذي قام بعد الإستقلال والتأميم.

ومن الناحية التاريخية فإن الجزائر لم تعرف الإستقلال إلا مؤخراً. فقبل الفتح العربي عام ٦٤٧ الميلادي على يد عقبة بن نافع، خضعت الجزائر للفينيقيين والرومان والبيزنطيين وحتى بعد العرب الذين قاومهم البربر بكل العنف، تعرضوا لاحتلال إسباني ثم عثماني، ثم فرنسي في القرن السابع عشر، استمر طويلاً، وتحولت خلاله الجزائر إلى ولاية فرنسية، واختفت ـ أو كادت تختفي ـ اللغة العربية!

ماذا حدث بعد الإستقلال؟ كان المستعمرون الفرنسيون يقيمون في

السواحل الشمالية في مدن الجزائر ووهران وقسنطينة، وينشئون مزارع الكروم والفواكه ومصانع النبيذ، ويرعون الغابات. فلما طردوا من البلاد زحف البربر من الجنوب لاحتلال الشمال الذي كان ممنوعاً بالنسبة لهم! ومن هنا مسحة من أخلاف البربر: الغلظة، والحذر، وجمود العاطفة!

جزائريون في منتهى السماحة والرقة!

في زيارتي الأولى هذه، اجتمعت كثيراً في شرفة فندق «أليتي» بشباب جامعي من الجنسين، ثائر على هذه الأوضاع، مؤكد على الإنتماء للعروبة. وتوالت زياراتي للجزائر بعد ذلك، لتغطية المباريات الثنائية الدولية في كرة القدم في السبعينيات، ومباراة الأهلي ومولودية الجزائر في بطولة أندية أفريقيا، ودورة البحر الأبيض المتوسط عام ١٩٧٥، والدورة الأفريقية عام ١٩٧٨ وغيرها.

الذكريات متفاوتة جداً. فيها الحلو، وفيها المر. أحلاها سماحة المسئولين عن نادي «مولودية» الجزائر، وترحيبهم الرائع بالنادي الأهلي الكروي. أيامها عشنا في حلم من أحلام الأخوة العربية. أقمنا في فندق المركب الأوليمبي الرياضي. وفي صباح كل يوم يزورنا المسئولون عن نادي المولودية، يطمئنون على طيب الإقامة، ويدعوننا إلى الغداء أو العشاء في أماكن سياحية، أو في بيوت الأعضاء ـ وهم من صفوة القوم ـ حتى شعرنا بالسعادة الغامرة، لهذه الروح العربية القاهرة!

الأندية الرياضية الجزائرية والمولد النبوي!

وبهذه المناسبة فإني أرجو أن أصحح خطأً شائعاً في الإعلام العربي كله! إن النقاد والمعلقين في الصحف والراديو التليفزيون يتحدثون أو يكتبون عن نادي مولودية الجزائر، على أنه «ميلوديا» الجزائر! والميلوديا أو الميلودي نوع من المعزوفات الموسيقية، ولا علاقة لها على الإطلاق بأندية القطر الشقيق!

النادي اسمه «مولودية الجزائر» بضم الميم وشدة على الياء! والسبب في التسمية أنه لم يسمح للجزائريين بإنشاء أندية إلا بعد الإستقلال، وعند الإنشاء تصادف أنه واكب «المولد النبوي»، ويسمونه في الجزائر «المولود النبوي» بضم الميم! ومن هنا مولودية الجزائر، ومولودية وهران وغيرهما من الأندية!

دورة البحر الأبيض وتعذيب النقاد!

تضم دورة البحر الأبيض التي نظمتها الجزائر عام ١٩٧٥ نقاد ١٤ دولة من أوروبا وآسيا وأفريقيا فضلاً عن المراقبين والمراسلين من دول أخرى ووكالات الأنباء العالمية! اختاروا لاقامتنا فندقاً ضخماً في سيدي فريج، وهي مدينة سياحية على بعد ٤٠ كيلومتراً من مدينة الجزائر. الفندق به ثلاثة طوابق تضم ٨٠٠ غرفة، وليس به مصاعد، وهو قطاع عام، أو «مال سايب»! تمشي ٨٠٠ متر لكي تصل إلى أول سلم للطابق الثاني، ثم ٨٠٠ متر لتصل إلى أول سلم للطابق الثالث. المياه مقطوعة غالباً، والكهرباء مقطوعة أحياناً. الطعام أوروبي رتيب وممل.

المواصلات على الورق جميلة جداً، وعلى الطبيعة لا تأتي أبداً. عملية تعذيب لناقد عليه أن يغطي نشاطاً واسعاً في ١٨ لعبة رياضية!

كسرت الروتين، تركت الوجبات الفندقية لأكل الكسكس باللحم والمرق، وسمك البوربون على الشاطىء رغم غلائه «الفاجر»، وصادفت بعض الشباب الجزائري المتفتح لكي ينقلني إلى الملاعب في سياراته الخاصة. قالوا لي: لا عليك، في مدينة الجزائر نفسها لا مياه يوم الخميس بطوله، ولا كهرباء في ساعات محددة من اليوم، يعلنها الراديو والتليفزيون! تقبلت الوضع، وسهّل من المهمة أن العاملين المصريين في الجزائر - وما أكثرهم - لم يكفوا عن دعوتنا إلى مختلف الوجبات، وإلى المساعدة في الإنتقالات!

ثم علقة يتحدث بها الركبان!

لكن الشيء العجيب حقاً هو ما حدث للبعثة المصرية في الدورة الأفريقية عام ١٩٧٨ في الجزائر، وهي دورة شاملة على غرار الدورات الأوليمبية تقام كل ٤ سنوات. وقتها كان الخلاف بين مصر وجبهة الرفض على أشده، لكن المسابقات والمباريات جرت في جو رياضي، بعيداً عن السياسة وألاعيبها، التي ننادي دائماً بأن يظل الشباب بمنأى عنها. وكنا في غاية السعادة بهذا الجو النقي، الذي يبشر بعودة الدورات الرياضية العربية، بدلاً من تعثرها الحالي، تمكيناً لأواصر الأخوة والمحبة بين الشباب العربي.

وفجأة جاءت مباراة مصر وليبيا في كرة القدم. وما إن سجلت مصر

في أواخر المباراة هدفاً، حتى تفجر غضب لاعبي ليبيا على نحو مؤسف، «وطاحوا» في لاعبي مصر ضرباً وركلاً! وعندما بدأ لاعبو مصر يدافعون عن أنفسهم انهال عليهم البوليس ضرباً، على نحو أثار البعثة كلها في المدرجات فتدخلت ليختلط الحابل بالنابل، وليحاصرها البوليس من كل جانب. ولأن المباراة كانت منقولة بالتليفزيون على الهواء مباشرة، فقد صدرت الأوامر بسحب البعثة المصرية من الدورة، فعادت على الفور بطائرة خاصة، وكان مشهد العرب عجيباً أمام الفرق الأفريقية!

وإني إذ أستعيد هذه الذكرى المؤلمة لا أقصد أن ألوم أحداً، وإنما أتمنى من صميم قلبي أن يجمع الله شمل الأمة العربية، فإذا تعذر ذلك سياسياً، لسبب أو لآخر، فإن الشعوب العربية لا شأن لها بذلك، والشباب من باب أولى، وواجبنا أن نعمل على تآخيه وتعاطفه عن طريق الرياضة.

جمال مدينة الجزائر

هذا لا يمنع أننا وجدنا الجزائر عام ١٩٨٤ أفضل بكثير مما كانت عليه. فالروح العربية السمحة والمعاملة الأخوية الباسمة حلت محل الجفوة والحذر والغلظة، نتيجة لتعلم اللغة العربية، واستقرار الأمور في مجال الصناعة، بعد التدريب وخلق العمالة الماهرة. وقد ازدادت الفنادق في المدينة الجميلة، المتدرجة في الإرتفاع، المليئة بالمساحات الخضراء والغابات إلى أعلى مكان فيها عند كنيسة «نوتردام دافريك».

ويهوى السياح الأجانب أن يتجولوا في «القصبة» ـ المدينة القديمة ـ

بشوارعها ودروبها الضيقة المدرجة، حيث يحتفظ الجزائريون بملابسهم القومية. فالرجل يرتدي العباءة الواسعة، وهي بيضاء عادة، والمركوب أو البلغة القاسي. والسيدة ترتدي عباءة أيضاً تنسدل من ذؤابة الرأس إلى أخمص القدم، ومعها خمار أو لثام لا يبدي سوى العينين.

ومهما يكن من شيء فإن في قلبي وقلب كل مصري رصيداً من المحبة للجزائر الشقيقة ومن الإعجاب بها، وبحربها الطويلة ضد الإستعمار، وبوقفتها مع مصر في حرب النكسة وحرب الإستنزاف بعدها، بقدر ما ساعدتها مصر في حرب التحرير! وكل جفوة بين البلاد العربية إلى زوال، وكل محبة بينها إلى بقاء ركين مقين!

إيطاليا

إيطاليا مهد الحضارة العالمية الثالثة . . حضارة الفن!
بلاد الأوبرا والكوليزيوم وكرة القدم والاسباجيتي!
كنيسة الكابوسان في روما مبنية من جماجم الرهبان!
نجوم السينما في هوليوود ينبهرون بفرسان مصر!!
بركان فيزوف . . وعبرة للبشرية في مدينة بومبي!
بين جبال البوزيليب واسكيا كانت قصة جرازيللا!
كابري وبورتوفينو ومغاني الريفييرا الايطالية!
الفونتانا ديل تريفي وأجمل ميادين العالم في روما!
الفاتيكان وكنيسة القديس بطرس وروائع رافاييل!
ماذا قالت جينا لولو بريجيدا عن كرة القدم بإيطاليا؟
الريف الايطالي والحسان يشتلن الأرز بالشورت الساحر
المرأة الايطالية فيها قوام وجمال وأنوثة أفروديت!
الشارع الايطالي الصاخب والمساومة في سوق الحرامية
الروسو والبيانكو على عربة يد في شوارع إيطاليا!
رحلة العمر في قنوات فينيسيا بالجندول . . والجيتار!

أتاحت لي المناسبات الرياضية أن أتردد كثيراً على إيطاليا وأن أتجو
خلالها طولاً وعرضاً، لأتعرف من قرب على مدنها ومصايفها وريفه
ومغانيها، لاسيا وأن التجوال تم في أغلب الأحوال بالسيارة أو بالقطا

فمن خلال بطولات العالم العسكرية لكرة القدم والدورة الأوليمبية عام ١٩٦٠ ودورة البحر الأبيض عام ١٩٦٣، ورحلة النادي المصري عام ١٩٧٩ إلى سويسرة، ورحلات الجامعات إلى ألمانيا عشت أياماً حلوة في روما ونابولي وميلانو وتورينو وجنوة وباري وبسكارا وبيزا وبرنديزي وسورنتو وفلورنسة وفينيسيا وكالياري وغيرها، واستمتعت بمباهج الريفييرا وكابري واسكياوبريسكيا. أما روما فكانت بالنسبة لي دائماً مجرد محطة في الطريق إلى شمال أوروبا، أو إلى تونس والمغرب والجزائر، بل إلى وسط أفريقيا في كثير من الأحيان، بدلاً من عذاب اجتياز أفريقيا بالعرض، الذي يستغرق عدة أيام.

كنيسة من الجماجم!

والإحاطة بمباهج إيطاليا تحتاج إلى كتاب. فروما هي مهد الحضارة العالمية الثالثة في التاريخ، حضارة الفن، كما كانت مصر مهد الحضارة الأولى، حضارة الإدارة والعلم، واليونان مهد حضارة الفكر. والفن في روما لا يتمثل فقط في الكوليزيوم الذي يستدعي إلى ذهنك يوليوس قيصر والأباطرة الطغاة نيرون حارق روما وكراكالا وكاليجولا، ثم «المصارعون» الذين كانوا يسوقون العبيد والأسرى والمظاليم إلى الساحة الغشوم ليواجهوا النمور والأسود، وإنما يتمثل أيضاً في اللوحات الخالدة لرافاييل ومايكل أنجلو في كنيسة القديس بطرس بالفاتيكان، كما يتمثل في كل ميادين المدينة الخالدة الحافلة بالتماثيل الهائلة والنافورات الجميلة، وأشهرها «الفونتانا ديل تريفي» التي خلق الوعي السياحي حولها أسطورة

تقول إن الذي يرمي فيها عملة معدنية لابد أن يعود إليها! والطريف أن أطفالاً في منتهى «الشقاوة» يتجمعون في الميدان، ويخوضون المياه بملابسهم ليجمعوا ما يرميه السياح من عملات ليشتروا به في الحال «الجيلاتي» أو البطيخ أو الشمام من باعة أذكياء يلتفون حول النافورة بعربات اليد، استغلالاً للمناسبة! ولعلنا لم ننس فيلم الكونتيسة الحافية لأودري هيبورن وجريجوري بك، الذي ركزّ على هذه النافورة!

وقد تلاحظ أن الذئبة هي شعار روما، وفقاً لأسطورة ريموس ورومولوس، وقد تقوم بجولة سياحية ترى فيها ميادين بربرمين والبوبولو واسبانيا، وشوارع فينتو وناسيونالي، والكابيتول، ونهر التيبر، والكنائس العظمى، والإسكالا وحمامات كراكالا وغيرها، لكن الذي وقفت أمامه مشدوهاً متأملاً منظر لا أنساه، هو كنيسة الكابوسان في قلب روما، المشيدة كلها، سقفاً وجدراناً من جماجم الرهبان! صحيح أنها كنيسة صغيرة، لكنها من الآثار التي لا مثيل لها في العالم!

مع نجوم هوليوود!

ورغم حصيلة الذكريات الهائلة التي تركتها في نفسي الدورة الأوليمبية في روما عام ١٩٦٠ فإني لا أنسى من بينها الضجة التي أثارها نجوم السينما في هوليوود، حينما ترددوا على الملاعب، بكل الأضواء التي تثيرها النجومية. كورنيل وايلد الوسيم ممثل دور الموسيقار البولندي العالمي شوبان وغرامه بالأديبة الفرنسية المسترجلة جورج صاند، وهو مشغوف بالمبارزة، كان حريصاً على حضور مباريات السلاح وكأنه

يستعد لتمثيل إحدى روايات الكسندر دوماس أو رافيل ساباتيني. أنيتا أكبرج تشهد مباريات الملاكمة متخفية في البداية، وتثير ضجة عندما انكشف أمرها أكثر مما أثار الملاكم الفذ كاسيوس كلاي بطل وزن خفيف الثقيل ـ محمد علي كلاي فيما بعد! تينا لويس وزازا جابور تزوران القرية الأوليمبية فيختل النظام ويتدخل البوليس لإنقاذهما من براثن الأبطال! اليزابت تايلور وبينج كروسبي وجريجوري بك وروزانا سكيافينو يتابعون ألعاب القوى ببراعة، وينضم إليهم بطل العالم في السفساري بوب ماتياس الذي أصبح نجماً مثلهم، وهو صديق قديم دعوته في القاهرة، يتفرجون على الفروسية في حفل ختام الدورة. وأتيه زهواً وفخراً حين يفوز فرسان مصر بالمركز الرابع وراء فرسان إيطاليا وألمانيا وإنجلترا وقبل فرسان فرنسا وأمريكا، فيسألني هؤلاء النجوم، وهم يجلسون ورائي في مقصورة الصحافة: لماذا أنت متحمس هكذا؟ إنك تنتفض! فأقول لهم: إنه فوز كبير لفرسان مصر!

وما أجمل التهنئة حين تجيء من مثل اليزابت تايلور أو روزانا سكيافينو!!

الإسباجيتي والبيتزا والكرة!

وإذا زرت إيطاليا ولم تأكل المكرونة الإسباجيتي والبيتزا، فكأنك لم تزرها. وهناك مسابقات سياحية في التهام الإسباجيتي، وسباق بين نابولي وميلانو في صنع البيتزا. لكن كرة القدم أهم منهما عند الإيطالي، بل هي جنون إيطالي، وعندما يلتقي فريقان مثل

انترناسيونالي ميلانو واس ميلانو فإن ستاد «السان سيرو» يتحول إلى عصفورية، ويزداد الجنون حين تكون المباراة بين أحدهما وبين اليوفنتوس من تومينو، لأن اللعب يكون على زعامة كرة القدم، وفي السنوات الأخيرة انضمت روما إلى المنافسة بفضل نجوم البرازيل.

وذات يوم أحد من عام ١٩٧١ كنت في كالياري عاصمة سردينيا في مهمة رياضية، وعرض التليفزيون مقتطفات من مباريات الدوري، وكان من بينها لقطة لنجمة السينما جينا لولو بريجيدا، خلال مباراة ميلانو وفاريزي، حيث فوجىء بها الجمهور تحمل آلة تصوير، وتنزل إلى أرض الملعب، وتأخذ بعض اللقطات، واقترب منها المعلق وسألها عن سر هذه اللقطات فقالت: إني أؤلف كتاباً اسمه: إيطاليا.. مع حبي! وكتاب عن إيطاليا بدون فصل فيه عن كرة القدم فهو عمل أدبي ناقص، لأن الكرة جزء من حياة الناس!

شتلة الأرز بالشورت الساخن!

والريف الإيطالي جميل. الجبال الخضراء الشماء والغابات والمروج والبحيرات في الشمال، في سهل لومبارديا وحوض نهر البو، لا سيما كومو وجاردي، والحدائق الغناء ومزارع العنب تطالعك على طول الطريق الممهد كالحرير، والذي تشرف على صيانته شركات متخصصة، بما يجعل التجول بالسيارة متعة. وقد أتاح لي ذلك أن أرى مشهداً فريداً أيام موضة «الشورت الساخن». كنت مسافراً من كياسو على حدود سويسرة إلى ميلانو، لمشاهدة الكاتدرائية الهائلة واسكالا ميلانو أشهر دور

الأوبرا، وفوجئت «بأسراب» من الفتيات يحضن في الأرض المغمورة بالماء لشتل الأرز. وكان بعضهن يلبس المايوه والبعض الآخر يلبس الشورت الساخن، واللوحة تبدو لي كأنها صفحة من لجين نبتت فيها غابة من عاج كما قال الشاعر أبو شادي في مجلة «أبوللو» حين كانت للمجلات الأدبية سوق في مصر!

يومها كانت الموضة معطفاً طويلاً مع الشورت الساخن. وفي روما شاهدت هذه الموضة. وأنت حين تجلس على مقهى، لا سيما في فيافنيتو، كنت تتعرض لشورت ساخن يجلس إلى جوارك، وينفرج عنه المعطف أو يتهدل حوله، وخير ما تفعله في هذه الحالة أن تضع يدك في جيبك، حتى لا يحدث لك ما حدث للقس الإنجليزي جون بانكس في ملعب ويمبلدون للتنس، مع أن عمره ٦٠ سنة! لكن يبدو أن سخونة الشورت أدارت رأسه فمد يده الى حيث يجب الا تمتد، وزعم أنه لم يشعر بذلك، فاكتفت المحكمة بتغريمه مائة جنيه استرليني، باعتبار أنه فعل ذلك وهو في غير وعيه!

والجمال الايطالي يدير الرأس فعلاً! فقوام المرأة ممشوق ملفوف، ينطق بالصحة ويتفجر أنوثة، وهي صفة تشترك فيها نساء حوض البحر الأبيض المتوسط، ربما لأنه مهد فينوس وأفروديت وعشتروت ربات الجمال عند الاغريق والرومان والفينيقيين. والطبع لاتيني حام، يثور فجأة مثل بركان مترومبولي فيلقي الحمم بلا حساب، ويهدأ فجأة دون مقدمات، ذلك الهدوء الذي يسبق العاصفة. وفي ذلك أيضاً مسحة من خفة الدم!

إيطاليا على حقيقتها!

والطبع الإيطالي الحامي يتجلى لك إذا تجولت في «سوق الحرامية» في روما ـ هكذا اسمه ـ أو في حواري نابولي، لترى الحديث بالصوت العالي، وباليد والذراع والحاجب. وفي كل دقيقة يحدث اشتباك، وينفض اشتباك، ويزيد الصخب إذا كان الطوفان من الجنس اللطيف، لكن الأمور لا تتطور، لأن الطبع الحامي له سياج من طيبة القلب.

وفي أمسية جميلة في سورنتو جنوب نابولي كانت هناك سهرة عامة في مناسبة قومية، أوشكت أن تفسد عدة مرات، لولا النشاط الهائل الذي بذلته الفتيات في رقص «الترانتللا» الجماعية، بالزي الوطني الريفي. ذلك أن الشعب الإيطالي يعشق الموسيقى والرقص والجمال، وهي سمة حضارية وراثية، يقدرها السياح، لا سيما بعد تطور السياحة التي أصبحت معايشة للشعوب في ظل الحرية التي تجعل الإقامة استمتاعاً!

وقد شهدت السياح في تلك الأمسية يقبلون على باعة «سرّيحة» على عربات اليد النظيفة، لشراء الروسو والبيانكو، أي الأحمر والأبيض، أو شرائح البطيخ والشمام، المغطاة بالشاش حتى لا تتلوث! فالسياحة إنطلاق!

دروس سياحية!

إن أعمدة معبد صغير مثل معبد الأقصر أو معبد أبيدوس تفوق عدداً وجمالاً وروعة كل أعمدة الرومان، ومع ذلك فإن عدد السياح في مصر لا يتجاوز المليون، بينما هو في إيطاليا بالملايين!

ولقد عشت أياماً في الريفيرا الإيطالية، زرت خلالها جنوة وساليو ماجوري وسانتا مرجريتا وبورتوفينو وغيرها. البلاجات عامرة بالبشر طوال النهار والمقاهي ودور اللهو والشوارع عامرة بهم طوال الليل إلى مطلع الفجر، والكل مستمتع يمارس ما يشاء، بكل الحرية وبدون قيود ومضايقات، بل أيضاً دون محاولات ابتزاز، فهو أكثر ما ينفر السائح!

في كابري نفس الشيء. وهي في الصيف مرتع للشباب، وفي الخريف منتجع للكهول ومعتكف للعرسان. والسفن والعبّارات تنقل آلاف البشر من نابولي، وعند الوصول إلى «المرجلينا» ـ المرسى ـ أمامك الخيار، فهناك التليفريك للصعود إلى «أنّا كابري» في القمة، أو السيارة التي تجري في حواري ضيعة تتصاعد في الجبل الأخضر، ملتوية كالأفعى، مشرفة على مهاوٍ خطيرة مخيفة، لكن هناك مرايا عاكسة في كل المفارق والزوايا ضماناً للأمان. وفي طرف الجزيرة تقع «الجروتا أزورا» أو المغارة الزرقاء، وهي من أعاجيب الطبيعة، وعلى مقربة منها يقف عادة يخت المليونير اليوناني أوناسيس. وعلى مقربة من كابري هناك جزيرتا إسكيا وبرسكيا، وهما أقل شهرة، ولكن لا تقلان عنها جمالاً. ولعلي متحيز لهما منذ ترجمت رائعة لامارتين «جرازيللا» وهي قصة حب دامية بين شاب فرنسي عاطفي وابنة صياد في اسكيا، انتهت بمأساة، لكن مالي أتحدث عن الحب وقد نسيناه!

فيزوف ومدينة بومبي!

ومن نابولي أيضاً يمكنك أن تزور بركان فيزوف الخاور، وقد صعدت حتى فوهة البركان، وتجولت حوله، وشاهدت مدينة بومبي التي

سدرت في الفسق والمجون واستشرت فيها الخلاعة، فسلّط الله عليها حمم البركان، فداهمت أهلها وهم نيام أو سكارى، فاحترقوا وتفحموا وتجمدوا، وظلوا كما هم في سفح البركان عبرة للإنسان!!

ويتبقى أن تحاول في زياراتك لإيطاليا أن تعرج على فينيسيا، وأن تجرب ركوب الجندول في هفواتها المائية، التي لا يوجد لها مثيل في العالم. ومع الجيتار، والقمر، يحلو السمر والسهر، لتكون خير خاتمة لرحلة العمرا

ليبـريا

ليبريـا . . دولة تتكون من الزنوج المستوردين!!
اسم العاصمة منروفيا مستوحى من اسم رئيس أمريكي!
الجالية اللبنانية الكبيرة تتحكم في اقتصاد البلاد!
الانسان الليبيري لا يقاوم الرقص والجنس والبيرة!
الدخل القومي الأساسي من تأجير علم الدولة للبواخر!
ماذا تفعل الفتاة الليبيرية لكي تظل عذراء؟!
أول مكان في العالم . . مخصص «للزنوج فقط»!
أساطيل فرنسا وانجلترا تدك المنطقة لتمنع إقامة دولة!
لماذا نحّى الرئيس تولبرت وفد بلاده في الأمم المتحدة؟
جنازات ماسونية فاخرة مصحوبة بسهرات فاجرة!

ليبريا دولـة أفـريقية صغـيرة وعجيبـة! هي صغـيرة لأن مساحتهـا ١١١٣٦٠ كيلومتراً مربعاً، وتعدادها مليون و٦٠٠ ألف نسمة. تحدها شمالاً سيراليون وغينيا، وشرقاً ساحل العاج، وغرباً المحيط الأطلنطي، وهو حدها الجنوبي أيضاً لغاية مدخل خليج غينيا!

وهي عجيبة لأن كل شيء فيها مستورد، حتى أهلها، فهم زنـوج مستوردون من الولايات المتحدة الأمريكية، وتلك وحدها حكاية! ولأن دخلها القومي الأساسي يتحقق من تأجـير علمهـا للبواخـر من مختلف الأساطيل التجارية!!

والحقيقة انه لم يكن هناك دولة اسمها ليبريا حتى نصف القرن التاسع عشر. وفي عام ١٨٢١ قامت في امريكا حركة تضييق بزيادة الزنوج الأفارقة الوافدين، ورأت الجمعية الإستعمارية الأمريكية إيجاد مكان مناسب في أفريقيا الغربية لتوطين الزنوج الأمريكيين، متذرعة بحجة أنهم يتعرضون للذل والهوان على أيدي البيض. وكانت بداية الترحيل عملية فاشلة، لأن الوكلاء وجموع الزنوج النازحة إلى الشاطىء الأفريقي، الذين اشتروا الأراضي من شيوخ القبائل، أصيبوا بالحمى في هذه المنطقة الموبوءة. في عام ١٨٢١ قامت السفينة «إليجيتور» محملة بالزنوج الأمريكيين، وسارت بمحاذاة الشاطىء الأفريقي الغربي، لغاية خليج «ميسورادو»، الذي جذبهم بسحر خضرته وهدوئه، فألقوا مراسيهم، واستراحوا بضعة أيام من عناء الرحلة البحرية الشاقة، ثم نزل قادتهم لمقابلة شيوخ القبائل المحلية، وبعد المفاوضات والمساومات توصلوا إلى اتفاق بإحراز ملكية المنطقة بأسرها، إلى جانب جزيرة قرب نهر «ميسورادو» وما يقابلها من أراض تمتد إلى الداخل عدة أميال، واطمأنوا إلى إيجاد مكان يمارسون فيه الحرية بعد طول الإضطهاد والعبودية، وأطلقوا على المكان الذي استقروا فيه اسم « مونروفيا»، تخليداً لذكرى جيمس مونرو خامس رؤساء الولايات المتحدة الأمريكية. . ومعلوم أن مونروفيا هي العاصمة الآن.

حرب . . وأرض للزنوج فقط!!

إلا أن زعماء القبائل الذين باعوا الأرض خالجهم الندم فبدأوا يناصبون الوافدين الجدد العداء في محاولة لاستعادة أراضيهم، ونشبت

حروب انتهت إلى انتصار الزنوج الأمريكان، الذين عمدوا إلى شراء أراض جديدة، كان من بينها شريط الأرض الداخل في الماء، واسمه «جراند كيب» الذي يتضمن عقد شرائه ألا يباع أبداً إلى أفراد أو حكومات أجنبية. وهذا هو أساس المادة الخامسة من دستور ليبريا التي تنص على أن هذه المستعمرة تهدف إلى إيجاد مأوى لأطفال أفريقيا المشردين المضطهدين، وعلى ذلك فإنه لا تمنح صفة مواطنة هذه الجمهورية لأي إنسان إلا إذا كان زنجياً أو يتحدر من أصل زنجي! وبذلك فإنها أول مكان في العالم يمكن أن يعلق لافتة تقول: للزنوج فقط!!

من يحكم ماذا؟

لغاية ذلك الوقت لم تكن هناك دولة، وإنما مستعمرات استيطانية يعين لها حكام من قبل الجمعيات الأمريكية التي تقوم بتوريد الزنوج. لكن هذه المستعمرات قررت أن تتخذ تحت لواء حكومة واحدة، لاسيما وأنها جميعاً متجاورة، وإذا ببريطانيا وفرنسا تنصحان رعاياهما ألا يدفعوا رسوماً جمركية أو ضرائب، وهم يسيطرون على التجارة، فاستولت الحكومة على أموالهم، وجاء الرد في صورة مدافع من الأساطيل الإنجليزية والفرنسية دكت الأرض وأثارت الحرائق وحولت المنطقة إلى خرائب! وفي عام ١٨٤٧ قام جوزيف روبرتس بحركة توحيد للبلاد انتخب على أثرها رئيساً لجمهورية ليبريا، التي تكونت على يديه، من الزنوج المستوردين!!

«البنت بيضا بيضا»!

وليبـريا الحالية نشأت عام ١٩٤٣ تحت رئاسة وليام تومبان الذي ظل رئيساً ٢٨ سنة، ثم خلفه وليام تولبرت عام ١٩٧١ إلى أن قام السيرجنت صامويل دو الرئيس الحالي بانقلاب عام ١٩٨٠ استولى به على الحكم.

والمسيحية هي الدين الرسمي لجمهورية ليبـريا، والمسلمون زهـاء ٤٠٪ من السكان، وحرية العبادة مكفولة للجميع، وهناك إسرائيليون لكن ليسوا من المواطنين، وإنما هم خبراء في الزراعة. والخط السياسي الليبيري يتفق مع الخط المصري، الملتزم بسياسة السلام العادل في الشرق الأوسط، وحقوق الفلسطينيين، وهـو نفس الخط العربـي والأفريقـي. وللرئيس السابق تولبرت موقف رائع في هذا الصدد. فذات يوم صوّت الوفد الليبيري في هيئة الأمم المتحدة لصالح إسرائيل، فما كان منه إلا أن نحّى الوفد بقرار تاريخي!!

وفي ليبـريا ٢٨ قبيلة فقط نظراً لأن مساحتها صغيرة. ولكل قبيلة لغتها وعاداتها وتقاليدها، لكن اللغة الرسـمية هي اللغـة الإنجـليزية، وأكبر القبائل هي قبيلة «باسا» الساحلية، لكن هناك قبائل أخرى ذات أهمية ونفوذ مثل جباندي وجولا وماندينجو إلى جانـب قبائـل المنطقـة الشرقية ومنها الكرو، وجربوا، وكراهن. ولدى هذه القبائل تقاليد غير مألوفة بين زنوج أفريقيا، ومنها أن البنت التي ترغب أن تظل عذراء إلى أن تتزوج، تطلي نفسها باللون الأبيض، الذي يعتبر إنذاراً لأي شاب بعدم الإقتراب منها أو المساس بها، وإلا فإن الموت هو جزاؤه! أوليس

هذا عجيباً في قارة يسود فيها التعامل الجنسي ببساطـة شديدة وفي سن مبكرة؟!

لبس المرأة وأشهى طبق

ولبس المـرأة في ليبريا هو اللبس الأفريقـي العـادي، ثلاث قطـع قماش متساوية تقريباً، ومن نفس اللون، وبدون ربـاط ولا خياطـة، تُلَفُّ واحدة منها حول الأرداف لتصبح جونيلاً أو مئزراً، والثانية حول الوسط لتصبح تنورة أو بلوزة، والثالثة حول الرأس لتصبح توربون!

وشعب ليبريـا يعيش على «اليام»، ذلك النبات الدرني الذي يشبه البطاطا ويصنعون منه عجينة كالعصيدة، لكن الطبق الذي تشتهـر به البلاد اسمه «بالم بتر»، يتكون من قطع لحم ودجاج صغيرة، في حساء مضاف إليه مادة من شجر المر، وكمية كبـيرة من «البلي بلي» أو الشطـة اللاسعة وبعض البهارات. والطبـق حسـن النكهـة لكنـه يوقف شعـر الرأس!

هل أنت لبنانـي؟

بعد ١٠ ساعات طيران هبطت بنا الطائرة في مطار مونروفيا، وسـط الخضرة اليانعة إلى آخر مدى النظر، فالبلاد كلها عبارة عن غابة كثيفة تراها من بعد، ويحسن ألا تقترب فيها، لأن أحداً لا يدري ماذا يجري بداخلها، لاسيما وأن رحلتنا هذه جاءت بعد انقلاب أفريقيا الوسطى،

الذي ضبطت خلاله جثث بشرية في ثلاجة الرئيس بوكاسا!

الطقس حار خانق من شدة الرطوبة، وسيارات التاكسي مصطفة بنظام خارج المطار لنقل الركاب في أطول مشوار، لأن المسافة بين المطار والمدينة زهاء ٤٠ ميلاً ويقول لي السائق: هل أنت لبناني؟

ذلك أن السحنة عربية، و٩٠٪ من سيارات التاكسي مملوكة للجالية اللبنانية النشيطة وهي ٦ آلاف نسمة، يحتكرون التجارة، ولديهم التاكسيات ومحطات البنزين والمحلات التجارية والبنوك وكل شيء. وهو وضع شائع في غرب أفريقيا، لمسناه من قبل في غانا وزائير، قبل تصفية الجاليات الأجنبية، نتيجة لتحكمها في المصائر الإقتصادية للبلاد. وهذا هو ما يخشى أن يحدث في ليبريا أيضاً، فالأسعار لا تطاق، وارتفاعها مستمر، حتى زادت عن الأسعار في نيويورك، وعلت الأصوات تطالب اللبنانيين علناً بمراعاة «عدم إضعاف البقرة الحلوب»!

تأجير علم البلاد للبواخر!

وبالرغم من وجود الماس والفحم والأخشاب في ليبريا، وبالرغم من كرم الطبيعة التي تنتج لها أشجار النخيل والأناناس والفواكه الإستوائية، وتهييء لها تربة صالحة للزراعة بأدنى الجهود، فإن معظم الدخل القومي يجيء من تأجير العلم الليبيري لبواخر الأساطيل التجارية لمختلف الدول. ولو أنك وقفت تلاحظ إحدى القوافل العابرة لقناة السويس لوجدت عدداً كبيراً من البواخر وناقلات البترول ترفع علمي ليبريا وبناما، زعيمتي تأجير الأعلام للسفن!

أين الإستثمار العربي؟

وفي ليبريـا وجدت شكوى أخرى من العرب، إلى جانب الشكوى من الإستغلال اللبناني التجاري. وقد أثير الموضوع عندما لاحظت وجود خبراء من إسرائيل في بعض الصناعات وفي الغابات والزراعـة، وكان الرد إنه معونة إسرائيلية، في وقت كنا نتوقع فيه تدفق رؤوس الأمـوال المصرية والعربية، للمشـاركة مع رأس المال الوطنـي في مشروعـات استثمارية لاسيما في مجال الزراعة والمناجم. فهناك كميات ضخمـة من خامات الحديد والذهـب والماس والرصـاص والمنجنيز، إلى جانـب ٤ ملايين فدان من الأشجار في الغابات تحتوي على أجود الأخشاب في العالم، فضلاً عن استصلاح الأراضي وزراعتها، على نحو ما فعلـت الصين الشعبية في مساحـات شاسعـة قامـت باستصلاحهـا وزراعتهـا بالأرز. أما أمريكا فتفضل أن تكون مساعداتها في شكل معونات، هي في الواقع أساس صمود الشعب الليبيري إزاء الفاقة والبؤس! وهو شعب لا يعمل مثل معظم شعوب أفريقيا، وكل همه أن يرضى بالكفاف ويبقى على قيد الحياة، طالما أن هناك إيقاعاً ورقصـاً وبيرة للشرب والنسيان، وجنساً للاستمتاع!

جنازات ماسونية فاخرة

وللمحفل الماسوني أو التحالف المعمداني العالمي لأفريقيا وضع مميز في ليبريا، منذ تولي الرئيس السابق تولبرت رئاسة المحفل العالمي ليكون أول رئيس أسـود له عام ١٩٦٥. وأي عضـو في المحفـل، ويكاد كل

الليبيريين يكونون أعضاء فيه، تقام له جنازة فاخرة إذا توفي. وقد شاهدت واحدة منها، حيث اصطفت فرق الموسيقى النحاسية والوترية، تتلوها مجموعة من الآنسات يرتدين ملابس الحزن البيضاء، ثم مجموعة من الرجال يلبسون الردنجوت، وقد تمنطق الجميع بالأوشحة الماسونية، ويتقدم رئيس الموكب كل هؤلاء واضعاً تاجاً على رأسه!

وبعد مسيرة هذا الموكب المرح إلى المدفن، يوارى الفقيد التراب، وتبدأ البيرة والرقص الصاخب، ويختلط الحابل بالنابل، وينقلب الموقع إلى غابة بشرية تنطلق فيها الغرائز والشهوات الكامنة في أعماق ذات الإنسان المتخلف!

نكتة كروية!

أثناء وجودي في مونروفيا دعاني رئيس أحد الأندية لمشاهدة مباراة كروية، انهزم فيها نادٍ اسمه «ذي إنفينسيبول» - أي المنيع أو الذي لا يقهر - ١١/ صفرا! قال لي الرجل: ما رأيك؟

قلت: غيروا اسم النادي!!

نيجيريا

نيجيريا أكبر بلاد أفريقيا الخضراء
٣٧ مرشداً مصرياً يكافحون التكدس في ميناء لاجوس!
الفتاة في بعض القبائل تستحم طوال عمرها مرة واحدة!
عملية تعذيب لفريق المحلة رداً على تدخل مصر في بيافرا!
عندما أيقظوني ليلاً قائلين. إنهم يقتلون المذيع المصري!
رئيس الجمهورية يحدثنا من الشارع ونحن في الطابق الرابع!
ليس في الدنيا أسوأ من مرور القاهرة إلا مرور لاجوس!
تعايش سلمي ووطني بين ٤٠ مليون مسلم و ٤٠ مليون مسيحي!
عندما خاف المدرب المجري ماجيار أن يؤكل في الطريق!
الهاوسا واليوربا والإيبو والكانيبو أكبر قبائل نيجيريا!
أجمل رقص شعبي في العالم في افتتاح الدورة الأفريقية!
الحر في لاجوس شديد ونسبة الرطوبة تبلغ ١٠٠٪!
القلم وحده لا يكفي الناقد فلا بد من مناديل ومناشف!
نيجيريا تنتج زهاء ٢,٥ مليون برميل بترول في اليوم!

منذ ٢٠ سنة زرنا نيجيريا لأول مرة لنلعب معها مباراة كروية ودية، عقب انتهاء بطولة دول أفريقيا في غانا، وكسبناها ٦/ ٢. وكنا ننزل في فندق على مشارف المدينة تحيط به الغابة، بالمعنى المخيف الذي فهمناه من أفلام طرزان. وقرأنا في الصحف أن عضواً ببرلمان دولة

مجاورة ذهب إلى دائرته الإنتخابية بعد حل البرلمان، ليجلد الدعوة لانتخابه فأكله الناخبون، لأنه لم يحسن تمثيلهم في الدورة السابقة!!

وأصيب رئيس البعثة بحمى وطلب من يوسف الشريعي مدير الفريق أن ينقله إلى مستشفى أو يحضر له طبيباً، وكان الوقت متأخراً. وسأل يوسف في الفندق فعلم أن أقرب مستشفى على بعد ٣٠ كيلومتراً، ولا بد من التوغل في الغابة مسافة ما حتى يمكن الوصول إليها. ولما تذكر حادث النائب «المأكول» ارتعش، وطلب من المدرب المجري السمين «ماجيار» أن يذهب هو لإحضار الطبيب، لكنه كان رجلاً ذكياً فقال له بانجليزية مكسّرة: يوسف بك أنا راجل سمين يعمل واحد شوربة كويس، لكن أنت راجل ضعيف رفيع موس ممكن حد يدبحك!!

إلى هذا النحو كانت فكرتنا عن أفريقيا كما صورها لنا الاستعمار في كتاباته وأفلامه، وقد زرنا نيجيريا بعد ذلك مراراً فوجدناها رائعة، لكن فيها عيوب الدول النامية، الناجمة أصلاً عن غيبة الكوادر الإدارية ذات الكفاءة، وفقاً لمخطط إستعماري واضح.

والحقيقة ان نيجيريا هي أكبر دول أفريقيا، وتعدادها ٨٠ مليون نسمة، نصفهم من المسلمين، وإن كان التعداد في الدول النامية محل شك على الدوام! والبلاد تضم ١٣ ولاية، وحدودها الكاميرون شرقاً، والنيجر شمالاً، وبنين ـ داهومي سابقاً ـ غرباً، والمحيط الأطلنطي جنوباً، ومساحتها ٣٥٦٧٠٠ ألف ميل مربع. وعملة نيجيريا هي

النيرة، وأحد وجهيها مكتوب بالإنجليزية والآخر بالعربية، والنيرة ١٠٠ كوبو وهي تساوي دولاراً.

أكبر قبائل أفريقيا

وفي نيجيريا مثلما في كل بلاد أفريقيا عشرات القبائل، لكن القبائل النيجيرية ذات تعداد وعزوة وسؤدد لا مثيل لها، وأشهرها الهاوسا واليوربا والإيبو والكانيبو، وكل منها تضم الملايين. وإذا اندلعت شرارة الحرب بينها كان الضحايا مئات الآلاف، كما حدث في صدام اليوربا والإيبو. والرياضة في نيجيريا سياسة، فهي التي تؤدي إلى تمكين الوحدة الوطنية. وفي حفل افتتاح الدورة الأفريقية في لاجوس عام ١٩٧٣ لاحظت أن كل ولاية قدمت رقصتها التقليدية، وبعض هذه الرقصات خرافي، لامثيل له في العالم جمالاً وسرعة ومرونة ورشاقة ومهارة، وعند تسليم الميداليات للفائزين في كل مسابقة روعي أن يحملها في كل مرة ثلاث فتيات من ولاية مختلفة، بملابسهن المحلية. وكل ذلك لكي تحل النعرة القومية محل التعصب القبلي، الذي يؤدي إلى تفتيت الوحدة الوطنية.

وينتمي الرئيس السابق سيهو شيجاري إلى قبيلة الهاوسا وهي من قبائل الشمال التي تدين بالإسلام مثل قبائل اليوربا، وخاصة في ولاية كانو. ومعنى اسمه: الشيخ الشجرة. وهم يترجمون المعنى فيقولون إن الاسم يعني أن «سنته خضراء»، وأنه قَدَم السعد، من قبيل التيمّن قطعاً! وقد أطاح به انقلاب الرئيس بوهاري عام ١٩٨٣.

مرة طوال العمر!

وتختلف القبائل في عاداتها وتقاليدها. فالقبائل الإسلامية شديدة المحافظة على مبادىء الاسلام وتقاليده، فتؤدي الفروض من صلاة وصوم وزكاة وحج، وفي موسم الحج تحدث أزمة في شركتي أير نيجيريا ومصر للطيران، ولها خط منتظم إلى كانو ولاجوس بسبب تكالب النيجيريين على الحج، بشكل منقطع النظير. وهم أيضاً لا يشربون الخمر، ونساؤهم محجبات، والجنس عندهم خاضع للدين، بينما هو «سداح مداح» في القبائل الأخرى، لا رابط له ولا ضابط إلى جانب تناول البيرة من الصباح إلى المساء والرقص بلا كلال.

ومن أعجب التقاليد في بعض القبائل أن المرأة تستحم في حياتها كلها مرة واحدة، يوم تولد، أما المرة الثانية فيوم تموت. وهي تتفرغ لدهان جسمها بالزيت والزبدة والسمن أحياناً لكي يظل لامعاً، وتعقص شعرها في شكل قرون رفيعة جداً، هي من مقاييس الجمال، فكلما ازداد عددها ازداد جمال المرأة، التي قد تنفق يوماً بأكمله في أخذ زينتها بهذه الطريقة. لكن الفارق واضح: فالمرأة المسلمة التي تتوضأ وتصلي كل يوم مراراً تتضوع بعبق المسك والطيب، أما التي تستحم مرة واحدة في حياتها فإن رائحتها تفوح على بعد أمتار لتثير الغثيان!

لاجوس مدينة رهيبة!

وقد حفلت إقامتنا في لاجوس أثناء الدورة الأفريقية الثانية عام ١٩٧٣ بالطرائف. لكن لاجوس نفسها تستحق وقفة قصيرة. فتعدادها ٤ ملايين نسمة، وبها مليون سيارة، ورقعتها واسعة، وتقوم على أربع جزر تربطها كباري حديثة تكلفت في ذلك الوقت زهاء ١٣ مليون جنيه، لأنها أصلاً تقوم على خور كبير أو تشع من مياه خليج غينيا الممتد من المحيط الأطلنطي. وقد كنا نحن الصحفيون نقيم في جزيرة «أبابا»، وبعض رؤساء البعثات وكبار الضيوف في جزيرة «فكتوريا»، والقرية الأوليمبية التي تضم اللاعبين والاداريين والمدربين في جزيرة «لاجوس»، والحكام في جزيرة «إيكوى»، والمسافات تمتد أميالاً طويلة ولذلك كانت الاتصالات ـ وهي من واجب النقاد ـ غاية في الصعوبة، بل إنه إذا كان المرور في القاهرة غاية في السوء فليس أسوأ منه في الدنيا سوى المرور في لاجوس!

أسلحة جديدة للناقد!

وكان علينا أن نختار بين مشاهدة المباريات وزيارة فرقنا وإداريينا حيث يقيمون، لأنه لا وقت لأداء المهمتين معاً، فأكتفينا بلقائهم في الملاعب بين الحين والآخر، وإن تعذر علينا لقاء لاعبي كرة القدم في الاستاد، لأن مقصورة الصحافة معلقة في أعلاه، ولا نكاد نصل إليها إلا في حالة إعياء شديد، نظراً لصعود زهاء ألف درجة من السلالم، وهي مع الحر والرطوبة لعنة وعذاب، لا سيما وأن نسبة الرطوبة

١٠٠٪، فالجو خانق.

إن سلاح الناقد عادة هو قلمه! ولكن القلم وحده لم ينفعني لاجوس، حيث كان لا بد لي من الاستعانة بأسلحة جديدة لم نتع عليها في مصر. كنت أدخل الاستاد حاملاً حقيبة صغيرة، فيها عدد مناديل اليد، ولفة أو أكثر من المناديل الورق، وفوطة عادية لتجف العرق عندما تنفد المناديل، ثم «شلتة» صغيرة لأجلس عليها ف المقاعد الأسمنت!

إنهم يقتلون المذيع!

وكانت الدورة في يناير ١٩٧٣ عقب دورة ميونيخ الأوليمبية الـ شهدت مصرع بعض أعضاء بعثة إسرائيل على يد الفدائ الفلسطينيين، ولذلك اتخذنا احتياطات أمن مكثفة لحماية البع المصرية في لاجوس، خوفاً من أن ترد اسرائيل الطعنة. وكنا نح النقاد والمعلقين في الإذاعة والتليفزيون نقيم في عمارات مدنية جدي خصصت لنا مؤقتاً، على أن تكون مساكن ممتازة فيما بعد، وكل يشغل غرفة. وكنت لا أنام بسبب شدة الحر والرطوبة، ر المروحة المسلطة على سريري، ورغم أني أرقد عاري الصدر، لا أتصبب عرقاً، وأتلوى أرقاً!

وذات ليلة سهرنا إلى وقت متأخر، ودلفت إلى سريري. وما غفوت حتى استيقظت على «شيء» يشد أصبع قدمي، فاستبد الرعب، وخفت أن أستطلع الأمر، فاشتد الشد! وكدت أصر

مستغيثاً، ولكن يداً أطبقت على فمي، فازددت رعباً! وهدأ روعي عندما ظهر «الشيء» فإذا به الزميل يحيى فكري رئيس القسم الرياضي بمجلة المصور، الذي أشار لي بيده لكي ألوذ بالصمت!

وقال لي في همس: إبق كما أنت، وتطلّع إلى الشقة المقابلة! إن هناك محاولة لقتل الزميل المذيع الرياضي فهمي عمر!!

وتطلعت، فوجدت زنجياً عاري الصدر يتسلق المواسير، وينزل في شرفة غرفة فهمي عمر. وقال لي يحيى فكري: هيا بنا نتحرك لكي ننقذه؟ هل سنتركه هكذا يقتل ونحن نتفرج؟

وحاولت أن أنهض من السرير وأقف على قدمي، ولكن ركبي كانت قد سابت! وقبل أن أنكشف انجلى الأمر والحمد لله. فقد رأينا فهمي عمر يفتح الشرفة للرجل، ويتناول منه شيئاً، ويضحك ويشكره!

كان الزنجي من رجال الأمن النيجيري المكلفين بحراستنا، وقد طلب منه فهمي أن يصعد لأخذ مفتاح الغرفة من الباب، الذي انغلق فجأة وبه المفتاح من الخارج، ولم تكن هناك وسيلة سوى تسلق المواسير، لأن باب الشقة موصد من الداخل! وذهبنا إلى فهمي ورويناله الحكاية فقال ضاحكاً: يعني كنتم ستتركونني أموت؟ أهنئكم على هذه الشجاعة!!

نحن فوق والرئيس تحت!

في هذا الوقت كان رئيس الجمهورية هو يعقوب جوون. وذات يوم انتهينا من طعام الغذاء وذهبنا إلى غرفنا لنستريح ساعة، فسمعنا

ضجة، وهرعنا إلى نوافذ غرفنا، فشاهدنا موكباً ضخماً، وإذا برئيس الجمهورية ينزل من سيارته، ويفتش على المطعم ثم المطبخ ليتأكد من وفرة الطعام ونظافته. وكنا في الطابق الرابع، وصفقنا له، فتطلع إلينا ودار بينه وبيننا هذا الحديث، ونحن فوق وهو تحت في الشارع:

ـ مصريون؟

ـ نعم.

ـ هل الطعام كفاية؟

ـ وزيادة.

ـ والنوع؟

ـ طيب.

ـ هل كل شيء على ما يرام؟

ـ تمام!

ـ والحر؟

ـ شديد

ـ هذا لا حيلة لنا فيه! ليس بيدنا. على العموم أتمنى لكم إقامة سعيدة!

بيافرا وتعذيب المحلة!

لكن العذاب الحقيقي تعرضنا له في رحلتنا إلى نيجيريا عام ١٩٧٥ مع فريق المحلة الذي كان عليه أن يلعب مع «رينجرز إينوجو» في بطولة أندية أفريقيا. وكان المحلة قد فاز على أرضه ٢/ صفر. نزلنا

بفنـــدق من الدرجـــة الثالثـــة بلاجــوس، على خلاف ما تقضي به اللوائح التي تفـرض نزول الضيوف بفنـادق من الدرجـة الأولى. وظللنا يومين لا يسأل عنا أحد. ثم علمنا أن النية مبيتة على سفرنا إلى «إينوجـو» عاصمـة الـولاية الشـرقية ـ وهـي بيافـرا سابقـاً ـ بالسيارة، والمسافة ٥٠٠ كيلومتر أي ٩ ساعات! وذهبـت مع محمـد حبيب رئيس البعثة إلى السفارة المصرية، وأوضحنا للسفير استحالـة ذلك، وضرورة السفر بالطائرة، وإلا سنعود إلى القاهرة. وبعد أخـذ ورد، وتهديد ووعيد قبلوا على مضض. ووصلنا إلى إينوجو فوضعونا في فندق لم يتم بناؤه، وليس به مرافق ولا غذاء ولا ماء، وكل ما حولنا عداء في عداء، ليس فقط في التصرفات بل حتى في النظرات، والسبب أن هذه الولاية ذاقت من الطيران المصري الويلات، فهو الذي أخمد ثورة بيافرا بناء على طلب نيجيريا من جمال عبد الناصر!

وأنفقنا ثلاثة أيام عصيبة، نأكل من المعلبات التي حملناها معنا من القاهرة، معلبات الجبن والمربى والفول المدمس والزيتون والحلاوة الطحينية، في الوجبات الثلاث، ونغتسل بالطشت والابـريق من عنـد الجيران كأهل الريف. ثم يجيء يوم المباراة فنخرج من الفنـدق في موكب حربي، فأمامنا وخلفنا مصفحات ومدافع رشاشة، وعلى جانبي الشارع جماهير ثائرة تشير إلينا متوعدة! شيء مخيف يهد الأعصاب، إلى أن وصلنا إلى الملعب! بحر من البشر هائج ثائر، وجو عدائـي، وحكم ضلالي، يصفـر على أي لمسة من لاعب المحلة، ويتغاضى عن ركل لاعبيها بالقدم، ولطمهم باليد، والنط في ظهورهم بالعنف، حتى فاز الرينجرز ٣/ صفرا ولأول مرة حمدت الله على أن فريقاً من

بلدي قد انهزم، فلو فاز لما خرجنا من الملعب إلا جثثاً!!

٣٧ مرشداً مصرياً!

وعدنا إلى لاجوس، ورفعنا تقريراً للسفير المصري محمد مرسي شقيق النجم المسرحي محمود مرسي، الذي احتج على هذه المعاملة وهدأ من روعنا على أساس أن هذه رواسب من حكاية بيافرا، لكن العلاقة بين مصر ونيجيريا سمن على عسل، والتعاون بينهما وثيق، حتى أن المصريين هم الذين يحاولون إنقاذ ميناء لاجوس من التكدس الرهيب، الذي لا مثيل له في العالم. فهناك ٣٧ مرشداً مصرياً يعملون في الميناء، بهمة وإخلاص هما محل إعجاب.. والأصل في التكدس كان طلب مليوني طن اسمنت دفعة واحدة، وهي كمية تفوق طاقة الشحن والتفريغ ببعيد. وقد استغل بعض أصحاب السفن هذه الفرصة، لدرجة أن بعضهم عمد إلى شراء سفن مستهلكة، وشحنها بالاسمنت وارسالها إلى لاجوس، حيث تقف في الصف وتحصل على غرامات يومية تعوّض ثمنها ببساطة!!

تطور مستمر في نيجيريا

على أن التطور مستمر في نيجيريا لأنها دولة غنية، فهي تنتج مليونين و٣٠٠ ألف برميل بترول يومياً، مما يجعلها سابع دولة تنتج البترول في العالم، والثانية في أفريقيا بعد ليبيا، كما أنها دولة زراعية كبيرة، و٨٠٪ من سكانها يعملون بالزراعة، وهي تزرع الأرز وقصب السكر واليام والقطن والفول والكاكاو وتصدر المطاط والأخشاب.

ولديها معادن كثيرة منها الفحم والذهب والكولومبيت والفضة والرصاص والزنك وغيرها، وفيها صناعة مزدهرة للمنسوجات والأدوات الكهربائية والأثاث والصابون والبيرة والملابس وغيرها.

لكن مشاكل لاجوس تتعقد يوماً بعد يوم رغم الكباري والأنفاق الهائلة والفنادق الفاخرة. وفي عام ١٩٧٨ زرتها مرة أخرى، ولم نجد مأوى سوى بيت الضيافة الرسمي الذي أنشىء لاستضافة رؤساء الدول في أحد مؤتمرات القمة، ونام المهندس حسن عامر في غرفة سونجور رئيس السنغال، والزميل أحمد مكاوي في غرفة عمر بونجو رئيس الغابون، ويحيى فكري في غرفة كاوندا رئيس زامبيا، وأنا في غرفة سيسي سيكو موبوتو رئيس زائير وكنا نتخاطب بهذه الأسماء، إلى أن خسرنا المباراة صفر/ ٤ ففقدنا روح المرح!!

وفي آخر مرة عام ١٩٨٠ كانت نيجيريا تنظم نهائي بطولة دول أفريقيا، ولما وصلنا لم نجد مكاناً في أي فندق، ونام فريقنا القومي ٤٨ ساعة على الأرض، في أحد الفنادق التي اعتصم بها إلى أن وجدوا له أماكن! أما نحن النقاد فاستأجرنا فندقاً صغيراً «من بابه»، به غرف تكفينا، ومطعم نحدد له يومياً نوع الغذاء!

لكن ألذ غذاء تناولناه كان في الطريق إلى إيبادان، حيث أقيمت بعض المباريات، وهو السمك المجفف الصغير، الذي يباع مغلفاً في أوراق الموز، والواحدة تكفي «غموساً» للقمة! ولا أدري حتى الآن هل كان حلو المذاق حقيقة أم أن الجوع كافر، وأن الخبز الحاف رائع للجائع، وأشهى من الديك الرومي للشبعان؟!!

تـركيا

تركيا قلعة الاسلام المنيعة على شاطىء البحر الأسود!
أشهر المعالم السياحية والتاريخية في استانبول وأزمير و إيفيس!
آثار شامخة رومانية و بيزنطية و إسلامية على مر العصور!
المرأة التركية أو الشركسية ساهمت في تحسين النسل العربي!
جذور تركية في البيوت العربية نتيجة للحكم العثماني الطويل!
قنبلة وهمية في طائرة أصابت الفريق المصري الكروي بخضة!
اليخني والضولمة والشركسية أشهى أطباق المائدة التركية!
أسطورة حافر جواد محمد الخامس في عمود مسجد آيا صوفيا!
أزمة في ملهى تقسيم على البوسفور بسبب أغنية لأم كلثوم!
رحلات بحرية للاستمتاع بجمال البوسفور وجزيرة بيوك أضا!
قتلى وجرحى بسبب التعصب بين فريقي بشكتاش وغلطة سراي!
سائح في جنيف يقول لي: لا يعرف تركيا من لم يأكل البقلاوة!

ترددت على تركيا كثيراً في المدة من ١٩٥٣ إلى ١٩٦٣ لأني كنت سكرتيراً عاماً للجنة الأوليمبية الجديدة وأميناً لصندوق الاتحاد المصري لألعاب القوى، مما أتاح أن أشارك في عقد اتفاق على لقاء ثلاثي بين مصر وتركيا واليونان، في ألعاب القوى، يقام سنوياً بالتبادل بين العواصم الثلاث: القاهرة وأنقرة وأثينا. وفي نفس هذه الفترة كانت مصر حريصة على الاشتراك في بطولة العالم العسكرية لكرة القدم، حيث التقيت مع

تركيا عدة مرات. وفي سنة ١٩٧١ نظمت تركيا دورة البحر الأبيض في أزمير، فأنفقنا في تركيا زهاء ثلاثة أسابيع. واستمرت زياراتي لتركيا منتظمة حتى عام ١٩٧٧.

بلاد متمسكة بالإسلام

ولعل أول ما لاحظته هو تمسك الأتراك بالإسلام. إن انتفاضة أتاتورك نحو الفُرْنَجَة، واستعمال الحروف اللاتينية، والتخلص من عوامل التخلف، لم تؤثر في ضمائر المواطنين، فازدادوا تمسكاً بالإسلام، وأصبحت تركيا قلعة الإسلام على البحر الأسود. والأتراك يؤدون الفرائض، ويحجون إلى بيت الله الحرام، ونساؤهم يلتزمن الإحتشام، وما زالت الكثيرات منهن يضعن اليشمك الأبيض على الوجه، وهو أقدم صور الحجاب. وتزداد هذه الصورة جلاء داخل البلاد، وخاصة لمن يسافر بالسيارة من أنقرة إلى استانبول، أو إلى أزمير، أو بورصا على ساحل البحر الأسود، وكلها رحلات طويلة تخترق جبال وهضاب الأناضول، لكن الأوتوبيسات الفاخرة المجهزة تهوّن من العناء ومن طول المسافة، لاسيما وأن المزارع الشاسعة والحدائق الغناء وبساتين الفاكهة تطالع المسافر على طول الطريق، مكونة لوحة من جمال الطبيعة تضاف إلى جمال المرأة الشركسية، التي طالما ساهمت في تحسين النسل في الدول العربية!

فلست أتصور بيتاً مصرياً أو عربياً يخلو من جذور تركية، زرعت إبان الحكم العثماني الطويل للدول العربية، الذي بدأ في القرن

الماضي، وامتد إلى القرن الحالي في عدد كبير منها، وخلق امتزاجاً بين الشعب التركي والشعوب العربية، ساعد على تمكينه عنصر هام هو وحدة الدين.

معالم سياحية جميلة

وفي تركيا معالم سياحية ومزارات تاريخية يجب ألا تفوت السائح. فاستانبول الآن هي القسطنطينية عاصمة الدولة البيزنطية، وهي الأستانة عاصمة الدولة العثمانية ومقر الخلافة الإسلامية، كما أنها فخر دولة أتاتورك الحديثة فيما بعد. والجوامع أو المساجد الرائعة الآن هي كنائس زمان، وأشهرها جامع أياصوفيا، الذي يتوسطه عمود من الرخام انطبع عليه حافر جواد محمد الفاتح فيما يشبه الأسطورة، التي تجعل من القائد المسلم نفسه أسطورة! والجولة لمشاهدة كل الجوامع الكبيرة والاستماع إلى تاريخها وتأمل صحونها وأعمدتها ونفائسها تحتاج إلى يوم كامل.

وإذا وقفت في شرفة أحد الفنادق الكبرى المطلة على البوسفور، وأمكنك أن «تنتزع» عينيك لحظات، من حمامات السباحة الفندقية، حيث تستلقي الغانيات في أشعة الشمس، بحثاً عن لون الحنطة اللاتي ينشدنه، فسوف ترى جمال البوغاز، والتقاء البحر الأبيض بالبحر الأسود، وموقع معركة غاليوبولي التي حولت مجرى الحرب العالمية الكبرى، بانتصار الحلفاء على الألمان. واستانبول في الليل لؤلؤة

مضيئة، ولياليها ومطاعمها وعلبها الليلية مقصد السياح من كل أنحاء العالم.

وأذكر أن الاتحاد التركي لألعاب القوى دعا فريقي مصر واليونان إلى عشاء في ملهى «تقسيم» العظيم ـ على وزن مكسيم باريس ـ ولما دخلنا كانت مطربة تغني بالتركية، فتحولت فوراً إلى العربية وغنت لأم كلثوم، فكانت مجاملة لطيفة للمصريين لكنها أثارت أزمة! فقد احتج اليونانيون على التفرقة في المعاملة ولم يهدأوا إلا عندما عزفت لهم الموسيقى مقطوعة بيزوكيا يونانية!

يوم بجزيرة بيوك آضا

وهناك رحلة بحرية يجب ألا تفوت السائح، حيث تقلع العبّارات بانتظام من ميناء استانبول إلى الجزر المنتشرة في بحر مرمرة، وأشهرها بيوك آضا. ومع لفيف من نجوم فريق الكرة استمتعنا بهذه الرحلة، وأنفقنا نهاراً كاملاً في الجزيرة الساحرة، حيث ركبنا الخيل، ولعبنا الكرة بملابسنا كاملة، وضحكنا كالأطفال، واصطدنا السمك، وتناولنا غذاء شهياً قوامه الشواء. وكان الخطأ الوحيد أننا نسينا أن أمامنا مباراة كروية عنيفة بعد ٤٨ ساعة في أنقرة، لكن الله سلّم وكسبنا المباراة ٢/ ١، والانتصار يغطي دائماً على الأخطاء!!

حكاية قنبلة وهمية!

لكن شيئاً غريباً حدث في هذه الرحلة. بعد أن لعب فريقنا مباراته في أنقرة، وذهب ليستقل الطائرة لكي يعود إلى القاهرة، فوجئنا بتأجيل السفر لأن انفجاراً حدث في الطائرة! وسرعان ما راجت إشاعة بأن الفريق المصري كان مقصوداً بها! وجرت اتصالات بالقاهرة لإيفاد طائرة خاصة، مدنية أو عسكرية، لنقل الفريق، لكن السلطات التركية أكدت أنه حادث طيران عادي، فركبنا الطائرة التالية، ووصلنا بسلام، لكننا كنا في حالة رعب، غذاها الإعلام، بدعوى أن الاستعمار يناوىء حركة التحرير المصري!!

اليوم الذي تأخرناه في السفر أتاح لي أن أحضر المباريات النهائية لبطولة الجيش التركي في المصارعة، في صالة مغطاة بأنقرة سعتها ١٠ آلاف مشاهد. الأدوار النهائية كانت قمة في الفن، ووليدة قاعدة عريضة بلغت ١٥ الف مشترك. يومها عرفت سر تفوق تركيا في دورات البحر الأبيض المتوسط، فهي تحصل على ٨ ميداليات ذهبية على الأقل من ٢٠ ميدالية في المصارعة الرومانية والحرة!

الحروف افرنجية والكلمات عربية

لاشك أن هناك كلمات تركية وغريبة أدخلت على اللغة العربية في تركيا، لكن استعمال الحروف الإفرنجية لم يلغ الكلمات العربية، وإن حورها. فالمصعد في القمارة أو الفندق عندما يعطي الضوء الأحمر يظهر لفظ مكتوب بالإفرنجية على أنه «ميزجول»، والحقيقة أنه يعني

«مشغول»! ووزارة الزراعة هي «فيزارتي زراعتي»، وميدان السنجك هو ميدان «السنجق»، وميتين يعني متين وهكذا. وبعبارة أخرى عليك أن تقرأ الحروف الإفرنجية بلسان عربي لتدرك أن الكلمات لاعربية، حتى لو شابهها بعض التحويرا

التعصب الكروي للأندية!

وفي استانبول شاهدت صورة من صور التعصب الكروي القميء للأندية، فعقب إحدى مباريات بشكتاش مع غلطة سراي، وكان أكبر الأندية التركية شعبية، فاز غلطة سراي بهدف واحد، فإذا بمشجعي النادي الفائز يحملون نعشاً كبيراً ملفوفاً في علم نادي بشكتاش، مما أثار مشجعي النادي وأدى إلى اشتباك تحول إلى شغب مؤسف راح ضحيته عدد كبير من القتلى والجرحى! يومها قلت في نفسي: الحمد لله إن الهوس الكروي لم يتدهور بنا إلى هذا الدرك!!

اليخني والضولمة والبقلاوة!

والمطبخ التركي من أشهر مطابخ العالم وأغناها بالأصناف ذات النكهة والطابع الخاص، كاليخني والشركسية بصدر الدجاج والضولمة سواء كانت كاذبة أو باللحم المفروم، وما هو من ذلك بسبيل. على أنك يمكن أن تتذوق ذلك كله في الدعوات الخاصة بالبيوت، أما الفنادق فتقدم قوائم الطعام المعتادة في المطعم الأوروبي.

وفي دورة البحر الأبيض بأزمير كان النقاد يقيمون بواحد من أكبر الفنادق، وكانت الوجبات مثيرة للملل فهي لا تخرج عن قطعة من اللحم أو السمك وطبق من الأرز وسلاطة وحلوى. وذات يوم اشتقت إلى الضولمة، حيث لا يجوز أن نكون في بلاد الضولمة ولا نذوقها. طلبت طبقاً من ورق العنب والباذنجان والطماطم والفلفل الرومي، ولم أطلب كوسة على أساس أننا «شبعانون» منها! وذهلت عندما جاءني الجرسون بحبة واحدة من كل نوع، ثمن كل منها بالليرة التركية يعادل جنيهاً مصرياً!

كنت وحدي في انتظار عودة الزملاء عبد المجيد نعمان ومحيي فكري وشهدي النحاس وصلاح المنهراوي، وتلكأت في الأكل حتى حضروا، وسألوني عما أكلت، فقررت أن يشربوا نفس المقلب! وقلت: أبداً، غيرت شوية وطلبت طبقاً من الضولمة!

وبمرح شديد أشاروا إلى الجرسون بما معناه: زيّه! وجاءهم الرجل بما طلبوا وأكلوا وتلمظوا، ثم جاء وقت الحساب فامتعضوا وتعجبوا، وحملقوا لي وتهددوا وتوعدوا! لكنا ضحكنا بمليون قطعة محشي!!

أطلال بيزنطة وإيفيس

والسائح العربي في تركيا يتعين أن يشاهد أطلال إيفيس وبيزنطة، حيث قامت امبراطورية طاغية لعلنا لن ننسى منها بيلاطس وهيرود وسالومي ويوحنا المعمدان، والفتح الاسلامي بانتصار العرب على

الروم. ويكفينا عادة أن نتجول في المنطقة متأملين، أما السائح الألماني بصفة خاصة فيذهب إليها مسلحاً بدفتره ومعلوماته، ليدرس ويستفيد، فإذا انتهى منها تجول في جبال طوروس جنوباً، وفي جبل أرارات شمالاً، وفي يده قصة سيدنا نوح!!

والسياحة على كل حال تشكل جانباً كبيراً من الدخل القومي، إلى جانب العمالة في الخارج، لاسيما في ألمانيا الغربية حيث يوجد مئات الآلاف من العمال الأتراك. وتعد تركيا بلداً فقيراً على كل حال لأن غالبية مساحتها زراعية، وهي تنتج القمح والقطن والفواكه والنبيذ، ونجحت فيها صناعات المنسوجات والسجاد، لكن العمالة الماهرة ناقصة، وقد تخلفت الصناعة عامة، وزادت الواردات عن الصادرات فاختل ميزان المدفوعات.

والموسيقى؟ هي الموسيقى الشرقية، التخت، والطقاطيق والبشارف، والمواويل! والمطرب التركي يعرب عن لوعته من الغرام بالموال، الذي نرى لمحة منه في الميجانا العربية، والموال المصري، والماريانش الأندلسي الإسباني، الذي وصل إلى المكسيك! لكنها في الجملة موسيقى تطريب، ذات إيقاع بطيء رتيب، أمان يا ربي أمان!!

ولعل خير ختام لزيارتك لاستانبول أن تدخل محل حلواني تركي! وتشتري لأهلك هدية من الملبن والحلاوة الطحينية والبقلاوة التركية، أو كما قال لي ذات مرة، فوق جبال الألب، سائح أمريكي عرف أني قادم من تركيا: لا يعرف تركيا من لم يأكل البقلاوة!!

السـودان

السودان أكبر دول أفريقيا ومساحته ٢,٥ مليون فدان مربع!
أرض بكر وملايين الأفدنة قابلة للزراعة وغير مزروعة!
لو تضامن العرب لجعلوا من السودان مخزن قمح للشعب العربي! .
ديموقراطية تلقائية ولقاء مع الرئيس الأزهري بلا مواعيد!
نوادر وطرائف صحفية من خلال مباريات كرة القدم!
مائدة حافلة في وجبة الفطور السودانية تكفي طوال اليوم!
المرأة السودانية والثوب الجميل وتقاليد الزواج ورقصة الحمامة! .
الهبوب في السودان كالخماسين في مصر والطوز في الخليج.. بل أشد!.
تمشجي الملك فاروق يفتح مطعماً في المُقْرَن.. ملتقى النيلين!
صلح بين صالح سليم ومصطفى منصور ينتهي باعتذار المضروب!
الدنكا والشلوك في جنوب السودان أطول قبائل العالم قامةً!
البشارة للمطرب هي الصعود للمنصة وطرقعة الأصابع على رأسه!
الكسرة والمولاح هي الأكلة الشعبية في ربوع السودان!

السودان هو أكبر الدول الأفريقية، فمساحته ٢,٥ مليون فدان مربع، لكن تعداده زهاء ٢٠ مليون نسمة فقط. وله حدود مع مصر وليبيا وتشاد وأفريقيا الوسطى وزائير وأوغندة وكينيا وأثيوبيا، ومن هنا

تأثره الشديد بمشاكل البلاد المتاخمة له. ونهر النيل الذي يربط السودان بمصر ليس مجرد مجرى مائي لري الأرض وسقيا البشر، وإنما هو شريان حياة، لأن البلدين جسم واحد صنعه التاريخ، ولا يمكن فصل عضو من أعضائه عن سائر الأعضاء.

والصلات الرياضية بين مصر والسودان وطيدة وكثيرة، حتى قبل مشروع التكامل بزمان بعيد، لا سيا في مجال كرة القدم، فالبلدان ضمن ثلاث دول أسست الأتحاد الأفريقي، أما الثالثة فهي أثيوبيا. ولأن المباريات على الصعيدين الرسمي والودي لا تنقطع، فإن زيارات الصحفيين للسودان لا تنقطع أيضاً.

والطقس في السودان عجيب، لوقوعها على مدار الجدي، فهم لا يعرفون البرد! هناك اعتدال في نوفمبر وديسمبر ويناير وفبراير، وحر في مارس وأبريل، ثم حر شديد لا يطاق في مايو ويونيو ويوليو، وحر محتمل في أغسطس وسبتمبر وأكتوبر وهو موسم سقوط الأمطار. أما إذا هب «الهبوب» في الصيف الحار، وهو كالخماسين في مصر «والطوز» في الخليج، فإن الرؤية تنعدم نهائياً، ويتحول الحر إلى جحيم!

في تصفيات دورة روما الأوليمبية عام ١٩٦٠ وصلنا إلى مطار الخرطوم - العاصمة المثلثة - في فجر يوم من فبراير (شباط). وأجارك الله! لفحة الصدر ونحن ننزل من الطائرة كانت من الشدة بحيث تصببنا عرقاً في الطريق من مهبط الطائرة إلى مبنى المطار، لأننا مشينا بضع خطوات.

أيامها لم يكن بالخرطوم سوى فندق واحد جيد هو «الفندق الكبير» الواقع على النيل في أجمل أحياء العاصمة، ولم يكن مكيفاً، وإنما به

مروحة سقف كبيرة، وهي لا تكفي لتبديد الحر، لا هي ولا المرطبات التي لا تخرج عن نوع واحد من المياه الغازية اسمه «السكة الحديد»، ربما لأن الشركة صاحبة الفندق كان اسمها السكة الحديد، أيام حكم الإنجليز!

إصطدنا السمك ودفعنا ثمنه!

ولأن الحر يسبب الملل والضجر فإني أغلقت الكتاب الذي كنت أطالعه وهو «زنبقة الوادي» للأديب الفرنسي القديم بلزاك، وخرجت أتمشى على النيل. ولحق بي اللاعب طارق سليم، الذي استبد به الأرق طوال الليل. ووجدنا باخرة راسية أمام الفندق، هي ملحق له، وعلى الشاطيء شباب يصطادون السمك. أخذنا منهم سنانير، وجلسنا نصطاد، ثم اكتشفنا أننا لابد أن نخوض في النهر، فسرنا ودخلنا في الماء، وكان صيدنا وفيراً، وكله من نوع البلطي، وأهديناه للفندق! والطريف أنه قدم لنا بعد يومين كوجبة، ودفعنا ثمنه!!

أسرار الكرة حربية؟!

وكان علينا أن نتابع تدريب الفريقين، لأن المباراة كانت شديدة الحساسية، والندية متوافرة، ومصر فازت في القاهرة ٢/ ١ عام ١٩٥٩، وأحرزت بطولة أفريقيا للمرة الثانية. لكن الإخوة السودانيين أخفوا مكان معسكرهم، وفريقنا جعل يموه في تدريبه، ويخفي تشكيله، حيث

كان يضم الكابتن صالح سليم أكبر لاعبي الكرة في مصر شعبية، لكن النية مبيتة على عدم إشراكه في المباراة، بحجة أن الفريق السوداني سوف يتبنى خطته عليه، فإذا لم يشترك حدث لهم ارتباك شديد!!

وأقيمت المباراة وفازت مصر ١/ صفر، لكن وقع ما لم يكن في الحسبان. فعقب المباراة مباشرة، ونحن ما زلنا في الأستاد، حدث احتكاك بين المدرب مصطفى كامل منصور وصالح سليم الذي صفعه! وداوينا المسألة بسرعة، على أن نعالجها في القاهرة. وفي مجلس على مستوى عال انتهى الموضوع باعتذار المضروب للضارب!!

جولات وسهرات بالخرطوم!

وبعد المباراة اعتدل الطقس، وعلمنا أن الحر في هذا الوقت كان شاذاً. وبدأنا نتعرف على السودان. زرنا المقرن ـ بضم الميم ـ وهو ملتقى النيلين الأبيض والأزرق، والمكان جميل، وبه كازينو أقامه رجل الأعمال النوبي محمد حسن، الذي كان قمشجياً للملك فاروق، وهاجر بعد قيام الثورة، وقد دعا الفريق المصري إلى عشاء فاخر!

وزرنا أم درمان، وقبر المهدي، ومتحف الخليفة، والسوق القديمة، وحديقة الحيوان، التي تنام الحيوانات فيها تحت ظل الشجر ولا تريم! ولابد من وقفة هنا! إن الذين يتهمون أبناء المناطق الحارة بالكسل والعزوف عن العمل، يجب أن يضعوا في اعتبارهم أن أنشط شباب العالم، لو تعرضوا لمثل هذا الحر الذي لا يطاق، فإن أقصى أمنية لهم أن يتمددوا تحت شجرة وارفة الظلال!!

واقتصرت السهرات في هذه الرحلة على دعوات للعشاء من رجال السفارة المصرية، والنادي المصري، والزملاء النقاد السودانيين، ورجال أندية الهلال والمريخ والموردة، تنتهي بندوات ثقافية جميلة، لأن السودان الشمالي هو معقل الثقافة، كما أن الجنوب هو معقل الفطرة!

جوبا والصيد والقنص

وجنوب السودان جنة خضراء، تتوسطها مدينة جوبا، على حدود أوغندة، وهي مركز سياحي، ومقصد عشاق الصيد والقنص، حيث تكثر الأسود والنمور والأفيال والجاموس البري، الذي أخبرني الصياد البارع اللواء طلعت فريد وزير الاستعلامات في حكومة الرئيس عبود الراحل أنه أشد الحيوانات ضراوة ـ وقد دعاني لمرافقته في رحلة صيد لكن وقتي لم يتسع.

وفي الجنوب ٣ محافظات كثيراً ما سببت صراعاً للحكومة السودانية بحركات الانفصال، التي تمولها جهات أجنبية! ولم تستقر الأوضاع إلا بعد أن منح الرئيس نميري الجنوب نوعاً من الاستقلال الذاتي. والإنسان في هذه المنطقة يعيش على الفطرة، في مجتمع قبلي. وأشهر القبائل الدنكا والشلوك، وتتميز بطول القامة، وتعمل في الصيد والقنص والرعي. وليس هناك زي على الإطلاق، فالعري هو السائد، إلا من ورقة شجر واحدة تستر العورة ـ واللغة رطانة، أوإنجليزية أحياناً، نتيجة لوجود إرساليات التبشير!

الزي والطعام والتقاليد

وقد زرت السودان عشرات المرات بعد عام ١٩٦٠، ومهما لاحظت التغيير فإن هناك أشياء لا تتغير، ومنها الزي والطعام والتقاليد. والرجل السوداني يلبس جلباباً أبيض فضفاضاً وعمامة كبيرة بيضاء لكي تقيه أشعة الشمس اللافحة، ومركوباً أحمر أو بني اللون. والمرأة ترتدي الثوب أو الفردة، وهي زاهية اللون، وتضع شالاً على شعرها. وتقاليد الزواج لا تختلف كثيراً عما يجري في البلاد العربية الأخرى. ففي ليلة الجنة تتولى الماشطة تزيين العروس، وتخضيب يديها وقدميها بالحناء، وفي ليلة الدخلة يقام حفل صاخب وتجري الزفة، ويرقص المدعوون رقصة الحمامة أو الرقبة، وهي في الحقيقة رقصة بالصدر والرقبة. وعندما رقصتها مع شقيقة العروس في حفل زواج دعاني إليه صديق صحفي، ظلت رقبتي معوجة بضعة أيام!!

وما يلي ذلك فهو يتوقف على الحالة المالية للعروسين. فإذا كانا من الفقراء تذهب العروس إلى بيت الزوجية في موكب يتضمن «الشيلة» أي الجهاز بما فيه من فراش وأوان، ومستلزمات البيت. وإذا كانا من الأغنياء فإن الجهاز يكون قد استقر في القصر أو الشقة أو الفيلا من زمان، ويكون الموكب مجرد زفة من قبل التفاريح فقط. وفي جميع الحالات يجب ألا ينسى المدعو لحفل الزفاف أن يبشر للمطرب! والبشارة هي النهوض والصعود إلى المنصة أو المسرح و «فرقعة» الأصابع فوق رأسه، علامة القبول والاستحسان والشكر!

والطعام السوداني حريف بصفة خاصة، وتكثر فيه الشطة

والتوابل. والأكلة الشعبية هي الكسرة والمولاح، ويحب السودانيون لحم الضأن، وإلى وقت قريب كان ثمن الخروف الصغير ١٥٠ قرشاً. لكن لا أنسى ليلة دعيت فيها إلى تناول وجبة فطور في الصباح، فقد تضمنت قائمة الطعام عصيدة سودانية بدون سكر، كسرة ومولاح، لبن رايب، فطائر باللحم المفروم، سمك بياض نيلي مقلي ومشوي وبالطريقة اليونانية أي صينية بالبصل والطماطم، كمونية، كباب ويسمونه «شيّة»، جبن مضغور، سلاطة لبن بالخيار، باذنجان مقلي وعليه زبادي وفلفل أخضر حراق، سلاطة خضراء، كبد وقنص وكلاوي، فواكه الموسم، شاي بالعنبر، قهوة أو جبنة، بفتح الجيم والباء، كما يسمونها في الخرطوم! والوجبة كما ترى يمكن أن تكفي «أشعب» ـ مضرب المثل في الشراهة ـ يوماً بأكمله!!

ولأن السودانيين كرماء فإنك لا تستطيع أن تتهرب من الدعوات للعشاء والغداء كل يوم، لا سيما من قادة الرياضة في الهلال والمريخ وخاصة آل «الثوم» قطب المريخ، والدكتور محمد عبد الحليم قطب الإتحاد الأفريقي ورئيسه السابق، وآل بشير في ضيعتهم على مشارف الخرطوم، ورجال الصحافة. وما من مرة نعود فيها من السودان إلا ونلتزم «حمية» ـ ريجيم ـ لإنقاذ أنفسنا من الترهل!!

الديمقراطية في السودان

والمواطن السوداني يتميز بالاعتداد بنفسه والاعتزاز بكرامته. وفي جميع العهود فإنه يخاطب رئيس الدولة باسمه مجرداً، ويسأله عما يشاء،

أو يحاسبه عما فعل، في حوار ديمقراطي عجيب. وهناك يوم ما زلت أذكره جيداً.

ففي يوم ٢٦ مايو «أيار» ١٩٦٧ كنت مع النادي الأوليمبي لمباراة الهلال في بطولة أندية أفريقيا أبطال الدوري. كنت أجلس مع الرياضي السوداني الكبير المرحوم أحمد السنجاوي في شرفة الجراند أوتيل، عندما مر موكب الرئيس إسماعيل الأزهري قاصداً الرياسة.

وفجأة قال لي السنجاوي: ما انتش عاوز تدردش مع الرئيس شوية؟ قلت: ليتك تأخذ لي موعداً. قال: أبداً هسًا، يعني فوراً.

وقمنا ودخلنا القصر الجمهوري، واستقبلنا كبير الباوران، وطلب لنا مياه غازية، واستأذن لإخطار الرئيس، وكان معه رئيس مجلس الأمة وعاد لينقلنا إلى صالون ملحق بمكتب الرئيس، الذي قرر أن يرانا على الفور.

وإن هي إلا لحظات حتى دخل علينا الرئيس الأزهري مرحبا وقائلا: متأسف يا إخواني، الجعدة مع رئيس مجلس الأمة طالت ولم ينته الحديث بيننا. وسوف «أوزعه» بأي شكل لكي أتفرغ لكم!

وبعد دقائق معدودة انفتح الباب، وخرج رئيس مجلس الأمة، ورحب بنا، في الوقت الذي وقف فيه الرئيس على الباب يدعونا للدخول ـ وبروح دعابة همّ رئيس مجلس الأمة بالدخول معنا، فأوقفه الرئيس بدعابة أخرى قائلا له: أنت لأ يازول، إنت ما وراك إلا المشاكل، سيبنا ندردش شوية!

ودردشنا فعلاً في كل شيء، في ثمن الخروف والجـدي والأرز، في العلاقة بين مصر والسودان منذ فجر التاريخ، في الحرب التي ينتظر أن تنشب بين لحظة وأخرى.

وبعدها بأيام، نشبت حرب يونيو حزيران ١٩٦٧، وكان ما كان! لكن أروع ما قالـه لي إن السـودان لديه عشرات الملايين من الأفدنـة الصالحة لزراعة القمح، بحيث يمكن أن تكون مخزناً يفي الأمة العربية شر الجوع أبد الدهر، ثم قال: الأرض عندنا.. والفلاحين عندكم.. والمال يمكن تدبيره! هذه هي الوحدة الحقيقية!

ولعله كان يتطلع إلى التكامل الذي ينفذ الآن بين مصر والسودان، والذي سوف يستمـر بعد انقلاب سوار الذهب الذي أطاح بحكم نميري الذي خرّب الاقتصاد السوداني، إنطلاقاً من أن علاقة السـودان بمصر حقيقة تاريخية جغرافية سياسية عربية هي فوق كل الأحداث!

الصومال

الصومال.. «بلادبونت».. الدولة العربية رقم ١٩
الفتاة الصومالية أجمل فتيات أفريقيا على الاطلاق!
المجاعة البشعة وآلاف الضحايا وصلوات الاستسقاء!
إغلاق المدارس سنة وتشغيل الطلبة في محو الأمية!
الفن الشعبي الصومالي والرقص الروحي والحربي والزار!
مكانة المرأة الصومالية وحقوقها لا مثيل لها في أفريقيا!
مجالس ومقاهي مضغ القات.. في أكبر ميادين مقديشو!
فريق الكرة في كل مكان يضم ١١ لاعباً إلا في الصومال فهم ١٢!
درس في الجهود الذاتية لتشجير مقديشو وجمع القمامة!

الصومال.. بلادبونت أرض الآلهة، الوثيقة الصلة بمصر منذ فجر التاريخ، حيث قام بينهما تعاون وتبادل تجاري، خلدتهما حتشبسوت في معبد الدير البحري بالأقصر، بنقوش تبين كيف كانت تستورد منها التوابل.. أصبحت في السبعينيات الدولة العربية رقم ١٩.

كانت مستعمرة إيطالية واستنزف الاستعمار القاسي ثرواتها، ودخلت تحت الوصاية الدولية عام ١٩٥٧، ووقفت مصر بجانبها ضد الاستعمار الذي حاول استعادتها، ودفعت دماء الشهيد كمال صلاح ثمناً لهذه المساعدة. وتحررت في الستينيات مع نفحة أنسام الحرية التي اجتاحت أفريقيا.

تقع في القرن الأفريقي المطل على المحيط الهندي، وتضم ٢٠ مليون فدان صالحة للزراعة لا يستغل منها سوى ٤ ملايين فدان. تعدادها ٤ ملايين نسمة ربعهم من العرب، وتنتج ١٠٠ مليون طن من الموز، فهو محصولها الرئيسي مع المواشي، ففيها زهاء ٣ ملايين بقرة، و٤ ملايين رأس من الغنم، و٥ ملايين رأس من الماعز، و٣ ملايين جمل، ويشتغل العرب بصفة خاصة برعي هذه المواشي. والعاصمة هي مقديشو، وتعدادها زهاء ربع مليون نسمة، ويسمونها لؤلؤة المحيط الهندي.

الهوجة.. والمجاعة البشعة!

وقد زرت الصومال عدة مرات مع فريقي الإسماعيلي والأهلي لكرة القدم لمقابلة فريقي «هورسيد» أي الحرية، والأشغال. ولا أنسى أبداً زيارتي الأولى، وكانت في السبعينيات، حيث وقعت المجاعة البشعة بسبب الجفاف، ويسمونه «الهوجة». امتنع هطول المطر ثلاث سنوات فجفت الآبار، واختفى الماء، ونفقت الإبل والأبقار والمعاعز والأغنام وامتنعت الألبان فمات عشرات الآلاف من الأطفال، ولحق بهم آلاف من الشيوخ والنساء بسبب الجوع والعطش، وانتشرت معسكرات الإيواء والإنقاذ في طول البلاد وعرضها، وقدمت لها المساعدات الطبية والعينية والغذائية من الأمم المتحدة ومختلف الدول، وأقيمت صلوات الاستسقاء في كل مكان، مشفوعة بابتهالات لسقوط الأمطار، وأحرقت الجثث في الحقول والمراعي خوفاً من انتشار الأوبئة، وتعرضت البلاد لمخاطر كارثة إقتصادية، إذ تضاءل محصول الموز أيضاً من ١٠٠ مليون

طن إلى ١٠ ملايين طن فقط، وهو أهم الصادرات!

سر الحفاوة بالإسماعيلي!

وقد استقبل فريق الإسماعيلي في العاصمة مقديشو بحفاوة بالغة، ونزل بفندق جوبا أفخر فنادق المدينة، لأنه كان أول فريق مصري يلعب في الصومال، فهو من بلد جمال عبد الناصر رائد الحرية وكل ثورة أفريقية، وله في قلوب الصوماليين مكانة خاصة، ولذلك سموا باسمه أكبر شوارع العاصمة، ومدارس ثانوية وإعدادية وإبتدائية في كل عواصم الأقاليم. كما أنهم لا ينسون لمصر وقوفها إلى جانب الصومال في نضاله للتخلص من فرض الوصاية الدولية عليه، توطئة لعودة الاستعمار الإيطالي، وكان الشهيد كمال الدين صلاح مندوب مصر في لجنة الوصاية الدولية، فقتلته يد الغدر لوقفته مع الصومال وضرورة منحه الاستقلال. وقد اقترن ذلك بإدراك الصومال أنه بلد عربي إسلامي وانطلاق صفوة أبنائه لتلقي العلم في العواصم العربية، لا سيما القاهرة، ولدرجة أن ٨ من أعضاء المجلس العسكري الحاكم، بعد قيام الثورة، كانوا من خريجي الكلية الحربية بالقاهرة. ولهذا كله أحسسنا أننا في بيتنا!

أغنية ضد إسرائيل!

وقد لاحظت وجود عدد كبير من المدرسين المصريين عليهم مسئولية التعريب. وأصبحت اللغة العربية هي اللغة الثانية بعد الصومالية، بدلاً من الإيطالية، وبقي هذا الوضع حتى بعد قرارات تأميم كل شيء حتى

المدارس والنوادي، وقد بقي النـادي المصري ولـه «بـلاج» خاص على الشاطىء ـ ودعينا إلى حفل تكريم في المسرح القومي، حضره قادة الثورة والوزراء، ووقفت فرقة الفنون الشعبية الوطنية تنشد أغنية ضد إسرائيل والإمبريالية، قوبلت بحماسة شديدة، وترجمها لي في المسرح فورياً شاعر صومالي يجيد العربية. تقول الأغنية:

ما كان لإسرائيل أن تقفز
ما كان لها أن تتمكن في الشرق الأوسط
ما كان لها أن تصقل سلاحها
فاليهود أقلية من حيث العدد
لكن الدعم يأتيهم من آخرين
دعم قوي ومساندة بلا حدود
ولولا ذلك لاتخذت الأمور شكلاً آخر
ولما سيطر الصهاينة على الموقف
ما كان يمكنهم أن يذبحوا الأبرياء
لولا دعم الاستعمار وتأييده
ويا للاستعمار من وحش ضار
يصطاد ما تاه من القطيع
لا يريد أن يتحد القطيع
من طبعه الفتك بالأبرياء
ينصب شراكه في الخفاء
يلدغ في مكر ودهاء

السلام عنده هراء
أما الأمر الواقع فهو المدفع
النار من فوهة المدفع
يا أفريقيا اتحدي
يا أفريقيا تعاوني
وإن ضل أحدكم طريقه
عليكم أن تنصحوه
واستعدوا جميعاً للحرب
للنضال. . للزحف المقدس

وتتحدث الأغنية بعد ذلك عن انتهاك إسرائيل للمقدسات والعدوان على المسجد الأقصى، وتطالب العرب أيضاً بالاتحاد لأنه القوة التي يمكن بها رد العدوان. وقد عجبت لأن الشعب كله كان يحفظ الأغنية ويرددها مع الفرقة القومية، فقال الشاعر الذي ترجمها لي إن الإذاعة الصومالية ترددها مراراً كل يوم، هي وغيرها من الأغنيات الوطنية والقومية، حتى حفظها الشعب عن ظهر قلب.

أجمل نساء أفريقيا

وفي المسرح لاحظت أن الممثلات والراقصات يتميزن بجمال صارخ، لا يدانيه جمال أي نساء في أفريقيا سواء كن من «البيض الأمارة» أو السمر العذارى، فالقوام أفريقي سمهري، والعود ملفوف لا ترهل فيه ولا شحوم، والسمرة حلوة فلا هي داكنة، ولا نحاسية، والملامح

دقيقة جميلة، والشفاه رقيقة، والعيون سوداء كحلاء كعيون المها، والخصر نحيل، ومهوى القرط طويل، والصدر نافر، والشعر فاحم ناعم، والمشية والوقفة والجلسة تتضح بالأنوثة. وكنت أحسب أن هذا شأن الفنانات فقط، لكني وجدت كل نساء الصومال على هذا المستوى الجمالي الأخاذ.

وضع متميز للمرأة

وللمرأة في الصومال وضع مميز، فهي ليست على الهامش وليست عالة على الرجل، وليست مهيضة الجناح، وإنما هي راعية وفلاحة مع زوجها في الريف، وعاملة ومنتجة في الحضر، كما أنها في جميع الحالات سيدة بيت لها حقوق وكرامة. ومع أن الإسلام يبيح الزواج بأكثر من واحدة بشرط تحقيق العدالة بينهن، فإن الرجل في الصومال لا يلجأ لهذا الحق إلا مضطراً، وفي حالة عقم الزوجة بصفة خاصة. كما أنه لا طلاق إلا بالمحكمة. بل ذهبت الثورة الصومالية إلى أبعد من ذلك فقررت مساواة المرأة بالرجل في الميراث، بل منطلق أن الدين يسر لا عسر، وأن الضرورات تتيح المحظورات، وأن الأوضاع الاجتماعية في الصومال تقتضي ذلك. بل إن المرأة تشارك الرجل في الجهاد، وهناك شهيدات دخلن التاريخ، ومنهن المناضلة الشهيدة «حاوة عثمان تاكو»، ولها نصب تذكاري في ميدان كبير بمقديشو.

الجهود الذاتية . . وساعد نفسك!

وقد أعجبني في الصومال أن الثورة استطاعت بتنظيم الجماهـير أن تستغل طاقات الشعب ـ المقتنع بها والمتجاوب معها ـ في تنفيذ كثير من المشروعات ، بالجهود الذاتية تحت شعار «ساعد نفسك» ـ وأكرر أن المهم هو الاقتناع والتجاوب!

وفي ظل هذا الشعار، المطبـق بحماسة وأمانة، يتطـوع المواطنـون للعمل في وقت الفـراغ ـ دون مقابـل مادي ـ في حركة التعمـير وتنفيذ المشروعات ، لدرجة أن وزارة من ٥ طوابق أقيمت بالجهـود الـذاتية ، واشترك في إقامتها كل العاملين بها ، من الساعي إلى الوزير، في وقت الفراغ . ذلك أن الحكومة لا تستطيع أن تفعل كل شيء وحدها، وإنما لابد أن يتحرك ويتجاوب معها المواطنون . وبمثل هذه الجهود يقوم كل حي بإنجازات مماثلة ، لدرجة أن فندق جوبا الفخم أقيم بهذه الطريقة بعد أن كان ضحية حريق هائل ، كما أن الأهالي هم الذين شيدوا بناء مجلس الشعب الضخم في إطار شعار «ساعد نفسك» . ولهذا أيضاً فإن مقديشو مدينة نظيفة . فأبناء كل حي ، من سيدات ورجال وشباب وطلبة مدارس وموظفين يقومون بغرس الأشجار ، وإزالة أكوام القمامة في وقت فراغهم ، عن اقتناع بأن هذه هي مصلحتهم ، وأن العائد يعود عليهم ، أماناً من المرض وصوناً للسمعة ، ورداً على الاستعمار الذي أشاع عنهم بضراوة أنهم شعب خامل كسول لا يصلح إلا لرعي البقر!

الفن الشعبي والزار!

وقد أعجبني الرقص الشعبي الصومالي، رغم ما يسيطر عليه من عصبية وعنف. وهو رقص روحي مستوحى من الأساطير، ورقص ترويحي يخضع للمناسبات كحفلات الخطبة والزواج والأعياد، ورقص لطرد الأرواح الشريرة كالزار، في صوره المختلفة.

ومن الرقصات الروحية الأسطورية ما يتصل بتمجيد أبطال الأساطير مثل الملكة «أرّويللو» التي تميزت بالحكمة والدهاء والذكاء، ومنها ما يؤدى بهدف تقديم قربان لإله البحر حين تشتد الرياح التجارية الشمالية الشرقية ويهيج البحر ويحطم كل شيء ويعطل التجارة، وفي هذه الرقصة يقوم سكان الساحل فعلاً بنحر الخراف الكثيرة على الشاطىء وإغراق البحر بدمائها حتى يهدأ. ومنها ما يرمي إلى طرد الشر من الأجسام ويسمى بالصومالية «الزار» أيضاً. وهو لا يخرج كثيراً عن الزار المصري، بل هو أيضاً يتضمن طرد الجن الذي يسمونه «الفتيش» الأعلى، الذي يقابل شمهورش! والطقوس واحدة، ومطالب «الأسياد» لا تنتهي والتكاليف باهظة، والسذج ضحايا للمشعوذين، لا سيما «الكودية» التي تتصل وحدها بالجان ليهمس لها وحدها بما يريد، ثمناً لانصرافه من الجسم!

وهناك الرقص الترويحي الذي يؤدى في المناسبات السعيدة ويعبر عنها مثل عيرجابو وويلوويلو، ودانتو، وهي تعبر عن الانتصار في الحرب.

إغلاق المدارس سنة!

وعندما زرت الصومال لآخر مرة في نهاية السبعينيات مع فريق النادي الأهلي لكرة القدم، وجدنا نفس الحفاوة، ونزلنا بفندق جوبا أيضاً، وكانت العلاقات المصرية الصومالية قد زادته توطداً ورسوخاً. وقد لاحظت خلو المدارس من الطلبة، ولما سألت علمت أن جميع المدارس من جميع المراحل التعليمية مغلقة لمدة سنة!

أولاً لأنه لوحظ أن التعليم مركز في الحضر دون الأقاليم والريف، فرؤي تنفيذ برنامج لمحو الأمية، تحقيقاً للتكافؤ من جهة، وللقضاء على الأمية من جهة أخرى، فأقيمت معسكرات ضخمة في الريف، مجهزة بكل الإمكانيات، لطلبة الإعدادي والثانوي ومعهم المدرسون والموجهون، لتنفيذ البرنامج، مع عمل الدعاية اللازمة بين المواطنين، وتوضيح مزايا المشروع لهم، بما ضمن إقبالهم هل هذه المعسكرات، وثانياً لأنه لوحظ أن الإتجاه كله إلى التعليم العام، في وقت لم تكتمل فيه إمكانيات الجامعة لاستيعاب الأعداد الكبيرة من خريجي المرحلة الثانوية، فأخذت الدولة فرصة لالتقاط الأنفاس، وإنشاء مدارس فنية زراعية وتجارية وصناعية، لتخريج جيل من الحرفيين والمهنيين اللازمين للمشاركة في بناء الدولة، بدلاً من تخريج موظفين لا لزوم لهم في المكاتب والمصالح الحكومية إذا التزمت الدولة بتعيينعهم، أو مجموعات ضخمة من العاطلين الذين يثيرون المشاكل! ولا أدري هل طبق المشروع على فترات بعد ذلك أم لم يطبّق، لكنني في ذلك الوقت أعجبت أي إعجاب بهذا الاتجاه العلمي العملي في وقت معاً!

القات في الشارع

شيء واحد لم يعجبني في مقديشو، فقد ساقتني الصدف، وأنا أبحث من محل لبيع أدوات صيد السمك، إلى ميدان كبير يتوسط حلقة من المقاهي والمجالس، أمامها فتيات جميلات يصنعن الشاي، وبداخلها رجال يمضغون «القات»، وهو نبات أخضر مخدر، يلوكونه في الفم، ويؤدي إلى غياب الوعي! ولا شك أن هذه العادة السيئة دخيلة ووافدة من اليمنيين، من أهل عدن وحضرموت والمكلا ولحج وغيرها، وهم العرب الذين اتصلوا بشرق أفريقيا للتجارة من قديم الزمان، ثم اختلطوا مع أهلها وذابوا فيهم وتزاوجوا منهم، وأصبحوا من مواطني تلك الدول الأفريقية.

اللاعب الثاني عشر!

ولأن رحلاتي للصومال كانت كروية فلابد أن أصف الفرقة المصرية التي لعبت هناك حيث خسر الإسماعيلي بهدف، وتعادل الأهلي مع الأشغال ١/١. ذلك أن فريق الكرة يتكون من ١١ لاعباً أما الفريق الصومال فيضم ١٢ لاعباً وهذا اللاعب الزائد هو أخطرهم جميعاً، فهو الرياح التجارية الشمالية الشرقية العاتية، التي يعرفون كيف يستغلونها، في الأستاد الواقع على المحيط الهندي دون سور أو شجر يحميه من الرياح! ولذلك يفتقد الفريق الصومالي هذا اللاعب الزائد عندما يلعب خارج مقديشو!

المغـرب

المغرب . . الباب الملكي العربي . . إلى إسبانيا وأوروبا!
أحدث تخطيط للمدن الجديدة حول «القصبة» القديمة!
أغنية ١٩٦١ للفرق العربية «وحدة ما يغلبها غلاب»!
غلطة العمر وسفر البعثة «المتحدة» للدار البيضاء بباخرة!
يوم كانت مصر تهزم السعودية ١٣/ صفر والكويت ٨/ صفرا!
أول هزيمة لمصر من المغرب وعلقة للفريق المصري الكروي!
حكم كرة سلة لبناني يجري في الشارع من ضرب التفاح!
عروض رائعة ومخيفة للفرسان والحواة والسحرة في المواسم!
لماذا سمي أكبر أندية المغرب شعبية باسم نادي «الوداد»؟!
إكرام السائح الأجنبي واجتذابه بالنظافة والسماحة . . !
ألبسطيلة أشهى أكلة وإذا لم تذقها فأنت لم تزر المغرب!
«سبتة» مدينة إسبانية بالمغرب تدخلها بجواز السفر!!
تشجيع خرافي للفرق المصرية بالدورة المتوسطية عام ١٩٨٣!!

ارتكبت الجمهورية العربية المتحدة خطأً رياضياً كبيراً عام ١٩٦١ حين سافرت بعثتها الرياضية إلى الدورة العربية الثالثة بالدار البيضاء بالمغرب، بباخرة قديمة مستهلكة مشرفة على الإحالة إلى المعاش، اسمها الوادي. قطعت المسافة من الإسكندرية إلى مقر الدورة في تسعة أيام، كانت كفيلة بالقضاء على أي قسط من اللياقة البدنية يملكه اللاعبون!

كان المظنون أنه يمكن الاحتفاظ باللياقة البدنية عن طريق أداء بعض الجري الخفيف والتمرينات البدنية على ظهر الباخرة، لكن شيئاً من ذلك لم يحدث، لأن دوار البحر أطاح بالبعثة، بمجرد مغادرة بوغاز الإسكندرية!

في تلك الأيام كانت الوحدة قائمة بين مصر وسوريا، وهي وحدة اندماجية كاملة، لدرجة أن اسم مصر اختفى من الوجود وأصبحت «الإقليم الجنوبي»، كما أصبحت سوريا الإقليم الشمالي. وكانت الهتافات العربية في الملاعب تدوي، وكان أشهرها «وحدة ما يغلبها غلاّب»، وكانت أعلى العقائر التي ترددها هي عقائر لاعبي فريق ليبيا، التي تريد أن تنضم للوحدة الثنائية لتصبح وحدة ثلاثية!

وبصرف النظر عن أن الوحدة انفصمت وحدث الانفصال الأليم عقب هذه الرحلة مباشرة، فإن فرق الجمهورية العربية المتحدة فازت بنصيب الأسد في كل اللعبات، رغم تأثر اللياقة البدنية للاعبين، ولدرجة فوز كل من مصر والمغرب على السعودية ١٣/ صفر و١٣/ ١، وعلى الكويت ٨/ صفر في كرة القدم، لأن المشرق العربي ودول الخليج كانت في بداية عهد البناء الرياضي. والمهم أن المباراة النهائية لكرة القدم كانت بين الجمهورية العربية المتحدة والمغرب، وأدارها الحكم اللبناني جوزيف بالبنديان، وفي نهاية المباراة احتسب لصالح المغرب ضربة جزاء قوبلت باعتراض، انتهى بعلقة ساخنة لفريق الجمهورية العربية المتحدة ومدربيه وإدارييه!

كانت هذه الحادثة صدمة لي في أول زيارة للمغرب، لكنها انتهت

بترضية كافية، لتنتهي الأمور على خير، وإن كانت تبعتها حوادث أخرى، أطرفها أني كنت ذاهباً لحضور مباراة كرة سلة فوجدت حكمها اللبناني «هاجوب» يجري بسرعة البرق، رامياً صفارته، نافذاً بجلده، ولما سألته عن السبب قال: هلاّ ضربوني بالتفاح، من يدري؟ يمكن بعدها يرموني بقنينات؟!

عرفنا بعد ذلك مصدر هذه الحوادث المفتعلة، فقد تبين لنا أن مدينة الدار البيضاء تضم ٢٥٠ ألف يهودي مغربي، كان يهم الكثيرين منهم، وهم صهاينة، أن يعكروا الجو بين الشباب العربي!!

الفضول وغلطة العمر!

والدار البيضاء مدينة جميلة، تعدادها الآن ٣ ملايين نسمة، وهي العاصمة الاقتصادية للمغرب، الذي يبلغ تعداده ٢٠ مليون نسمة، ومن ثم فهي رابعة مدن أفريقيا، بعد القاهرة ولاجوس والإسكندرية.

وأطرف ما حدث لي فيها عام ١٩٦١ كان بسبب الفضول الصحفي وشهوة المعرفة، فأثناء سيري في أهم شوارع المدينة سمعت موسيقى وشاهدت مهرجان أنوار كهربائية، وعرفت أن هناك حفل زفاف، وشاورت مرافقي المذيع بصوت العرب، فقَبِل أن نقحم أنفسنا على الحفل لنتعرف على تقاليد الزفاف المغربي وعاداته. ورحب بنا أهل «الفرح» أجمل الترحيب، وقدموا اللبن والتمر، ثم المرطبات، وبدأ العزف والرقص والطرب، ثم كانت المفاجأة! فقد تبين أن العرس

يهودي! وما إن علمنا بذلك حتى استأذنا للانصراف على عجل، ونحن نتلفت حولنا، مخافة أن يكون قد رآنا أحد!! فاليهودي في ذلك الوقت كان هو الصهيوني!!

المدن الحديثة حول القصبة القديمة!

وكل مدن المغرب جميلة وحديثة، لكن في قلبها مدينة قديمة اسمها «القصبة»، بناها القرامطة أو المرابطون أو الأدارسة أو العلويون أو غيرهم من القبائل والأسر الحاكمة منذ القرون الوسطى، لكن الامتدادات جميعها وفق أحدث طرق تخطيط المدن، وإن كانت لكل مدينة مقوماتها الخاصة ولونها الذاتي المتفرد.

على أن القاسم المشترك الأعظم في المدن الكبرى - وكل منها عاصمة لعمالة أو ولاية - هو النظافة. والطقس يختلف بين الشمال والجنوب إلا أنه معتدل بصفة عامة، وقرب المغرب من أوروبا عامة واسبانيا بصفة خاصة يجعلها مزاراً سياحياً محبباً، ففيها سحر الشرق وعبق الصحراء وأطلال المجد، وفيها الإقامة المريحة والابتسامة الحلوة والنظافة المشجعة، والفنادق التي ترضي كل الأذواق والجيوب!

ولأني أحببت المغرب منذ أول نظرة عام ١٩٦١ فإني زرته عشرات المرات بعد ذلك، وكانت آخرها في الدورة المتوسطية، في اكتوبر ١٩٨٣.

سبتة الإسبانية . . مسمار جحا؟!

والعاصمة الإدارية هي الرباط، التي ترجع جذورها التاريخية إلى العهد الفينيقي، وقد بسط الملوك العليون سلطانهم عليها في القرن التاسع عشر، بعد أن كانت معقلاً للقراصنة حتى القرن السابع عشر. ولكل مدينة جمالها وشهرتها، من فاس إلى مكناس إلى مراكش في الجنوب وأغادير على الساحل الجنوبي، وتطوان وطنجة في الشمال بسحرها الخاص وجوها الأسطوري، الذي يذكرك بأفلام الجاسوسية والتهريب، والمصايف الجميلة في المحمدية، وَسِطَّات، والجديدة، وحيرة الفتاة المغربية بين «الجديد» والتقاليد، فتراها تسير في شوارع هذه المدن الساحلية بالعباءة الفضفاضة التي تلتف بالجسد كله من ذؤابة الرأس إلى أخمص القدم، بحيث لا تبدو منها سوى العينين، لكنها لا تكاد تصل إلى الشاطىء حتى تنزع العباءة فإذا تحتها مجرد «مايوه» للاستحمام! العباءة هي الزي القومي للرجل أيضاً، لكنها تحتفظ بقيمتها في الريف وفي المناسبات فقط!

لكن أعجب مدينة في المغرب هي «سبتة»، في الشمال الغربي! المدينة اسبانية، لا يستطيع حتى المغربي أن يدخلها إلا بجواز سفر وتأشيرة دخول من السفارة الإسبانية في الرباط! ولهذا لم يتسع وقتي لزيارتها بكل أسف، كما أني أعترف بأني خجلت أن أسأل عن أسباب هذا الوضع، فهو سؤال محرج، لكني أرجح أنها بمثابة مسمار جحا!!

نادي الوداد بالدار البيضاء . . لماذا؟

ومن تقاليد الضيافة في المغرب الدعوة إلى جلسة الشاي الأخضر، الذي يصنعه الداعي بنفسه، إكراماً للضيف. والعملية تجري وفق روتين تقليدي. وفي بيت سي محمد بن جلون رئيس اللجنة الأوليمبية المغربية، وممثل اللجنة الأوليمبية الدولية في المغرب، جلس المضيف يصنع لنا الشاي، ويروي لنا كيف أنشىء نادي الوداد لكرة القدم، أكثر أندية الدار البيضاء والمغرب شعبية. «وفي ليلة اجتماع الجمعية التأسيسية للنادي، لم يكن لدينا فكرة عن الاسم الذي نطلقه عليه، وإذا بفيلم لكوكب الشرق أم كلثوم يعرض في السينما واسمه وداد، فقررنا بالإجماع أن يكون اسم النادي الوداد»!

لكن لماذا هذا الاتجاه؟ الحقيقة أن الأغاني في الإذاعة المغربية، والمسلسلات في التليفزيون، والكتب في البيوت والمكتبات، كلها مصرية. هذا الوضع ليس قائماً الآن فقط بل كان قائماً دائماً، حتى في أحلك ظروف القطيعة والمقاطعة، لأنه لا علاقة للشعوب العربية بهما على الإطلاق!

ومن هذا المنطلق، ومن حب الشعب المغربي لمصر، شاهدنا العجب في دورة البحر الأبيض المتوسط عام ١٩٨٣! شاهدنا مظاهرة صاخبة لصالح مصر ضد فرنسا في الكرة الطائرة بالمركّب الأوليمبي بالرباط، وتشجيعاً خرافياً لنجوم مصر في التنس ضد نجوم اسبانيا، وللفرق المصرية في كل الملاعب، حتى في كرة القدم مع أن الفريق

المصري كان المنافس الوحيد للفريق المغربي، الذي فاز بالبطولة.. دون ضرب هذه المرة!

السحرة والحواة في المواسم والموالد!

لكن المتعة السياحية في المغرب لا تكتمل بمغامرات الصحراء وسياحة الشواطىء والسيارات وسحر الشرق وعبق الأمجاد، وإنما بالمشاهد الخرافية المثيرة التي يستمتع بها السائح في الموالد والمواسم، التي ترتبط بحصاد محصول، أو إحياء ذكرى من هذا أو غير ذلك.

في هذه المناسبات تقام آلاف الخيام، ويجتمع فرسان القبائل لعرض فنون الفروسية الشعبية، من ركوب الخيل إلى ضرب النار من فوق الخيول المطهمة، وهي تجري في صفوف بالعشرات، والأعيرة النارية تدوي فوقها دون أن تجفل أو تفزع، وعروض لأنواع صقور القنص، وكيفية تربيتها وتعليمها. وأشهرها موسم مولاي عبد الله، الذي يقام في نهاية موسم الحصاد، قرب شاطىء بوزيد، جنوب الرباط بزهاء ٢٠٠ كيلومتر، ويستمر ٣ أيام، احتفالاً بذكرى الفقيه مولاي عبد الله أقعار من حفدة الأدارسة. وبعد حفلات الفروسية تقام في الليل حفلات الفنون الشعبية! وفي إحدى هذه الموالد ابيض شعر رأسي!

بين الخيام المنصوبة وجدت رقصاً شعبياً، وقصائد وموشحات دينية، وحواة يلعبون بالبيضة والحجر، وختان أطفال، وموسيقى فرق،

وأثناء مروري في ممر ضيق بين الخيام، تقدم مني أحد الحواة ـ دون أي مقدمات ـ وكان في يده سلة مغطاة، فكشفها في وجهي فجأة، لتطل منها كوبرا وقحة، تراقصت في الهواء أمام عيني، فتراقصت في الهواء أمام عينها، وسقطت في غيبوبة! الحاوي نفسه أصيب بهلع، لأن زميليّ راحا في نفس الغيبوبة، فعكف على علاجنا حتى أفقنا، ولما أفقنا لم أجد ما أقوله إلا ما قاله الكاردينال يوسف وهبي في كرسي الاعتراف: عليك اللعنة!

البسطيلة أروع أكلة عربية!

ويتبقى أن المطعم المغربي يشتهر بالقوزي المشوي، وبالكسكس بالسكر أو بالمرق واللحم والهريسة ـ الشطة ـ ولكن الأكلة المغربية التي لا مثيل لها في العالم العربي، هي البسطيلة! فطيرة أقرب إلى العصيدة، مطعمة بالدجاج واللحم والملح والسكر والزبيب واللوز والجوز، كل المتناقضات، ولكن مذاقها يفوق الوصف، وعلى المرء أن يستنجد بكل قوة إرادته لكي يتوقف عن الأكل!!

وفي المغرب يسألونك: هل ذقت البسطيلة؟ فإذا كان جوابك بالنفي يقولون لك: إذن أنت لم تزر المغرب!

الكونجو برازافيل

الكونجو برازافيل.. مقر حكومة ديجول الفرنسية المؤقتة!
تعداده ٥ ملايين نسمة موزعة على ٧٣ قبيلة!!
زفة للمتوفى بالموسيقى.. والعزاء الرقص وبراميل البيرة!
الابن ينسب للأم.. لأن الزواج بلا رابط ولا ضابط!
فن تلقائي رائع ولوحات تباع يوم السبت بتراب الفلوس!
لماذا صرخت في منتصف الليل وأزعجت الفندق كله..؟!
زفة محلاوي لعروس كنجولية.. لكن السحر هزمنا في الكرة!
فرق أفريقيا الكروية تمارس السحر الأسود.. ولكل فريق ساحر!
الحكم شمولي شيوعي والغنى للحزب والفقر لجموع الشعب!
العاصمة بلا مواصلات عامة والمشي وسيلة الانتقال الوحيدة!
المشي على إفريز الشارع مخاطرة.. بسبب أفاعي الأشجار!
لقاء بالصدفة في قلب الأدغال يفسر كارثة هزيمة ١٩٦٧!

يحاول الاستعمار دائماً أن يوهم أفريقيا بأنها تبدأ من جنوب الصحراء الكبرى، ولهذا يسميها أفريقيا السوداء. وقد فطنت مصر لهذه اللعبة من زمن بعيد، فاستعدت لربط الشباب الأفريقي عن طريق اللقاءات الرياضية، وأنشأت ستاد الإسكندرية عام ١٩٢٩ لتقيم أول دورة للألعاب الأفريقية، على غرار الألعاب الأوليمبية، وعلى أن تقام كل ٤ سنوات، إلا أن الاستعمار تدخل ووأد المشروع.

وعندما هبت ريح الحرية من مصر في الخمسينيات لتلفح القارة الخضراء بدأت الدول الأفريقية تحصل على استقلالها في الستينيات، وتدرك وحدة الظروف والهدف والغاية والمصير، وتتقارب وتتعاطف، ففكرت في إحياء فكرة الدورة الأفريقية، وأقيمت الدورة الأولى في برازا عاصمة الكونجو برازافيل!

ونظراً لانعدام الكوادر الفنية فقد لجأ الكونجو إلى فرنسا ومصر للمعاونة تنظيم الدورة، التي أقيمت عام ١٩٦٥، أي بعد الاستقلال بخمس سنوات. ففرنسا تقيم المنشآت الرياضية باعتبارها الدولة «الأم» ـ التي ما زال نفوذها المادي والمعنوي قائماً للآن ـ ومصر الدولة «الأخت»، أرشد الشقيقات وأكثرهن خبرة وحضارة ودراية بالنواحي الإدارية.

حتى الحكام طلبوهم من مصر، ولذلك اشتركت مصر في الدورة ببعثة رياضية ضخمة في كل اللعبات ـ ما عدا كرة القدم لخروجنا من دور التصفية ـ ولدرجة أن البعثة ضمت ٤٠ حكماً في ألعاب القوى وحدها، سافروا على نفقة مصر، من قبيل المساعدة!

بلاد بلا مواصلات عامة!

وعندما هبطت بنا الطائرة في مطار برازا نقلتنا إلى المدارس التي سيقيم فيها اللاعبون، والفنادي التي سيقيم فيها الإداريون والصحفيون، بسيارات أوتوبيس من الجيش، وكان هذا أمراً عجيباً يدعو للتساؤل، لأن المفروض أن تكون هناك سيارات عامة وسياحية.

على أن الأمور اتضحت عندما وصلنا إلى المدينة، فإذا بها خالية تماماً من المواصلات العامة، فلا ترام ولا مترو ولا أوتوبيس ولا سيارات أجرة، فوسيلة الانتقال هي المشي! ولولا أني علمت أن هناك سيارة صغيرة تابعة للجيش قد خصصت لنقل الصحفيين بين مختلف الملاعب، وبين الملاعب ومكاتب التلغراف، لأن الاستاد خال من خدمات الاتصالات، لعدت أدراجي للقاهرة، لأني لا قِبَل لي على المشي رغم أني كنت بطل مصر في الجري!

في الكونجو ٧٣ قبيلة!

والكونجو برازافيل دولة صغيرة، محصورة بين الجابون والكاميرون وأفريقيا الوسطى شمالاً، والمحيط الأطلنطي غرباً، وزائير شرقاً، وكابندا البرتغالية جنوباً، وتعداده مليون نسمة فقط موزعون على ٧٣ قبيلة، لكن من بينهم زهاء ١٥٠ ألف أجنبي، ومساحته ٣٤٢ ألف كيلومتراً مربعاً، وهو هضبة عالية إرتفاعها ٣٣٥ متراً عن سطح البحر، ودرجة الحرارة ٣١ مئوية، ودرجة الرطوبة ٩٤٪ في نوفمبر موسم المطر، ومتوسط سقوطه ٢٢٧,٥ ملليمتر. ويقع الكونجو تحت خط الإستواء بأربع درجات.

وأهم القبائل هي «الكونجو». والكلام رطانة. واللغة السائدة في الشمال اسمها الليتجالا، وفي الجنوب محاولات توحيد لغة واحدة اسمها «مونوكوتوبا» بدلاً من عشرات اللغات السائدة في القبائل الكثيرة الصغيرة.

وغـالبية السكان من الكاثوليك، وهنـاك أقلية من البروتستانت، والتـوزيع حسـب نشـاط البعثـات التبشـيرية، كما أن هنـاك قلـة من المسلمين، ولهم مسجد في برازا. ومصادر الثروة القومية هي الأخشاب والحبوب والمواد الغذائية والأسماك من المحيط ومن نهر الكونجو. وهـم يصدرون زيت النخيل والفول السوداني والكاكاو والبن والموز. ولديهم مصانع للسكر والدخان واستخراج الزيت وتعليب الأسماك المحفوظة. والأسعـار صاروخية، والشعـب قسمان، أغنياء وهـم قلـة من رجـال الأعمال والموظفين ولجان الحزب، وفقراء وهم الغالبية، والعاصمة برازا تضم ١٥٠ ألف نسمة، وكل شيء مركز فيها. ونظام الحكم شيوعي، والرئيس الآن هو «نجوليو»، ولكن «نجوابي» الذي تولى الحكم بانقلاب ١٩٦٨ هو الذي فرض النظام الاشتراكي الشمولي.

حكومة فرنسا الحرة

والكونجو كان مملكة قبلية قديمة تأسست عام ١٤٨٢، واكتشفه عام ١٨٧٩ ضابط فرنسي رحالة اسمه برازا، وإليه تنسب العاصمة، وقد ترك فيها حـامية كانت أساساً للاستعمار الفرنسي. واستقـل الكونجـو عام ١٩٦٠ وانضم للأمم المتحدة عام ١٩٦٣.

وقد اتجهت أنظار العالم للكونجو عام ١٩٤٠، حين اكتسح هتلـر غرب أوروبا واجتاحت جيوش النازية فرنسا، ولقي الجيش الفـرنسي هزيمة نكراء، وانهار خط ماجينو المنيع وساح تحت نيران المدافع والدبابات كأنه من شيكولاتة، وفر الجنرال دي جول، لكنه صمم ألا تركع فرنسا

إلى الأبد، فأنشأ حكومة «فرنسا الحرة» واختار لها الكونجو برازافيل مقراً!

الولد ينسب للأم!

وقد يعدو نسب الولد للأم في الكونجو مفخرة للمرأة، ولكن الحقيقة إنه مَعرَّة، لأن المرأة هناك للحقل والجنس فقط! والجنس سداح مداح، والزواج عرفي بالقبول والإيجاب، وقلما يشهر ويوثّق، ويحدث التوثيق أحياناً بعد سنوات من التجربة، يتضح خلالها إرتياح كلا الطرفين إلى الآخر. إلا أن هذا يحدث بين الطبقات المثقفة فقط، وليس بين عامة الشعب. فالمرأة لها أن تتزوج رجلاً وأن تنجب منه، ثم تتركه وتتزوج غيره وتنجب، ثم تتركه وتتزوج ثالثاً وتنجب منه! وإذا كان الأمر في بعض الدول الأفريقية ينتهي بأن يعترف الزوج الأخير ـ الثالث أو الرابع ـ بأبوة جميع الأولاد، فإن الكونجو برازافيل وجد حلاً آخر، هو أن ينسب الولد إلى أمه!!

صرخة منتصف الليل!

وفي الكونجو ٢٠٠ نوع من الأفاعي، ومعظمها من الأنواع الخطرة. وذات ليلة انتهت المباريات في الاستاد زهاء الحادية عشرة مساء، وخرجت لأرسل «تليكس» للجريدة بالنتائج، وكان لابد أن أمشي في الشارع المهجور زهاء ٥ كيلومترات، ومشيت بطبيعة الحال على الإفريز، وفوجئت بزميل كونجولي يدفعني من الخلف بشدة، ويقول لي: الإفريز مليء بالأشجار، وهناك أفاعي سامة تتسلقها، ويحلو لها أن تتدلى من أغصانها لتلدغ المارة، فامشِ في وسط الشارع وإياك والإفريز!!

واشتد اضطرابي، وبعثت برسالتي، وذهبت إلى الفندق، ودخلت غرفتي وأغلقت المزلاج، وأويت إلى سريري، حريصاً على الا أرفع «الناموسية» المنصوبة عليه؛ منعاً للبعوض. وكان كلام زميلي الكونجولي عن الأفاعي يحتل خيالي، فأصبت بأرق شديد، وأخذت أتقلب في فراشي! ومددت يدي تحت الوسادة، فإذا بها تصطدم بجسم مستطيل لين!

أطلقت صرخة من قلبي، وجريت فمزّقت الناموسية، ووقعت على الأرض، ونهضت ثم وقعت، وحاولت أن أجد مزلاج الباب فأختفى، وسمعت دقاً شديداً وعصبياً على الباب، ومحاولات لفتحه عنوة! وانفتح، ودخل بعض زملائي من الصحفيين والإداريين فوجدوني ملقى على الأرض ألهث، وسألوني ما الخبر، فأشرت لهم بيدي إلى السرير، ثم استجمعت شتات فكري وجسمي وقلت لهم: ثعبان تحت الوسادة!

وجاءوا بعصا طويلة، وتقدموا إلى السرير بحذر، «ونكشوا» الوسادة فانقلبت، وظهرت تحتها «ورلة»، من الزواحف، طولها زهاء نصف متر، ولكنها بالقطع «أرسينو سيريوم» خرافي مسخوط! اختارت من دون وسائد برازافيل كلها وسادتي، لتستريح تحتها! وكانت ليلة!!

مفاجأة: طيارون مصريون!

في اليوم التالي كنت في الأستاد أتابع مسابقات ألعاب القوى، وإذا بي أفاجأ بوجود العميد طيار محب يوسف، الذي أخبرني أنه على رأس بعثة عسكرية مصرية، تساعد الكونجو برازافيل في إنشاء سلاح طيران!

ودعاني محب لحضور حفل زفاف قائد سلاح الطيران الكونجولي في اليوم التالي، بالنادي الفرنسي للسباحة! وكانت مصر قد اكتسحت مسابقات السباحة في الدورة لسبب بسيط هو أن أفريقيا لا تسبح! ذلك أن حمامات السباحة، إبان الاستعمار مقصورة على الأجانب، والأنهار مليئة بالتماسيح! وتعرفت على العريس القائد. إنسان مهذب، قائد سلاح يضم ٣ طيارات تدريب، و ٣ طيارات نقل، وهو «لواء» عظيم، والعروس على علاقة كاملة معه منذ شهور، وأعجبته بعد التجربة الطويلة!

كارثة يونيو ١٩٦٧

محب يوسف له أهمية خاصة فهو اللواء محب يوسف عام ١٩٦٧ الذي كان يقود طائرة قواد الجيش في ٥ يونيو ١٩٦٧، للتفتيش في سيناء. كان في الطائرة المشير عبد الحكيم عامر القائد العام، وقواد البحرية والبرية والطيران والمدفعية والدفاع الجوي والتدريب، وأقلعت من القاهرة ٨ صباحاً، وأبلغت المدفعية في كل مكان: طائرة عظيم في الجوا

ومعنى هذا أن تغلق المدفعية أبوابها ـ وانتهزت إسرائيل الفرصة، وهاجمت المطارات في هذه الفترة. كان موقفه هو بالذات عصيباً. كان مقصده الأول أن ينزل بالعادة في مطار «المليس» في سيناء! عندما اقترب من المطار أخطر القادة بأنه يرى ألسنة من النار فوق المطار، بما تدل على أنه تعرض لهجوم من العدو! قالوا له: بلاش كلام فارغ! مضى في طريقه، الممرات والمهابط مخربة مضروبة! دعاهم للمشاهدة. أقروا!

طلبوا منه العودة. عاد. حاول النزول في مطار غرب القاهرة فوجده محطماً ـ فكر في مطار مدني شبه مهجور هو مطار امبابة للطيران الشراعي والمدني فوجده مصروباً. قرر النزول في مطار القاهرة الدولي فوجده مضروباً. لكن لم يعد أمامه خيار. نزل تحت وابل من القنابل، فما زال الضرب جارياً! نزل قادة الجيش المصري في المطار مهرولين، وأخذوا سيارات تاكسي إلى مواقع قياداتهم، لكن الحرب كانت قد انتهت!!

أعجب جنازة في العالم!

ونعود لبرازافيل لنشاهد أعجب جنازة في العالم. الفقيد يُحمَل في عربة تجرها خيول مطهمة كالعادة، ويشيّع بالموسيقى، لكنها ليست موسيقى حزينة وإنما موسيقى جاز صاخبة، والمشيّعون يرقصون في مرح، حتى يوفروا للفقيد الراحة والسلام والمرح، في دنيا أفضل من هذه الدنيا، ثم نرى العجب!

جرت العادة في ريف مصر على أنه إذا حدثت وفاة في القرية يقوم أهلها بمشاركة أسرة المتوفى في العزاء، بتقديم صواني العشاء للمعزين، من باب الشهامة والتعاطف والتكافل. أما المشاركة في الكونجو فهي بتقديم براميل أو صناديق البيرة!! ويحدث العزاء في أكبر الميادين، وفي أركانها توضع براميل كبيرة وأقداح، والوافدون لتقديم العزاء يصبون هداياهم من البيرة في هذه البراميل، التي لا تفرغ طوال الليل! والأغرب من ذلك أن الجوقة الموسيقية لا تكف عن العزف، والموسيقى بطبيعة الحال راقصة، حتى يخيل إليك إن الكل فرحان لأن

الفقيد فارقته الحياة! إلا أن فلسفتهم يمكن إجمالها في أن المتوفى ارتاح من هموم هذه الدنيا، ولا يجوز أن نزيده هماً في الحياة الأخرى بالنواح والعويل!

اللوحات أرخص يوم السبت!

وفي الكونجو برازافيل فنانون موهوبون في رسم لوحات طيور وحيوانات الغابة برقة متناهية ودقة هائلة،ويبيعونها بأسعار زهيدة، لكي يشتروا بثمنها أقداح البيرة، التي يبدأون في احتسائها من السابعة صباحاً، بدلاً من الشاي أو القهوة. والأفريقي بصفة عامة لا يهمه الطعام، ما دام «اليام» أو «المانيوك» موجوداً، سواء في الشرق أو الغرب أو الوسط. ويصنع الأفارقة من هذا النبات الدرني عجينة أشبه بالعصيدة، أو البطاطس «البوريه»، ويبدو أنه نبات شيطاني لأن ثمنه زهيد جداً، ولا يطغى على «حق» البيرة فهو الأهم!

اللوحات طريفة فعلاً، ولذلك اشتريت عدداً منها كهدايا، ودفعت في اللوحة زهاء ٤٠ فرنكاً ـ والفرنك هو عملة الكونجو ـ ولكن أعضاء البعثة قالوا إني رجل ساذج، لأن ثمن اللوحة يوم السبت ٧ فرنكات فقط! ذلك أن الرسام يريد يوم السبت أن يبيع بأي ثمن، وأكبر قدر، فهو لا يتعزز ولا يتمنع، وإنما كل ما يريده أن يجمع ثمن أقداح البيرة، لكي ينسجم، ثم يرقص مع فتاته في حانة أو ملهى أو في ميدان عام، فالرقص في الميادين يستمر ليلة الأحد، حتى الفجر! . .

زفة محلاوي في برازا!

وفي عام ١٩٧٤ وصل فريق المحلة الكبرى إلى نهائي بطولة أندية أفريقيا لأبطال الدوري، وكان خصمه في النهائي فريق «كارا» الكونجولي، والفريق يلعب مباراتين ذهاباً وعودة، وفي مباراة الذهاب في برازافيل نزلنا بأكبر فنادق المدينة، وكان أمامنا كنيسة، ولاحظنا أن هناك استعداداً لتوثيق زواج. ولم أكن أعرف أن في فريق المحلة مواهب فنية في مقام الغناء والرقص والفنون الشعبية، إلا أنهم عرضوا المشاركة في عمل زفة للعروس على الطريقة المصرية!

لا أدري كيف جمعوا عدداً من الدفوف، ولبسوا الجلاليب «المحلاوي»، ووقفوا صفين على باب الكنيسة. ولما خرج العروسان بعد أداء المراسم، وجدا هذا المشهد! ودقت الدفوف وغنى اللاعبون «إتمخطري يا حلوة يا زينة». وأثار ذلك جواً من البهجة والمرح، ولقي استحساناً هائلاً، وكسب فريق المحلة شعبية لكنه خسر المباراة ٢/ ٤.

السحر في أفريقيا

كان المطر غزيراً يوم خسرت المحلة المباراة، وتوقعت أن تكسب في العودة بالمحلة بفارق أكبر. لكن يبدو أن السحر الأفريقي تدخل!

وقد لاحظت أعمال السحر من قبل في غانا والكاميرون ونيجيريا وتنزانيا وتوجو وغيرها، ففي كل مباراة ترى أعمال شعوذة، مثل رمي «حجاب» في المرمى، أو قطعة سكر عليها تعاويذ، أو منديل معقود بطريقة معينة، ثم ينزل الفريق بترتيب محدد، وفي خطوات محسوبة،

وبعد طقوس مرسومة، وما إلى ذلك، وكما أن لدينا طبيباً لكل فريق، فإن الأفارقة لديهم لكل فريق ساحرا!

وجاءت مباراة العودة بالمحلة، وكان يجلس إلى جواري الزميل والصديق جاك فيران رئيس تحرير مجلة الفرانس فوتبول. وهاجمت المحلة بشدة، وسيطرت على الملعب بشكل منقطع النظير، وصنعت ما تشاء إلا التهديف. وضاع ١٢ هدفاً على الأقل من فرص سانحة في غاية اليسر، وأسرّ جاك فيران في أذني قائلاً: لم أر في حياتي هجوماً بهذا الشكل ينتهي إلى لا شيء!

وفازت المحلة ٢/ ١ فقط، ولم يكف هذا للحصول على الكأس. وقلت لجاك فيران: هل هو السحر حقيقة؟

قال: اللاعبون والمواطنون الأفارقة يؤمنون بالسحر، وساحر القبيلة والفريق يرسم خطة معينة لضمان مفعول السحر، فإذا فشل فإنه يزعم أن الخطة لم تنفذ، وإذا نجح برهن على أن السحر هو سبب الفوز. والمدربون لا يمانعون في ذلك، لأنه في جميع الأحوال لا يعدو أن يكون رفقاً لمعنويات اللاعبين، وليس في ذلك ضررا!

لبنـان

لبنـان بين ذروة الشموخ وحضيض الهوان!
بالقطار كنا نصل إلى لبنان وسوريا عبر فلسطين!
أجمل الرحلات في المصايف والمشاتي وجبال الأرز!
بين الكازينو ومغارة جعيتا وشتورا وبعلبك!
خبراء العالم في الاقتصاد احتاروا في ميزانية لبنان!
بقرش صاغ كنت تشتري ١٣ برتقالة من البيّارة!
كان الترام بنكلة وكان الفطور عند عفيف بقرشين!
عندما طالبنا وزير التعليم اللبناني أن يلقي مونولوجاً!
بين المرح في شارع الحمراء ومجازر صبرا وشاتيلا!
حرام أن يطغى دوي المدافع على صوت فيروز والوروار!
بيروت يجب أن تقيم تمثالاً ضخماً لجمال عبد الناصر!

زمـان، في أواخـر الثلاثينيات، كان أبطـال مصر في الرياضـة من الجامعة، وكانت الوحدة العربية قائمة وبدون «كلام»! ولذلك كانـت كل رحلاتنا إلى لبنان! نستقل القطار من القنطرة شرق إلى العريش ورفح وغزة، لنلعب في القدس وحيفا ويافا، ثم نستأنف الرحلة بالحافلة إلى بيروت، لنتبارى هناك؛ ونستمتع بمباهج الجبـل الأشـم، ونتجـول في مغاني الأرز، ونستروح أمجاد التاريخ في بعلبك، وننتظر قدوم مندوبين من سوريا للاتفاق معنا على تكملة المشوار إلى دمشق وحمص وحلـب

الشهباء! سنة وراء سنة، كان هذا دأبنا حتى أصبح من تقاليد الجامعة!!

واليوم خلت الجامعة من الأبطال، وأصبحت الوحدة العربية «مجرد كلام»، مجرد شعار نردده ولا نطبقه، فأسهل للعربي أن يزور بلاد واق الواق من أن يزور دولة عربية، ولم يكن العائق هو قيام إسرائيل المزعومة، واحتلالها الأرض الفلسطينية الحبيبة، فقد حاربنا من أجل استعادتها، وما زلنا نجاهد ولو بالكلام، وإنما كان العائق فقدان الثقة بين العرب وبعضهم بعضاً، والخوف من تصدير النظريات من الناصرية إلى البعث العفلقي إلى البعث التكريتي إلى النظرية الثالثة القدافية، إلى الجاسوسية والشيوعية وغيرها.

ويؤسفني - كرحالة - أن أثير هذه المواجع العربية، لأنها هي التي أوصلتنا إلى ما يعانيه لبنان، منذ عام ١٩٧٥، من تمزق وتفكك وحرب، حتى تدهور من ذرى الشموخ إلى حضيض الهوان، وحتى تحول فردوس السياحة إلى جهنم العذاب والنار والعار!

أسعار بيروت زمان!

وزمان كانت الأسعار رخيصة في كل مكان! وصحيح أن كل ١٠ بيضات في مصر كانت تساوي قرشاً واحداً بينما البيضة الواحدة الآن ثمنها ١٢ قرشاً، إلا أنك كنت تدفع ٥ قروش وتدخل أيّة «بيارة» في فلسطين لتأكل ما تشاء من فاكهة، لأن البرتقال اليافاوي كان يباع بالعدد وكل ١٣ برتقالة بقرش!

وكنت تجد مستوى الأسعار في بيروت أقل من ذلك، وكان اللبنانيون ينتظرون «مصاري» المصريين وريالات الخليج، وما زالت الفلوس اسمها المصاري هناك! وهكذا بقرشين كنت تفطر طعمية وفول مدمس مع الشاي والحواشي عند «عفيف» بميدان البرج، في قلب بيروت!

مغاني لبنان كانت روعة!

لهذا كانت رحلات العرب إلى بيروت لا تنقطع، سواء كانت رياضية أو سياحية. في عز الشتاء كانت متعة السائح العربي الذي يعاني من القيظ والرطوبة، أن يزحف إلى جبال الأرز الشماء التي تكلل هاماتها الثلوج البيضاء، ولو لمجرد التراشق بندف الثلج! في عاليه وبحمدون

الشوير وغيرها من المرتفعات الخضراء صيفاً والبيضاء
النقاء على الدوام!

ملة، في ظلال الخميلة! والماء ينساب تحت قدميك
لجدول الرقراق سيمفونية علوية، و «الزلمة» ينفث
دخان «ا رجيله، ويعب من القنينة، ويتشدق بالفستق والتبّولة، ويبرم شاربه الكث، الذي يقف عليه الصقر، ويضحك ملء القلب، كأنه يسمع آخر نكتة!!

في مغارة جعيتا، حيث يعقِل المشهد لسانك ووجدانك، والقارب ينساب بك فوق الماء في عمق المغارة، تحت الجبل الأشم، وكأنما صوت المجداف يسبح بقدرة الله، وأنت مأخوذ بجلال صنعه!

في بعلبك حيث لمحات المجد الفينيقي القديم لأول أمة بحرية في حوض البحر الأبيض المتوسط، وآبار الطغيان البيزنطي، حيث لم يبق الزمان سوى هياكل وأعمدة صماء، لا فرق فيها بين عظمة هاميلكار وخسة بيلاطس!

وتستمر الزيارات رغم قيام إسرائيل!

وتقوم حرب ١٩٤٨، ويحدث فيها ما يحدث، وينقطع الاتصال البري السهل بلبنان، لكن زيارات العرب لها لا تتوقف، وإنما تستمر بالجو والبحر. وتقوم الثورة في مصر، ويرحب بها العرب، ويعرب الرئيس اللبناني كميل شمعون عن ترحيبه بدعوة شباب الجامعات المصرية لأداء عروض رياضية ومباريات في بيروت عام ١٩٥٤. وتتكون البعثة من ٧٠٠ فتى وفتاة من المعاهد الرياضية والفرق القومية، وتستقل الباخرة الحرية - باخرة الملك فاروق المخلوع - وتقابل البعثة بمظاهرات خرافية!

وفي حفل الختام تحدث نكتة لا أنساها. «بالسبهللة» العربية لم يوزعوا علينا برنامجاً للحفل، الذي أقيم في أحد مسارح بيروت. وفي البداية قام المونولوجيست اللبناني خفيف الدم ثقيل الوزن إلياس مؤدّب، بإلقاء مونولوج انتقادي خفيف، اسمه «إفرنجي برنجي». وكان يلبس بدلة السهرة أو الفراك. بعده مباشرة صعد إلى المسرح شخص يرتدي نفس اللبس، وقبل أن يتحدث صفقنا جميعاً، وجعلنا نصيح: افرنجي برنجي وحياة أبوك!

لكن تبين أنه وزير التربية والتعليم!!

ودارت الأيام. . ونهض لبنان!

ودارت الأيام. وانتعش لبنان في الستينيات، مستفيداً من تدهور الأوضاع في مصر، بعد التأميمات وإجراءات تأمين الثورة! ولم تتوقف زيارات الفرق الكروية المصرية لبيروت، ولم تتوقف رحلاتي إليها. كذلك لم تتوقف النكتة المصرية إطلاقاً. وأتذكر نكتتين على وجه التحديد.

الأولى أطلقها لاعب كرة، لا داعي لذكر اسمه، حين وقفنا نتأمل تمثال رياض الصلح، بساحة الصلح ببيروت، حيث قال اللاعب: والله، واجب على بيروت أن تقيم لجمال عبد الناصر تمثالاً أكبر من هذا التمثال عشر مرات!!

والثانية أطلقها صحفي. وكان لبنان قد استدعى الخبير الاقتصادي العالمي فان زيلند، لدراسة ميزانيته ودخله القومي، وتقديم مشورته في شأنهما، حيث قال فان زيلند بعد دراسة مستفيضة: خليكوا ماشيين زي ما انتم!

قلت: لماذا؟ قال: لانه راجع المصروفات فوجدها مضبوطة، لكنه عجز عن حصر الإيرادات ومن أين تأتي!!

تعاطف رائع . . حتى بعد النكسة!

وجاءت حرب حزيران ١٩٦٧، وحدثت النكسة. واستدعاني الأستاذ محمد حسنين هيكل رئيس تحرير الأهرام إلى مكتبه، ووجدت معه صديقي وزميلي القديم في فريق الرجبي المهندس عثمان أحمد عثمان، وقالا لي: نريد أن ترتب للنادي الاسماعيلي رحلة في الأقطار العربية الشقيقة خلال ١٩٦٨، لأداء مباريات يخصص دخلها لدعم المجهود الحربي! المهم أن يظل اتصال الشباب العربي قائماً، وأن نحول دون تسرب اليأس إلى الجماهير.

ولست أدري لماذا بدأت من لبنان! ربما لأني أحبه! ووصلت إلى بيروت، واتصلت بالصديق عمر الغندور رئيس نادي النجمة، وبالإخوة الأعزاء النقاد الرياضيين لاسيما في وادي الصياد والحياة. واتفقنا على مباراة مع نادي النجمة في ستاد كميل شمعون، الذي افتتحته الفرق المصرية عام ١٩٥٤، وعلى ضرورة مقابلة «الأفندي» في طرابلس، لتنظيم مباراة هناك! والأفندي هو الزعيم رشيد كرامي، الذي استقبلني بكرمه وعباءته وفكره الرياضي والسياسي الناضج، ووعدني بمباراة مع جمعية الرياضة والأدب بطرابلس! وحددنا المواعيد والشروط، فاللاعبون من الجانبين متبرعون، وكل الدخل للمجهود الحربي، واستأنفت رحلتي إلى الخليج، حيث رتبت مباريات مماثلة في الكويت والبحرين وقطر وأبو ظبي ودبي والشارقة، ولم تكن دولة الإمارات قد تكونت بعد. وعدت عن طريق بيروت لأجد مفاجأة! فقد وجدت في

الصحف خبراً يفيد بأن الرئيس جمال عبد الناصر قد منحني وسام الجمهورية، تقديراً لهذا المجهود.

التطور العظيم في بيروت!

وسافرت إلى القاهرة، وعدت إلى بيروت بفريق النادي الاسماعيلي، لنبدأ رحلة المجهود الحربي. نجاح معنوي رائع، الأستاد ليس به موضع لقدم، ومع أن الدخل يحتمل المناقشة إلا أن الهدف تحقق. وفي طرابلس نفس الشيء. ثم درس سياسي من الأفندي، رئيس الوزراء في هذا الوقت. نعم هناك طائفية في لبنان، لكن هناك توازناً مدروساً. الرئيس ماروني، ورئيس الوزراء مسلم، ورئيس البرلمان مسلم، وهناك وزارات للشيعة والدروز والسنيين، والمارونيين أو الكتائب. وكلهم لبنانيون، يتعايشون سلمياً من أجل لبنان، والكل إخوة، والدين لله، والولاء للوطن!

ونجد تطوراً عظيماً في بيروت. منطقة «الروشة» على ساحل البحر، أصبحت ناطحات سحاب فنادق ومطاعم وملاه وبنايات تفوق الخيال. شارع الحمراء أصبح قطعة من أوروبا، به آخر صيحات الموضة في المحلات التجارية الفاخرة، وفي عابرات الطريق من الكَواعب الحسان، والمسارح والملاهي على الجانبين، والمكتبات تعرض أحدث المنتجات العربية والإفرنجية الفكرية، بعد أن أصبحت بيروت العاصمة الثقافية للعالم العربي، وكل ذلك بفضل عبد الناصر!

والبناناه!

ومرت الأيام. وعُينّ علي أمين رئيساً لتحرير الأهـرام. واستدعانـي وقال لي: عندك دعوة لزيارة بيروت، في مناسبة الاحتفـال بفـوز نادي النجمة ببطولة الدوري، لعام ١٩٧٤. أرجو أن تذهـب وتبـارك لهـم وتدعو محمد طرابلسي بطل رفـع الأثقـال لزيارة مصر. ولقيت حفـاوة بالغة، واستمتعـت بصحبـة جميلـة مع مضيفـات جويات من تونس، وسهرات ممتعة في كازينو دي ليبان، حيث قابلت المطرب المصري محرم فؤاد ومعه جورجينا رزق اللبنانية ملـكة جمـال العالـم، وفي غـيره من الملاهـي، التـي امتـلأت براقصـات من مصر، أصلهـن خادمـات في البيوت!

وفي بيروت، لبيت دعـوة صديقـي المصري رجـل الأعمال رمـزي غبريال إلى عدد من الرحلات، ذكرتني بأيام الشباب، واتفق معي على أن أقضي صيف ١٩٧٥ في لبنان. لكن «هوجة» قامـت هنـاك، وكان مكتبـه في شارع الحمـراء من ضحاياهـا، فصفـى شركتـه وهاجـر إلى أمريكا، وبدأت الحرب الأهلية في لبنان!

وتطورت الحرب إلى المأساة التي نعيشها الآن! بعد صبرا وشاتيلا، بعد تصفية المجاهدين الفلسطينيين، بعد الحرب الضـارية بـين الجيش والكتائب المـارونية والشيعة والدروز والسوريين، والموالين والمنشقين، كان لا بد أن تتوقف الرحـلات، وأن نضرب كفـاً على كف، ونقـول والبنانـاه!! حرام أن نشاهـدك في هذا الهـوان!! حرام أن يطغـى دوي المدافع على صوت فيروز الملائكي وشقشقة طائر الوروار!!

زائير

زائير الجميلة . . أرض الخرافة والجمال الطبيعي والماس!
بين ثلوج جبال القمر الشماء ونيران بركان نيرانجوجو!
احتمال كبير أن تكون قبائل الأقزام من أكلة لحوم البشر!
القرود وديدان الأرض و«اللوامب» أطعمة حلوة المذاق!
الابن ينسب للأم والبيرة من الصباح والرقص متعة الحياة!
الماس ليس للزينة فقط وإنما لصنع أدق آلات الحفر والقطع!
عشرات الآلاف من أفراس النهر على شاطىء بحيرة إدوارد!
منابع نهر النيل الخالد بسحرها الأخاذ تمتد إلى بوروندي وزائير!
قرار من موبوتو بمنع النساء من لبس الباروكات والميني جيب!
طبلة من فريق الاسماعيلي تحل أي إشكال بسبب حب الرقص!
نقرة تحول الرئيس موبوتو من زعيم سياسي إلى راقص زائيري!
أزمة في القاهرة عام ١٩٧٤ بسبب فريق زائير وأكل القرود!

كان يوم ١٠ يناير ١٩٧٠ يوماً مشهوداً في تاريخ الرياضة المصرية، حيث التقى على أرض ستاد القاهرة فريقا الاسماعيلي المصري والانجلبير دولـومـومباشي القوي جداً ـ اسمه الرسمي هكذا ـ بطل زائير في نهائي بطولة أفريقيا أبطال الدوري، وفاز الاسماعيلي ٣/ ١ وأحرز البطولة لأول مرة، أمام ١٢٠ ألف متفرج فاضت مشاعرهم القومية، لأننا كنا لا نزال نعاني أثر النكسة أو هزيمة يونيو ـ حزيران ـ ١٩٦٧، ونمارس حرب

الاستنزاف، من قبيل إحياء الأمل وإذكاء الروح الوطنية!

يومها لم يكن الرئيس سيسي سيكوموبوتو قد أصدر قراره الشهير بتغيير الأسماء الأجنبية وإحلال أسماء وطنية محلها، فكانت زائير هي الكونجو كينشاسا، وأصبح الانجليز دولوموماشي اسمه «مازيمبي»، ومازيمبي باللغة الوطنية هو التمساح، وكان ذلك أول اتصال لجماهير الشعب المصري بزائير وفرقها الرياضية. لكني كنت قد عرفت زائير قبلها، في رحلة الذهاب مع النادي الاسماعيلي.

دولة غنية

نزلنا بفندق إنتركونتننتال، أفخم فنادق كينشاسا، العاصمة الكبيرة الجميلة، التي تقع على نهر الكونجو، في مواجهة برازافيل الصغيرة، عاصمة الكونجو برازافيل، حيث يبدو الفارق الكبير بين الغنى والفقر. الرحلة مرهقة، فبعد طيران ست ساعات من القاهرة إلى كانو في شمال نيجيريا ثم لاجوس العاصمة، كان علينا انتظار طائرة أيرزائير- ومواعيدها غير منتظمة، لنستقلها عبر الجابون، هابطين في مطار ليبرفيل، ثم عبر الكونجو برازافيل إلى كينشاسا. المطار فخم ومكيف، أقيم في نطاق سباق المطارات بين الدول الأفريقية باعتبارها «واجهات» لتقدم الدول، مهما كان ذلك على حساب قوت الشعوب المغلوبة على أمرها، لأن معظم حكومات الدول الأفريقية هي نتيجة انقلابات عسكرية!!

وزائير بلاد غنية، ثرواتها الطبيعية ضخمة وأهمها الخشب والشاي والبن والكاكاو والمطاط، والنحاس والكوبالت والمنجنيز والأورانيوم

بوفرة لا مثيل لها في الدول النامية كلها، والماس الهائل وبكميات ضخمة في مقاطعتي كاتانجا وكاساي، وهو ليس للزينة فقط وإنما أيضاً لصنع أدق آلات الحفر والقطع وغيرها من لوازم المصانع الثقيلة في العالم كله!

الثلج والنار جنباً إلى جنب!

وفي ذلك الوقت كانت إسرائيل قد تغلغلت في الكونجو كينشاسا أكثر منها في أية دولة أخرى، وباستغلال لعين. فقد اشترت مثلاً حق الاستيلاء على الخشب ـ وهو ثروة هائلة ـ مقابل استخدام عمال من الكونجو لقطع الأشجار، وهي تعلم أن هذا لن يحدث، وأنها لا بد سوف تستعين بعمال من إسرائيل!

حقيقة شيء مدهش لأن الغابات تغطي زائير كلها، وبها أمتن الأشجار الخشبية. تلاحظ هذا من الطائرة حتى في الرحلات الداخلية، ومنها رحلة لا تنسى!

رحلة «السفاري»، وهو لفظ سواحيلي مشتق من السفر، والمنطقة هي حدائق حيوان مفتوحة كما في أوغندة وتنزانيا وكينيا، على ارتفاع ١٦٠٠ متر عن سطح البحر، ومساحتها ٨٤٠ ألف كيلومتر مربع، ويزرعها السياح طولاً وعرضاً في عربات مصفحة مفتوحة من أعلى لتيسير تصوير الوحوش على الطبيعة، وهناك فندق «توب تري» عبارة عن أكواخ نظيفة معلقة بين الأغصان والمرتفعات، والنور يضاء طوال الليل لطرد الحيوانات المفترسة. وما أروع أن تشاهد عشرات الآلاف من أفراس

النهر على شاطىء بحيرة إدوارد، والثلوج تتوج هامات جبال القمر المشتركة بين زائير ورواندا وبوروندي، وتنساب منها المياه في شلالات رهيبة لتكون من منابع النيل الخالد، ونيران حمم بركان نيرانجوجو الثائر دائماً مشتعلة، في تناقض صارخ مع ثلوج القمر! مناظر ساحرة أراها وأكلم نفسي: أين يا ربي يوجد مثل هذا الجمال الطبيعي الهائل؟!

تحذير: إياك والأقزام!

استغرقت الرحلة إلى هذه المنطقة الفطرية الساحرة، واسمها فيرونجا في مقاطعة كيفو، يوماً كاملاً. وأردت أن أشاهد قبائل الأقزام، لكن الصديق الناقد الكونجولي الرياضي لوسيان تشيمبامسو وزير الرياضة الآن نصحني قائلاً: أرجو أن تقلل رحلاتك إلى الغابة بقدر الإمكان، لأنها من الكثافة في بعض الأحيان بحيث نجهل ما وراءها، وماذا تخفي في داخلها. وحذار على كل حال من قبائل «الأقزام» بالذات، ويسمونها بالانجليزية «البجميز»، وإن كانت لغة التخاطب في زائير هي الفرنسية، إلى جانب السواحيلي، نظراً لكثرة القبائل ولغاتها ولهجاتها. ذلك أن الأقزام أغلب الظن - والكلام للزميل الزائيري - من أكلة لحوم البشر، بحكم انطوائهم في الغابة، وعزلتهم عن المجتمع، وبعدهم عن المدينة. وقد حاول الرئيس موبوتو إدماجهم في المجتمع، وإزالة مركبات النقص من نفوسهم. وتقطن هذه القبائل في منطقة كاسنجاني في ستانلي فيل، في قلب الغابة الكثيفة، وتعدادها زهاء ٤٠ ألف نسمة. وقد عملت بنصيحة الناقد الصديق بطبيعة الحال، وصرفت النظر عن الاقتراب من

الأقزام، لأن حب الاستطلاع والمعرفة لا يجب أن يذهب بي إلى حد المخاطرة بالنفس! وكنت أتصور في أحلام اليقظة أني وقعت في أيديهم، فقيدوني، وجعلوا يرقصون حولي، ويمنّون النفس «بأكلها» دسمة، ويغلون القدرة على النار، ليأكل من يشاء من «بعضي» مسلوقاً، ثم يشوي ما بقي مني شيّاً، ليكون شواءً شهياً! وأفيق قائلاً: يا حفيظ يا رب!

زي المرأة.. وزينتها!

والزي الوطني للمرأة في زائير عبارة عن قطعة قماش من القطن المنقوش الزاهي الألوان طولها زهاء خمسة أمتار وعرضها متر، تقسم إلى ثلاثة أقسام بالتساوي، تلف إحداها حول الخصر إلى أسفل لتصبح «جونلة» طويلة مفتوحة في أسفلها على جنب، والثانية تصبح بلوزة واسعة بدون أكمام، والثالثة تلف حول الرأس لتكون عمامة أو تربون، وقد تفك وتصبح لفّة للطفل تربطه المرأة على ظهرها. وهذا الزي ترتديه الفتاة والمرأة على السواء، وبنفس الألوان الزاهية حتى للعجائز.

وقد يبدو الرئيس موبوتو شبيهاً بالحاكم بأمر الله في مصر الذي منع أكل الملوخية، لأنه حين أصدر قراراته باستعمال الألفاظ والبضاعة الوطنية حرم استخدام الباروكات للنساء وكذلك الملابس الإفرنجية لاسيما «الميني جيب» التي غالت فيها بنات زائير. ولهذا فإن المرأة في زائير تصفف شعرها على أشكال متعددة تناسب طبيعة شعرها، لكن أغلب التسريحات تقوم على أساس مئات من الضفائر الرفيعة جداً ـ كما هو

الحال في نيجيريا وغانا وغينيا وتوجو وبنين وغيرها ـ على أسلاك دقيقة، وتساعدها «ماشطة» بطبيعة الحال، وقد تستغرق عملية التصفيف يوماً بأكمله! وبقدر عدد الضفائر يكون الجمال!

والحديث عن الجنس في أفريقيا محرج أشد الحرج، ولذلك أمر عليه مروراً عابراً، لتوضيح حقيقة واحدة، وهي أن الأفارقة لا يرون في الجنس أي حرج! فهو «سداح مداح»، ولذلك فإن الولد في زائير ينسب إلى أمه، لأن الأب غير معروف والعياذ بالله!

ولا بد من وقفة هنا! فإذا كان الاستعمار قد شجع في الأفارقة شرب البيرة من الصباح الباكر، إلى الهزيع المتأخر من الليل ـ رغم الفقر وغلاء ثمن البيرة نسبياً، وإذا كان قد شجعهم فيهم الكسل، الذي يرجع إلى ثقل الجو بسبب الحر والرطوبة، فإنه لم يشجع فيهم التسيب في المسائل الجنسية، وإنما هو طبيعة فطرية من سمات البوشمان أو رجل الغابة!

ويؤيد هذا الرأي، الذي انتهيت إليه، بعد جولات لا نهاية لها، في كل البلاد الأفريقية، أن «الرجل» لا يرى غضاضة في ذلك، ولا يشعر بمهانة، لأنه مشهود له بالفحولة على المستوى العالمي. بل إن بعض زعماء القبائل يتزوج ويقتني عشرات النساء، وينجب منهن عشرات الأطفال. وإذن فهو وضع اجتماعي فطري تفرضه حياة البيئة أو الغابة، وإلا كيف نفسر نسبة الولد إلى أمه؟

«معلهش»! أرجو ألا يكون في هذه الصراحة خدشاً لحياء أحد، فهو تفكير علمي في ظاهرة تستحق الدراسة! والعلم بالشيء خير من الجهل

به. فمقابل هذا نرى الروس يقررون في أغسطس ١٩٨٣، تدريس مادة الجنس إجبارياً في مدارس المرحلة الثانوية. ومن هنا يجب علينا نحن العرب ألا ندفن رءوسنا في الرمال كالنعام، ولا يضيرنا هذا في شيء، ما دمنا نلتزم بتقاليدنا العظيمة، وننفذ تعاليم ديننا الرائعة، ونحفظ أنسابنا وشرف نسائنا، ونخوة رجالنا، ونتفرج على هذه المفارقات كمجرد

خ!

فنادق كينشاسا، وهو
ولا النكهة ولا طريقة
كنا نتناول الطعام في
نا في الفندق مُرَحِّباً،

في زائير، وكنا ثلاثة
حسين شاهين طبيب
سوق شعبي تباع فيه
نحاسية وعاجية وحلى

ب، وهالني ما رأيت!
هناك أيضاً شيء مثير

للقرف. ديدان «المولتي»، ديدان الأرض التي نستعملها طعماً للسمك، تباع حية بالواحدة ووزن كل منها ٢٠٠ جرام ولونها بني وهي تشوى أو تسلق! وعرفت سر وجود أولاد كثيرين خارج المدينة يحفرون في الأرض، وكنت أحسبهم يبحثون عن نبات اليام أو المانيوك الدرني، وهو طعام أفريقي أساسي، فإذا بهم يبحثون عن الدود لتوريده للمطاعم أو لكي يأكلونه هم أنفسهم!!

ومع الأسماك والديدان واليام هناك القرود المشوية، وهي تعلق كاملة على باب المطعم لكنها تقدم على المائدة على شكل شرائح أو شيش كباب. وهناك أيضاً الطبق الزائيري الأساسي واسمه «اللوامب»، ويتكون من دجاج منقوع في صلصة من زيت النخيل، مع أرز وعجينة المانيوك أو اليام، ومعه طبق من أعشاب تشبه الملوخية واسمها «سوميني» تضاف إليها بعض قطع اللحم أو الدجاج، والكل مليء بالبصل «والبيلي بلي» أي الشطة، وهي ألعن في لسعتها من الشطة الصومالية القصيرة التي توقف شعر الرأس!

ولم أستطع قطعاً الاقتراب من هذه اللخبطة، ولكن زميلاي استساغا طعمها، وإن «تشعوط» لساناهما من الشطة حتى كادا يصرخان! ثم صارحاني بأن أجمل ما في هذه الوجبة الشعبية هو لحم القرود! وعايرتهما طوال الرحلة بأنهما من «أكلة لحوم القرود»، فشكل القرد المشوي لا يخرج عن شكل طفل صغير. ولعل هذا الشبه هو الذي عوّض الناس عن أكل لحم البشر. ولعل الذي قرأ كتاب داروين في

نظرية النشوء والارتقاء، وما انتهى إليه من أن الانسان أصله قرد، يدرك المعنى الذي أريد أن أقوله!!

قرود زائير وأزمة بمصر!

والقرود المشوية هي الوجبة المحببة في زائير. وأذكر بهذه المناسبة أنه حدثت أزمة بسببها في مصر، في مارس ١٩٧٤ حين نظمت في القاهرة الأدوار النهائية لبطولة دول أفريقيا الكروية، وكانت زائير ضمن هذه الدول ولعبت في مجموعة بالاسكندرية. وكانت البعثة الزائيرية قد أحضرت معها عدة أطنان من لحوم القرود المجمدة بالطائرة، وأرادوا طهيها بالفندق فرفض رفضاً باتاً، خوفاً من «قرف» النزلاء واحتمال مغادرتهم للفندق! بل رفض الفندق استعمال أواني الطهي والأطباق لهذا الغرض، فكانت أزمة، واتصالات دبلوماسية على مستوى عال، وانتهى الأمر بتسوية «سلمية»، هي أن تقوم سفارة زائير في القاهرة وبيوت السفير وموظفي السفارة بطهو القرود صباح كل يوم في القاهرة، وإرسالها إلى الفريق بالإسكندرية، بالبر أو بالجو، لتصل إلى الفريق قبل وجبة الغذاء!

وعندما اجتاز الفريق التصفية ووصل إلى الدور قبل النهائي الذي تجري مبارياته في القاهرة، تكرر الرفض من الفندق الذي نزلت به البعثة، وواصلت السفارة تقديم القرود المشوية للفريق من منازل أفرادها!!

الرقص عادة وعبادة!

وأهل زائير يشتهرون بخفة الدم، وإذا كانت كل أفريقيا تعشق الرقص فإن زائير تعبده عبادة. وأي نقرة أو إيقاع على أي شيء يجد استجابة فورية من عضلات الرجل أو المرأة أو الطفل، فتنساب انسياباً موسيقياً حلواً وتلقائياً. وكان ذلك بطبيعة الحال مصدر لهو لنا، في زيارتنا الأولى بصفة خاصة.

استهوت الحكاية فريق النادي الإسماعيلي، فاشترى بعض أفراده طبلة، كانت كفيلة بخلق جو من المرح يحل أية مشكلة. وكنا نسير ذات يوم فوجدنا عاملاً معلقاً على سقالة عالية جداً في عمارة من «الأبراج» الحديثة المتعددة الطوابق، وكان منهمكاً في عمله، إلا أنه عنَّ لبعض اللاعبين أن يداعبوه، فنقروا على الطبلة نقراً منغماً، بإيقاع راقص، وإذا به يترك عمله، ويرقص على السقالة وهو متشعلق، إلى أن أشفقنا عليه أن يقع من حالق، فعاد إلى عمله بهدوء!

أكثر من ذلك! في جولة لنا بالمدينة فوجئنا بميدانها غاصاً بمئات الآلاف من البشر لأن الرئيس موبوتو سوف يلقي خطاباً سياسياً، وهو يتمتع بشعبية عارمة ويشتهر بخفة الدم! ووقفنا نتفرج، وكان من ضمن الشعب المستمع قبائل وافدة من الغابة بأزيائها البدائية وطبولها وريشها و«شخاليلها». ووقف موبوتو يخطب بحماسة وانفعال، وتحت إبطه عصا المارشالية المعروفة، وعلى رأسه غطاء من جلد النمر أشبه بالفيصلية! وطال الخطاب، ويبدو أن الضجر تسلل إلى بعض النفوس، وسمعنا نقراً

خفيفاً في إيقاع منغم ، وإذا بالرئيس يرقص على المنصة ، ويترك الخطاب ، وتزداد الطبول ، وينتشر الإيقاع ، ويتحول الميدان إلى حلبة رقص ليس لها مثيل!

والشيء العجيب أن موبوتو قلما يلجأ إلى الخطب السياسية ، وإنما هو يلجأ إلى كرة القدم ـ مثل غيره من الرؤساء الأفارقة ـ لتوحيد كلمة البلاد ، والتذكير بالوطن ، وإذكاء الروح القومية ، التي تشتتها كثرة القبائل واتساع البلاد وانفصال الولايات عن بعضها بعضاً ، وتشعب اللغات واللهجات. وقد أكد لي ذلك الزملاء الزائيريون من النقاد حين أبديت لهم عجبي من مشاهدته يحضر تدريبات فريق «الأنجلبير دولومومباشي القوي جداً» ، أو مازيمبي باسمه الزائيري الجديد!!

يوجوسلافيا

يوجوسلافيا وعصر الرخاء بعد الانسلاخ من الشيوعية!
اشتراكية تيتو الخاصة والتحول من الزراعة إلى الصناعة!
توزيع المصانع على المدن الكبرى دون تركيز على بلجراد!
كيف يعيش مليون مسلم في جمهورية البوسنة والهرسك؟!
هوسينوفتش هو حسين وهاليلوزيتش هو خليل. . !
المباهج السياحية في لوبليانا وسيليت ودوبرفنيك!
لماذا راجت صناعة السياحة في ربوع يوجوسلافيا؟!
السيرك في الدول الاشتراكية وسيلة ترويح لكل الأعمار. . !
بلجراد عاصمة جميلة تتميز بالحدائق الغناء والنظافة!
تضحية من بطل يوجوسلافي لخلق مدربي كرة أكفاء!
المخيمات والمعسكرات متعة للشباب في لوبليانا!
سكوبيا المكان الوحيد الذي رفضت زيارته. . !

عندما زرت يوجوسلافيا لأول مرة عام ١٩٦٣ لم نكن نعرف في مصر سوى سياحة الآثار، لكن من خلال ترددي عليها عدة مرات آخرها ١٩٧٩ عرفت سياحة المشاتي والمصايف والشواطىء، وسياحة السيارات. وقد عرف المغرب العربي هذه الأنواع من السياحة قبلنا، فأقام القرى السياحية على امتداد ساحل البحر الأبيض المتوسط في تونس والجزائر، وامتداد ساحل المحيط الأطلنطي في المغرب. وكانت

فكرتي في البداية أن يوجوسلافيا دولة شيوعية مغلقة، تكثر فيها الطوابير، ويقل فيها الابتسام، لكن التطور الذي حدث هناك يثير الإعجاب!

ويوجوسلافيا من دول البحر الأبيض المتوسط والبلقان، مساحتها ٢٥٦ ألف كيلومتر مربع، وتعدادها زهاء ٢٢ مليون نسمة. تشقها إلى الشمال الشرقي سلسلة الجبال الدينارية، إلى سهل الدانوب، وإلى الشمال الغربي سلسلة جبال الألب السلوفينية. وهي جمهورية اتحادية تضم ٦ جمهوريات هي البوسنة والهرسك، وكرواتيا، ومقدونيا، وصربيا، ومونتنجرو، وسلوفينيا. وهذا التقسيم الإداري والسياسي يعني تعدد الجنسيات، وإن كان الجنس السلافي هو الغلاب، لكن هناك أربع لغات على كل حال هي: الصربية، والكرواتية، والسلوفانية، والمقدونية.

نمو صناعي زراعي عظيم

وفي ظل النظام الاشتراكي تحولت يوجوسلافيا من دولة زراعية إلى دولة صناعية، وفقاً لتخطيط سليم، يستفيد بخيرات الأرض الغنية بالمعادن مثل النحاس والبوكسيت والرصاص وغيرها، وبمساقط المياه من الجبال الشماء لخلق الطاقة الكهربائية، ثم توزيع المصانع على البلاد الكبرى مثل زغرب ولوبليانا وسراييفو وربيكا وسكوبيا ونوفي ساد، وهي مصانع للصناعات الغذائية والغزل والنسيج والصناعات الكيماوية والألومنيوم، تنتج ما يكفي حاجة البلاد على أقل تقدير،

والفائض للتصدير. أما الانتاج الزراعي وقوامه القمح والأذرة والكروم والفواكه فيقوم به القطاع الخاص، رغم قوانين تحديد الملكية الزراعية، وقيام كثير من المزارع التعاونية.

أقول ذلك كله لأنه أدى إلى قيام مدن كبيرة فيها كل لوازم المدينة وأسباب الترويح، وتخلق أجواء صالحة لصناعة السياحة، صيفاً وشتاءً، لاسيما بعد إقامة عشرات القرى السياحية على سواحل مقاطعة دلماسيا المطلة على الأدرياتيك، وكل منها جنة لعشاق السياحة الشاطئية.

عوامل أخرى للنمو السياحي!

وقد ساعد على النمو السياحي أن هناك حدوداً ليوجوسلافيا مع النمسا والمجر في الشمال، ورومانيا وبلغاريا في الشرق، واليونان وألبانيا في الجنوب، وإيطاليا في الغرب. وشباب هذه الدول السبع وحدها يمكنه أن يستمتع بمباهج السياحة في يوجوسلافيا، بمبالغ زهيدة، بالقطارات وسيارات الأوتوبيس ضمن رحلات جماعية، أو رسوم ضئيلة بالسيارات الخاصة والدراجات البخارية، ليمارس الشباب هواياته سواء كانت سباحة في الشواطىء أو استجماماً في القرى السياحية في دلمانسيا وجزر الأدرياتيكي، أو انزلاقاً على الجليد في لوبليانا أو الاسكندرية في البوسنة أو سرايفو التي أقيمت فيها خلال فبراير ١٩٨٤ الدورة الأوليمبية الشتوية. وبسبب هذا التنوع،

ولكل هذه الأسباب، وبالتخطيط السليم، أصبحت السياحة في يوجوسلافيا من أهم موارد الدخل القومي!!

دور يوسيب بروز تيتو!

وقبل أن نتجول في يوجوسلافيا يتعين أن نلقي ضوءاً على باعث نهضتها يوسيب بروز تيتو. فقد كانت الدولة ملكية إلى عام ١٩٤١ حين قام بطرس الثاني بانقلاب وأبرم معاهدة صداقة مع روسيا، ثم جاء الغزو النازي، وفر بطرس الثاني إلى لندن، وقامت دولة كروانية فاشية مستقلة، وبدأت المقاومة اليوجوسلافية بقيادة تيتو في حركة مناهضة للفاشية. ثم أقام تيتو عام ١٩٤٥ دولة اشتراكية ديمقراطية، وقاطع الاتحاد السوفييتي عام ١٩٤٨، ونفذ نظاماً اشتراكياً ذاتياً ابتداء من ١٩٥٠. وأتاح له هذا النظام الذاتي أن يتعامل مع الدول الغربية، وأن ينمي اقتصاديات البلاد، وأن يتزعم مع جمال عبد الناصر وأنديرا غاندي حركة عدم الانحياز!

دروس رياضية في نوفي ساد!

في ظل العلاقة الطيبة بين الرئيسين تيتو وعبد الناصر دعيت الفرق المصرية المشتركة في دورة البحر الأبيض بنابولي بإيطاليا عام ١٩٦٣ إلى زيارة يوجوسلافيا، وكان طبيعياً أن يكون التركيز في العاصمة بلجراد. عاصمة جميلة، فيها غابات كثيفة، وحدائق غناء، وشوارع واسعة نظيفة، وفنادق ممتازة، لكن كانت هناك معاناة من الفقر،

والطوابير الاشتراكية المعهودة للحصول على المواد الغذائية، ثم الخلود المبكر إلى النوم، لقلة وسائل الترويح، فيما عدا سيرك بلغاري، أقنعنا ذات ليلة، وأظهر لنا قيمة السيرك في الدول الاشتراكية كوسيلة ترويح ترضي كل مراحل العمر لاسيما الأطفال.

وفي نوفي ساد الجميلة، على مقربة من بلجراد، تعلمت دروساً رياضية، ناديت بها إلى هذا اليوم، لكي تنفذ في مصر والبلاد العربية، لكن لا حياة لمن تنادي! ففي نوفي ساد فاز اليوجوسلاف في ألعاب القوى ٧٧/ ٣٩، وهي نتيجة تدل على تفاوت كبير في المستوى، والحقيقة أن منظر عدائينا كان مؤسفاً، ولذلك اقترحت أن نراعي دائماً اللعب مع فرق في مستوانا أو أرفع منه قليلاً، حتى نستفيد، ولا تكون المسألة أشبه بالتعجيز! ورغم ترديد هذا الاقتراح على مدى ٢٠ سنة فإن أحداً لم يأخذ به، وما زلنا نشترك في بطولات العالم في رفع الأثقال والخماس الحديث وكرة الماء وغيرها لكي نتذيل الفرق!!

وفي بلجراد قال لي ماركوفتش نجم كرة الماء اليوجوسلافي إن رفع مستوى المدربين المصريين، لاسيما في كرة القدم، هو الخطوة الأولى للتقدم، ومن هنا يتعين إلحاق بعض المدربين المحليين الأكفاء بأقوى أندية الكرة الأوروبية مثل أنترناسيونالي في إيطاليا والبارتيزان في يوجوسلافيا وفوشوش في المجر، لمدة سنة، لتشرب أسرار المهنة وإعداد اللاعب والفريق، ومع ترديدنا لهذا الاقتراح فإنه لم ينفذ، ومازلنا نوفد مدربينا إلى دراسات صقل قصيرة في لينبرج أو كولن أو لوفبوروه لا تفيد بل تضنيهم بالغرور! وأقول ذلك لأن هذه ليست مجرد

أخطاء مصرية بل هي غربية، وآن الأوان لكي نتخلص منها جميعاً!

مليون مسلم بالبوسنة والهرسك!

وفي عام ١٩٧١ زرت يوجوسلافيا للمرة الثانية، وشاهدت مدى تقدمها في عصر تيتو، وأثر تخليها عن الشيوعية، والتزامها بنظام اشتراكي ذاتي. فالطوابير أقل، والسلع أكثر وأجود، والبسمة على الوجوه. وقد انتهزت الفرصة لزيارة جمهورية البوسنة والهرسك، ولم أكتف بسراييفو، بل توغلت في الريف اليوجوسلافي الساحر، وعايشت المسلمين وعددهم في هذه الجمهورية مليون نسمة، ووجودهم نتيجة للحكم العثماني الطويل.

وهم مسلمون حقيقيون ملتزمون، يؤدون الفرائض، ويترددون على المساجد، ويتعاملون في ظل سماحة الإسلام. السيدات يلبسن اليشمك، وهو حجاب شرعي، وهندامهن ينم عن الاحتشام. والرجال يشع من وجوههم نور الإيمان. وحياتهم كلها نظافة وعمل مما يحضنا عليه الدين. وحتى الفولكلور الشعبي في هذه المنطقة يتميز بالاعتدال والاحتشام، لاسيما في الرقصات الجماعية، حيث لا تقدم الخمور ولا تتسرب الخلاعة. وهذا لا يمنع أن حسين اسمه «هوسينتش» وأحمد اسمه «أمادوف» وهكذا!

أيام رائعة في لوبليانا الساحرة

وفي جولة في الشمال اليوجوسلافي ذي المشاهد الساحرة استقر بي

المقام عدة أيام في لوبليانا الجميلة، على مقربة من حدود النمسا، وجبال الألب السلوفينية، وهي ملتقى هواة الانزلاق على الجليد في الشتاء، كما أنها مصيف جبلي رائع في الصيف. الجبال الشماء مكسوة بغابات البلوط والسنديان الكثيفة التي تحتضن المدينة الجميلة، فيما تلتف حولها السهول التي حولتها الميكنة الزراعية إلى حدائق غناء.

بانوراما رائعة عرف اليوجوسلاف كيف يستغلونها سياحياً؛ فنشروا في سفوح الجبال وبين ثنايا الغابات مئات المخيمات والمعسكرات، ليتوافد عليها الشباب.

وفي صالة حديثة مغطاة أقيمت بطولة العالم لكرة السلة، وفازت بها يوجوسلافيا، وهي دولة رياضية لها مكانة عالمية مرموقة في كرة السلة وكرة اليد وكرة الماء، حيث تحتل دائماً أحد المراكز الثلاثة الأولى في البطولات العالمية والدورات الأوليمبية.

السياحة الشاطئية في سبليت ودوبروفنيك!

وخلال دورة البحر الأبيض في سبليت عام ١٩٧٩ أنفقنا أسبوعين ممتعين على شواطىء بحر الأدرياتيك. وإلى جانب المباريات والمسابقات الرياضية في عدة مدن على طول الساحل نظمت لنا رحلات سياحية إلى بعض الجزر والشواطىء، حيث أقيمت عشرات «المدن السياحية»، التي تضم الفنادق والشقق والموتيلات والمحلات التجارية وأماكن الترويح.

وقد استلفت نظري أن السياح يتوافدون على المنطقة من دول اسكندناوة لاسيما السويد، وألمانيا والدنمرك وهولاندة وبلجيكا وانجلترا، ثم أمريكا بصفة خاصة، وأن الغالبية من الشباب الذي يريد أن يعب من مباهج الحياة، بحيث أصبحت سياحة الآثار «موضة» قديمة لا يمارسها إلا الكهول من الجنسين، أو بعض الموظفين من هواة المعرفة، وهم قلة على كل حال إزاء ملايين الشباب من هواة الاستمتاع بالشمس والبحر والهواء النقي والهدوء على شواطىء البحر الأبيض ذات الرمال البيضاء!

وبالرغم من المنغصات وأهمها هزائم فريقنا القومي الكروي المدوية ـ بدون مبرر ـ فقد استمتعت البعثة المصرية بيوم سياحي فريد، بدعوة خاصة من إدارة الدورة، حيث أخذنا باخرة من سيليت إلى إحدى الجزر، التي استقبلتنا بالأزياء القومية، ونظم لنا غذاء قوامه شواء الخراف والماعز والأسماك، تتخلله عروض فولكلورية، وألعاب فروسية شعبية، وحفلات موسيقية. وعلمنا أن مثل هذه الرحلات ترتب للأفواج السياحية، وأنها من عوامل تزايد الدخل السياحي بالإضافة إلى «الحرية» التي تعد قوام السياحة.

ويتبقى أن هناك مكاناً واحداً رفضت زيارته حين دعيت إليه، وهو سكوبيا، فقد قلت للداعي: مافيش «داعي»! المثل العامي يقول: ابعد عن الشر وغني له!

فالعمر ليس «بعزقة»، ومعلوم أن سكوبيا منطقة زلازل مدمرة!

قطر . . بلاد المها

قطر . . بلاد المها والحبارى . وكرة القدم!
أول ملعب من النجيل في الخليج العربي . . !
الاتصالات الأولى للشباب المصري بشباب الخليج!
مدينة خليفة الرياضية وجه مشرف للرياضة العربية!
الاسماعيلي أول فريق مصري يلعب كرة قدم في قطر!
المها في مزرعة الزوبارة مزاج من الظبي والوعل!
شربت ٦ فناجين قهوة في جلسة لجهلي بالتقاليد!
التمّن والشواء . الأكلة الرئيسية في قطر!
فاجعة في رحلة لصيد السمك ونجاة بمعجزة!
احترق بنا اليخت العظيم وأصبحنا في كف القدر!
١٣ ساعة في قارب صغير تحيط بنا الأقراش!
موكب جنائزي في البحر والتجاء إلى القرآن!
بكاء هستيري صامت خوفاً من الالقاء في البحر!
ابني كان معي وعندما نجونا بكيت وقلت له مبروك!

كانت الصلة بين الشباب المصري والخليجي شبه مقطوعة لغاية الستينيات ولعلها اقتصرت على زيارة فريق الكرة بوزارة الصحة المصرية للسعودية، وأخرى لقطر بسبب الصلات الشخصية. وفي عام ١٩٦٣ زار الزمالك الكويت ولعب عدة مباريات، ثم انقطعت الصلات مرة أخرى!

وبعد نكسة حزيران ١٩٦٧ فكر النادي الاسماعيلي والأهـرام في تنظيم جولة للفـريق في البـلاد العـربية، يخصص دخلهـا للمجهـود الحربي. وكلفت بتنظيم هذه الجولة، التي بدأت عام ١٩٦٨، ومـن خلالها عرفت قطر لأول مرة.

وفي الدوحة عرفت أن الرياضـة ـ فـي ذلك الوقـت ـ تتبـع وزارة التربية والتعليم، فتوجهت إليها، وفوجئت بأن المدير العام للوزارة هو الصديق المصري كمال ناجي، الذي قدمني إلى الوزير المرحوم الشيخ قاسم آل ثاني، الذي رحب بي، وأحسن لقائي، ودعانـي إلـى زيارة مزرعته في الزوبارة، على بعد مائة كيلومتر، لكي أتفرج علـى سرب المها الذي يملكه، والذي لا مثيل له في العالم، بل إنه حيوان يوشك أن ينقرض، لولا رعاية الأمير له، وهي رعاية أدت إلى إنشـاء جمعية عالمية برئاسته للحيلولة دون انقراضه.

ولعلنا نتذكر مقولة أحمد شوقي أمير الشعراء في مسرحيته الشعرية «مجنون ليلى»، التي صوّر فيها عشق قيس بن الملوح لليلى العامرية وهي: غرت ليلى من المها، والمها منك لم تغرا

لقد فسروا لنا المها على أنه نوع من الظباء، ولكنـي وجدتـه في الزوبارة مزاج من الظبي والأيل أو الوعل. فهـو كالظبـي في رشاقتـه وجمال عينيه، وهو كالوعل في قوامه أو حجمه. وعددت زهاء ٤٠ من المها، وهذا العدد هو كل التراث الباقي من ذلك الحيوان الجميل.

هز اليد بفنجان القهوة

وأنفقنا وقتاً جميلاً في المزرعة، وبعد الغداء الذي تكوّن من التُّمن والشواء - الأرز والضأن - استرحنا قليلاً، وعدنا إلى الدوحة، متفقين على إقامة مباراتين للاسماعيلي في الدوحة يخصص دخلهما للمجهود الحربي. وفي طريق العودة قال لي الصديق كمال ناجي: ٦ فناجين يا راجل؟ حرام عليك!!

كان يشير إلى فصل باردٍ وقعت فيه بمكتب الوزير، الذي قال للساعي: جهوينا يا ولد! فدخل الساعي ومعه إبريق من القهوة العربية، صبَّ لي منها فنجاناً، ارتشفته بمزاج، لأني أحب القهوة التركية والفرنسية، وأحببت العربية، ومددت يدي لأعطيه الفنجان، فملأه مرة أخرى، وتكررت العملية ٦ مرات! واندهشت لهذا الإيثار بالكرم، لأن الكل شربوا فنجاناً واحداً، ولكن أحدهم أشار لي بهز يده عند تقديم الفنجان للساقي، حتى يتوقف! وقد نفعتني هذه المعلومة فيما بعد، حين أكملت مشوار الخليج كله للاتفاق على مباريات الاسماعيلي عام ١٩٦٨، ثم في زياراتي المتوالية للمنطقة مع الاسماعيلي مرة أخرى والترسانة والأهلي والزمالك، في المدة من ١٩٦٩ إلى ١٩٧٥، وكان هذا التردد سبباً في حبي للمنطقة، لا سيما قطر، لدرجة أني أرسلت ثلاثة من أبنائي عقب تخرجهم للعمل هناك، فكانت هذه فرصة أخرى لتردد شخصي أتاح لي متابعة التطور والتقدم والازدهار الذي حققته المنطقة في سنوات قلائل بخطوات عملاقة!

كيف نجونا من الغرق بمعجزة؟!

وفي مارس عام ١٩٧٧ دعتني وكالة الأنباء القطرية لزيارة الدوحة، وإصدار نشرة صحفية عن دورة الخليج الكروية التي تنظمها قطر. وكانت النشرة تطبع في مطبعة يملكها الصديق سلطان السويدي، رئيس إتحاد كرة القدم الآن. وقد علم من ابني حسن المحرر بمجلة «الصقر» الرياضية، التي تصدرها القوات المسلحة القطرية، وهي أعظم مجلة رياضية بالعالم العربي كله، أني من هواة صيد السمك. فاتصل بي، ودعاني إلى رحلة صيد في يخته الجديد واسمه «البدع»، نسبة إلى أحد أحياء الدوحة، وذلك بعد انتهاء الدورة مباشرة.

وفي اليوم المحدد توجهت إلى الميناء! اليخت تحفة، ما شاء الله وثمنه مليون دولار، ولم يبحر من قبل! المدعوون ١٩ شخصاً من هواة الصيد، بينهم عجوز قريب لسلطان، وحسن عثمان المحرر العام لمجلة الصقر، وشقيق نجم الكرة المحبوب منصور مفتاح، ومطرب شعبي، وبعض الفنانين والموظفين، ولأن ابني من هواة الصيد تحت الماء فقد لاحظ عدم وجود زورق صغير يتيح له الاقتراب من الصخور، فاشترينا قارباً من المطاط - زودياك - ووضعناه فوق اليخت. ولاحظت عدم وجود قوارب احتياطية ولا أطواق إنقاذ، ولكن روعة اليخت وحداثته وهدوء البحر نسبياً في الخليج جعلتني أصرف من رأسي كل الأفكار الشريرة!

وبدأنا الرحلة لكي نصل إلى إحدى الجزر، على مسيرة أربع ساعات. سائق اليخت ومهندسه والمتصرف فيه ميكانيكي أمي إيراني،

هو مثال للغباء الصارخ، والجهل الناطق! ويبدو أنه من باب المباهاة، فتح الماكينة على الآخر، فانطلق اليخت الجميل يمخر عباب اليم كالسهم الرشيق الطائر.

وكان ستة من المدعوين قد تخلفوا وأصبحنا ثلاثة عشر رجلاً. وكان معنا على اليخت بعض الخراف وكل ما لذ وطاب من طعام وشراب. وبعد تناول طعام العشاء رسونا قرب الجزيرة، على مقربة من بعض الشعب المرجانية، وبدأنا نصطاد، وكان معظم الصيد الوفير من نوع «الهامور» الكبير، الذي يسمى في مصر «الوقار». وفي الساعة الحادية عشرة صباحاً تعبت من كثرة شد السمك فقلت: كفاية ياجماعة. سأدخل لأستريح ساعة، وعليكم بالشواء حالاً، فقد استبد بنا الجوع!

ولم أكد أتمدد على السرير حتى جاءني ابني حسن يوقظني، فنهرته! لكنه جذبني من يدي وقال: لا بد أن تنهض لأن اليخت في خطر!

ونهضت وصعدت إلى السطح، لأجد دخاناً كثيفاً، ورائحة أسلاك تحترق، ظنوها في البداية صادرة من «الشوايات»! وأدركت أنه لا بد قد حدث ماس، وأن اليخت موشك على الاحتراق! ووقفت كالخطيب قائلاً: من الآن سأتولى القيادة، وإما أن ننجو جميعاً بمشيئة الله، وإما أن نغرق! تجلدوا، فالرب واحد والعمر واحد، وقل لن يصيبنا إلا ما كتب الله لنا!

ونظرت إلى الشباب وقلت: بعضكم يحاول الإطفاء لأن أجهزة الإغاثة تعطلت، وبعضكم ينزل القارب الزودياك ويجهزه، وهيا نبتعد بسرعة حتى لا تبتلعنا دوامة غرق اليخت!!

١٣ ساعة في كف القدر!

وكانت مشكلتنا الأولى أن القارب الزودياك حمولته ثلاثة أفراد، وقدرة محركه محدودة بهذه الحمولة. فما العمل ونحن ١٣ فرداً؟ وكان التفكير سريعاً. وفي لحظة فكرت في التضحية بالعواجيز وأولهم أنا وقريب سلطان، لكني وجدته أول شخص يدلف إلى قارب النجاة! قلت: الثلاثة أصحاب الوزن الثقيل - وأنا منهم - يفترشون أرض القارب، وفوقهم صف من أربعة، ثم صف آخر من أربعة، ويمسك سلطان الدفة، ويدير الإيراني المحرك!

الحمولة الثقيلة جعلت حرف القارب موازياً تماماً لسطح البحر! لو هبت نسمة رقيقة، لو ارتفعت موجة بسيطة، لغرقنا في الحال! لكن سبحان الله على مدى ١٣ ساعة ظل البحر ساكناً، وهذا شيء نادر في الخليج! صفحة البحر كالحصيرة، كبحيرة من الزيت. لكن واجهتنا مشاكل أخرى. الموتور سيتحمل فوق طاقته، ولهذا فإنه يسخن ويتوقف، فنستعمل المجدافين، وهما غير مجديين في هذا الخضم من الماء. ولهذا كنا نتوقف، إلى أن يبرد الموتور، ويدور مرة أخرى. ثم الحالة النفسية والآلام العضوية الشديدة لا سيما للثلاثي الذي يفترش أرض القارب! البعض يتململ أو يبكي، ولذا أعلنت قراراً حاسماً: أي

انفلات أعصاب، أية حركة امتعاض أو توجع ستؤدي إلى رمي صاحبها في البحر، فغرق شخص خير من غرق ١٣ شخصاً!

وكان أملنا ـ ونحن نسير على غير هدى ـ أن نلتقي بباخرة عابرة، أو مركب صيد، لكننا نسينا أن البترول أنسى أهل الخليج الصيد! وعلى بعد كان اليخت البدع قد اشتعل وأضاء الأفق، ثم اختفى في أعماق البحر!

وأصبح الزودياك وركابه في كف القدر، ولم نجد موئلاً سوى القرآن، فلذنا بآياته. وأسلمنا أنفسنا لله، فهو المنجي، وسرنا نقول، في نفس واحد على مدى ١٣ ساعة: لا إله إلا الله! وكان الحادي هو الميكانيكي الإيراني، ونحن نردد وراءه، في هذا الموكب الجنائزي!

الأقراش والدرافيل وبصيص النور!

وبعد زهاء ١٠ ساعات شاهدنا بصيصاً من النور، فاتجهنا إليه، يحيطبنا موكب من الدرافيل، يحمينا من هجمات الأقراش المنتشرة في الخليج. حالة الصف الأرضي أصبحت يرثى لها. البلل، والرائحة الكريهة، والأثقال التي يحملونها، وعدم قدرتهم على تحريك أطرافهم، دفع بعضهم إلى البكاء الهستيري الصامت، خوفاً من الإلقا في البحر!

ووصلنا إلى حفار بترول. أصبح بيننا وبينه زهاء ١٥٠ متـ اجتزناها في ٣ ساعات، بسبب الجزر، وتوقف الموتور. ولأول مر نطقت وكلمت ابني حسن في الدور العلوي وأنا في الطابق السفلي! قلت له وأنا أحبس الدمع في عيني: مبروك نجاتك يا بني!

ولم يرد، لأنه كان يبكي! وقال لي بعدها انه ظل يبكي بحرقة منذ أن اقترحت التخلص من العواجيز!!

والتفت إلى الإيراني وطلبت منه أن يبسمل، ويدير الموتور بعد هذه الراحة الطويلة، لعله يتحرك! وتحرك ووصلنا إلى أسفل الحفار.

وقفنا نصرخ ونهلل ونبكي ونصيح، ولا حياة لمن تنادي، فالساعة الثالثة صباحاً! وبعد أن كاد يتملكنا اليأس أطل شخص من الدور العاشر، وأشار لنا، وحمدنا الله، لدرجة أن بعضنا أخلد إلى النوم! رباه، ما أروع الأمل، وما أشنع اليأس، وما أعظم رحمتك!

وإن هي إلا دقائق حتى نزل إلى الدور الأرضي في الحفار رجال الدفاع المدني بلباسهم التقليدي، ومعهم مصعد من الحبال، نقلونا فيه إلى مستشفى الحفار، للعلاج والاغتسال. وأحضروا لنا الشاي والمعلبات والحلوى والسجاير، وجاءني مدير الحفار وهو أمريكي يطمئنني إلى أنه اتصل بمركز الشرطة لترسل طائرة هليكوبتر لنقلنا إلى المستشفى المركزي!

وجاءت الطائرة ونقلتنا إلى المستشفى، لكن تبين لنا أننا في أبو ظبي! لا شيء معنا ولا إثبات شخصية، إلا أن السفير القطري لم يلبث أن جاء ونقلنا إلى السفارة، واشترى لنا ملابس، وأعد لنا غذاء عربياً شهياً. وبعد أن زارنا بعض وزراء أبو ظبي استدعيت من الدوحة طائرة خاصة نقلتنا إلى قطر، ونشرت بعض الصحف في مصر أني غرقت في الخليج، فتسببت في إزعاج شديد، لكن هذه حكاية أخرى!

فرنسا

فرنسا مركز الاشعاع الفكري في أوروبا!
باريس مدينة النور والمتاحف والملاهي والقصور!
المرأة الفرنسية مزاج من الرقة والأنوثة والعطور!
بين نيس وكان ومغاني الريفييرا والكوت دازورا
عندما تتبختر الأناقة في حلبة السباق بلون ثان!
أقصر دقيقة في العالم هي الدقيقة في المولان روج!
الفرق الكبير بين «مخزن» الآثار بالقاهرة ومتحف اللوفر!
لحظات مع الثورة الفرنسية في بيت روبسبيير!
جولات في غابات بولونيا والتويليري واللوكسمبورج.
فنجان شاي في برج إيفل للاستمتاع ببانوراما باريس.
جمال الريف الفرنسي وتنمية مدنه لمنع النزوح للعاصمة.
مع روسو وفولتير ورينوار ورودان وعباقرة الأدب والفن.
أشهر مطاعم وملاهي ومتاحف العالم في باريس.

في صالون الدكتور طه حسين عميد الأدب العربي أحببت فرنسا اريس. وترعرع هذا الحب بكتابات رفاعة الطهطاوي وتوفيق الحكيم صحفي أحمد الصاوي محمد وغيرهم من الأدباء، فألقيت بنفسي في ة الأدب الفرنسي حتى غرقت فيه، ومع ذلك ازداد الحب اشتعالاً!

وزاد انبهاري بفرنسا وباريس عندما زرتها لأول مرة عام ١٩٥٥،

ممثلاً لمصر في المؤتمر الأوليمبي الدولي. وكان الفكر مسيطراً على ذاتي فأفنيت كل وقتي في زيارة المعالم الفكرية، في مركز الإشعاع الفكري في أوروبا، مستمتعاً متعة شاب مراهق يلقي بشبابه في أحضان ملاهي باريس!

لم يكن في ذهني سوى جان جاك روسو والعقد الاجتماعي وإميل وهلويز الجديدة وغيرها من روائعه، وفولتير وقاموسه الفلسفي، ومونتسكيو وروح القوانين، وهوجو والبؤساء وأحدب نوتردام، وبلزاك وزنبقة الوادي، وموليير وراسين ومسرحياتهما الخالدة، ولافونتين وحكاياته، ولابروبير وديدرو وبايل وديكارت، وكل أولئك الخالدين الذين شرفوا الفكر الانساني، ثم كبار الفنانين، رينوار وبرليوز ورودان وغيرهم، والعلماء باستور ومدام كوري ولافوازييه، وعباقرة الحكم والسياسة والحرب. وكنت أقول لنفسي: ليس لك الآن عذر، ها أنتذا بينهم فلتصافحهم جميعاً بعينك وقلبك!

في مركز قناة السويس!

كنت أنزل في فندق كبير بشارع سانت أونوريه، الموازي لشارع الشانزليزيه الهائل. وما أن غادرت الفندق حتى وجدت نفسي أمام المركز الرئيسي لشركة قناة السويس، في نفس الشارع. ولم أتردد في الدخول، فقد تذكرت القناة وديلسبس، وربط الشرق بأوروبا، وفكرت: هل كان الخديوي سعيد باشا مخطئاً كما يقولون أم أنه خدم البشرية والمجتمع العالمي؟ ورحب بي رجال الاستقبال، ولفوا معي

مكاتب أقوى شركات العالم، وشرحوا لي كل شيء. وشعرت بارتياح شديد، لأني استوعبت تماماً قيمة «قناة مصر» بالنسبة للإقتصاد العالمي.

كان مقصدي حين نزلت من الفندق أن أسير على الأقدام لكي أزور متحف اللوفر العظيم. لكن ما أن غادرت مركز قناة السويس حتى وجدت قبالتي متحفاً لا يمكن أن تفوتني زيارته، في نفس شارع سانت أونوريه، هو بيت روبسبيير، زعيم الثورة الفرنسية!

في بيت روبسبيير!

وغرقت لحظات في لجة التفكير. الإقطاع، بؤس الفلاحين. اعتمال الثورة في الجمعية الوطنية. خطبة لافاييت قمة الانتهازية. بلاهة لويس السادس عشر. سذاجة الجميلة ماري أنطوانيت حين قيل لها إن الشعب لا يجد الخبز فقالت: ولماذا لا يأكلون الجاتوه؟

المقصلة! الدماء! الباستيل! لكن أخيراً، الحرية والإخاء والمساواة!

كل شيء في بيت زعيم الثورة الدموي كما هو. أثاثه فراشه، مكتبته، ملابسه، ثم مئات الكتب التي ألفت عنه، كتب تدينه، وكتب تجعله في مرتبة القديسين، كتب تدل على أن التاريخ يكتب على هوى الكتاب، وأن الله وحده يعلم أين الحقيقة. لكن الذي لا شك فيه أن الحرية، الإخاء، المساواة، أصبحت بفضل روبسبيير حقيقة!

وراح صباح اليوم الأول في الزيارتين. وراح المساء في اجتماعات اللجنة الأوليمبية الدولية. وفي الصباح التالي قررت زيارة متحف اللوفر.

في متحف اللوفر

كان طريقي من الفندق يقتضي أن أعرج شمالاً لأخترق شارع الشانزليزيه وميدان الكونكورد إلى متحف اللوفر. عندما وصلت إلى الشانزليزيه وقفت مبهوراً. في أقصى اليمين بوابة النصر الهائلة، يطل عليها من قريب برج إيفل الشهير، وفي أقصى اليسار ميدان الكونكورد تتوسطة مسلة فرعونية رائعة، وعلى الجانبين أجمل وأهدأ مقاهي باريس، وأرقى المحلات، والسيارت تنهب الشارع نهباً ضماناً لانسياب المرور. مشهد عجيب، استوعبته، واستبعدت من ذهني المقارنات، ومضيت في سبيلي، ودخلت المتحف العالمي العظيم.

إن المتحف المصري «مخزن» هائل تتكدس فيه آثار الفراعنة قبل الميلاد. أما العصور الأخرى فلها متاحف خاصة، ومن هنا فإن السلسلة الحضارية مقطوعة، أما تاريخ فرنسا كله فهو مجمع في اللوفر، تستروحه من خلال ترتيب وتنسيق يغريان على الوقوف أمام كل تحفة لاستجماع الذكريات. القسم الفرعوني فيه ينضح بالجلال وينطق بالعظمة، ولا غرو في ذلك لأن شامبليون ومرييت وماسبيرو وغيرهم من المصرولوجيين نقلوا ما يشاءون من تحف، قبل إحكام الرقابة على التنقيب عن الآثار. العرض كله ينم عن ذوق رائع.

فأنت تجد مثلاً غرفة ٢٠×٢٠ متراً يتوسطهـا تاج نابليون، أو مخـدع ماري أنطوانيت، أو أي من آثار آل بوربون، أو الملك الشمس لويس الرابع عشر. وهكذا، من لوحات رينوار وجوجان، إلى أعمال المثال العظيم رودان، إلى آثار الغانيات مثل مدام دي بومبادور وغيرها ممن سيطرن على أقدار فرنسا من خلال البـلاط والصالونات. ساعة تمضي وراء ساعة دون أن يشعر المرء بالتعب، لكنه يشعر بالأسف حين يتعين أن ينصرف، دون أن يستكمل تفقد هذه الكنـوز التـاريخية ومعايشـة أبطالها لحظة بلحظة متمشياً مع سجل الزمن.

معالم باريس الأخرى

خرجنا، زميلي المهندس أحمد الدمرداش توتـي ممثـل اللجنـة الأوليمبية الدولية في مصر وأنا، من متحف اللوفر إلى السفارة المصرية في زيارة مجاملة، يسرت علينـا زيارة معالـم باريس الأخـرى ـ ومـا أروعها ـ في جولة واحدة. ففي الصباح التالي، مر علينا سكرتير السفارة بسيارته واصطحبنا إلى برج إيفل حيث تناولنا الشاي في أحد طوابقـه العليا، وتحتنا بانوراما هائلة لمدينة النور. وتجوّل بنا في غابة بولونيا الواسعة، التحفة الخضراء التي تجدد هواء المدينة التي تعج بالبشر، وقصر اللوكسمبورج ثم قصر التويليري بحدائقها الغناء التي تفصح عما شهد من أمجاد، وكنيسة نوتردام دي باري التي جعلها فيكتور هوجـو مسرحاً لروايته الرائعة «أحدب نوتردام»، وسجن الباستيل الذي شهـد من المآسي ما لم يشهده سجن آخر في أرجاء الدنيا، ونادي الريسنج

ومضمار السباق في لون شان، وهما ضمن رئات أخرى تتنفس منها باريس، بكل ما فيهما من خضرة وسعة وخلاء، ثم كانت زيارتنا للحي اللاتيني والسوربون خاتمة المطاف.

جو غريب في الحي اللاتيني، تتنسم فيه رائحة العلم والحرية والإخاء الإنساني، بين كل دكان ودكان في الحواري مكتبة، وبين كل خطوة وخطوة زنجي خنشور، شعره مجعد «وشفاتيره» مدلاة، يتأبط ذراع كاعب حسناء، وهي التي تختال به! وأدرك جيداً الآن سر النفوذ الفرنسي في أفريقيا السوداء!

أنوثة المرأة الفرنسية

وقد زرت فرنسا بعد ذلك عدة مرات، كانت إحداها في الريفييرا فقط، بمناسبة مباراة كروية بين مصر وفرنسا في نيس في الستينيات، وكانت آخرها عام ١٩٨٣ بمناسبة بطولة دولية للمصارعة في ريمز، حيث استمتعت بالريف الفرنسي لأول مرة، لكن لا بد دائماً من المرور بباريس.

وفي باريس لا بد أن تشعر بميزة تنفرد بها المرأة الفرنسية وهي الأنوثة الطاغية. قد يكون بين نساء أوروبا من يضاهين المرأة الفرنسية جمالاً وقواماً ورشاقة، لكنهن لا يطاولنها أنوثة. إن الأرض تكاد تميد تحت أقدام غانيات باريس وهن يخطرن في الشانزليزيه أو المونمارتر أو المونبارناس أو في حلبة السباق في لون شان، معرض الأزياء والأناقة والعطور!

وقد أدركت بيوت الأزياء ومستحضرات التجميل والعطور هذه الخاصة في المرأة الفرنسية فتركزت في باريس، واستحدثت من الموضة ما لهث وراءه العالم كله، وما لا منافس له، لأن رقة المرأة الفرنسية وأنوثتها الطاغية وتجددها المستمر، خير دعاية تؤدي إلى رواج كل روافد صناعة الأنوثة: من مساحيق وأزياء وروائح يتضوع عبيرها في العالم كله، من جليد القطب إلى رمال الصحاري إلى قلب الأدغال!

دور اللهو والترويح

وباريس هي في نفس الوقت مدينة الأضواء في الليل، كما هي مدينة النور ـ نور العلم ـ في الصباح. وما أكثر المطاعم الفاخرة في أوروبا لكن أياً منها لا يضارع مطعم «مكسيم» أشهر مطاعم العالم، بما يقدمه من أطباق شهية وجو أسطوري. وما أكثر الملاهي في العالم، لكن أياً منها لا يطاول الليدو، والمولان روج ورقصة الكان كان تؤديها فتيات يتأودن كغصون البان، وكأنهن قددن من مخرطة واحدة بنفس المقاس! استعراضات تنطق بالجبروت الفني، وتكنيك مسرحي لا يبارى، وميزانسين يفوق الوصف، ومتعة لا تمحى من الذاكرة، مقرونة بإيحاء محفور في الأعماق بأن الدقيقة في الليدو أو المولان روج هي أقصر دقيقة في العالم!

الجمهور نفسه يضاعف من المتعة. فالمرح يسود وأريج العطر يتضوع، والناس كالسكارى وما هم بسكارى، كل فرد يساعد

المجموع على انتهاز الفرصة لنسيان متاعب العمل وهموم الحياة. إن أحداً لا يتردد على هذه الملاهي كل يوم، فالعمل طوال الأسبوع يجري على قدم وساق، وبكل همة، وتأتي عطلة الأسبوع فقط للترويح، في رحلة خلوية أو سهرة حلوة، لتجديد النشاط، واستئناف المهمة الأساسية للإنسان، وهي العمل والإنتاج، وإلا كان عالة على المجتمع. ولو أننا كعرب إنتهجنا هذا الأسلوب في الحياة لكان لنا شأن آخر!

في الريف الفرنسي والريفييرا

عشقت الريف الفرنسي من قراءاتي لجان جاك روسو وأونوريه دي بلزاك، لكن الفرصة لم تتح لي للاستمتاع به إلا عام ١٩٨٣، لأن السفر بالطائرة حتى في الانتقالات الداخلية يحرم الزائر من هذه المتعة، إلا أن زيارتي لريمز أتاحت لي أن أرى الريف الفرنسي من قرب، خلال مسيرة القطار السريع النظيف من باريس إلى عاصمة إقليم الشمبانيا «موي إي شاندون». الريف بمعناه الحقيقي. إمتداد أخضر كأنه بساط تبريزي بلا نهاية. الحقول، الشجر المغسول، البساتين، الكروم الزاهية والعناقيد الدانية متعة للنظر. البيوت الصغيرة والأكواخ الأنيقة دليل على أن «المدنية» لا تنمو على حساب الريف، وأن الفلاح يجد من العناية والرعاية ما يلقاه الموظف والعامل، وأن المجتمع ليس به تفاوت!

وريمز نفسها، كمدينة ريفية، يوجد مثلها عشرات، بها مطار وفنادق ممتازة وشوارع جميلة، ومحلات تجارية هائلة، والملاهي بلا

حصر، وكل ما يحتاجه المواطن موجود، إستقلال كامل واكتفاء ذاتي، ولا مدعاة إذن للنزول إلى باريس لقضاء حاجة أو زيارة طبيب، أو شراء فستان، ولا تفكير بالتكالب على العاصمة!

وقد عرفت معنى السياحة الشاطئية في الستينيات! نيس وكان وموناكو، مصايف رائعة، تؤمها جموع من مختلف أنحاء الدنيا في الصيف. سياحة هائلة، وإقبال بلا حدود، لا لشيء إلا «للحرية»! شواطئنا العربية ورمالنا الناعمة، وضيافتنا الرائعة أجمل وأوقع، ولكننا لا نعرف كيف نبيع شمسنا وهواءنا ورمالنا للناس، لكن هذه حكاية أخرى!

تلك بعض الإنطباعات من خلال زياراتي لفرنسا، البلاد التي رفعت شعار الحرية والإخاء والمساواة، وأراقت في سبيل تحقيقه أنهار الدماء، وما أحلى تطبيق الشعارات، وجني الثمرات مهما كان الثمن، ومهما طال الزمن!

تنزانيا

تنزانيا بلاد العرب الذين استوطنوا وتأفرقوا!
حدائق الحيوانات المفتوحة تفوق حدائق أوغندة وكينيا!
الثلج على قمم جبال كليمنجارو الشاهقة على خط الاستواء!
الدين الرسمي للدولة هو الاسلام بسبب عرب زنزبار!
السحر في كرة القدم ينتهي إلى مجرد حجاب في المرمى!!
أهل زنزبار من العرب.. لكنهم لا يعرفون اللغة العربية!
تفاوت في العادات والسلوك بين زنزبار وتنجانيقا!!
لماذا يتضاءل الانتاج في الأوجاما أو المزارع الجماعية؟
المسلمون متمسكون بدينهم ومبادئهم رغم الحكم الشيوعي!
نيريري رئيس الدولة تتجدد رئاسته خمس مرات!
خط سكة حديد تنشئه الصين إلى زامبيا لنقل النحاس!

استروحت أفريقيا كلها أنسام الاستقلال التي هبت من مصر في الستينيات، وكان من بين دولها تنجانيقا التي استقلت عام ١٩٦٢، وجزيرة زنزبار التي استقلت عام ١٩٦٤، ثم اتحدت مع تنجانيقا في أكتوبر من نفس السنة، لتولد دولة جديدة اسمها تنزانيا، يرأسها جوليوس نيريري، وينص دستورها على أن تكون الرئاسة بالتناوب بين رئيس تنجانيقا وزنزبار، وهو نص لم يوضع موضع التنفيذ لأن نيريري ـ التنجانيقي ـ تجددت رئاسته خمس مرات، فيما ظل رئيس

زنزبار، العربي المسلم، نائباً للرئيس طوال هذه الفترات!

وتقع تنزانيا في شرق أفريقيا، ويحدها شمالاً أوغندا وكينيا، وغرباً زامبيا وزائير، وجنوباً ملاوي وموزمبيق، وهـذه هي حدود تنجانيقا على وجه الدقة، ففي الشرق جزيرة زنزبار، على بعد ٤٠ كليومتراً. وتحيطبها ثلاث بحيرات كبرى هي فكتوريا، وتنجانيقا وملاوي، التي كانت نياسالاند فيما مضى! وتعداد تنزانيا زهاء ١٨ مليون نسمة، ومساحتها زهاء مليون كيلومتر مربع، وتضم ٢١ إقليماً إدارياً.

السحـر في كرة القدم

وقد عرفت تنزانيا لأول مرة في السبعينيات بمناسبة وقوع بطل أنديتها مع الإسماعيلي ثم المحلة في بطولة أندية أفريقا أبطال الدوري، ثم في التصفيات الأفريقية للدول، على مستوى الفرق القومية.

وذات يوم في المحلة كادت تحدث أزمة خلال مباراة المحلة مع سيمبا بطل دوري تنزانيا. فالمحلة تهاجم بشدة، لكن الأهداف تضيع بالجملة، وكأن الكرة تأبى دخول المرمى! ولاحظ أحد المتفرجين أن حارس مرمى سيمبا يدس شيئاً في زاوية مرماه، فنزل من المدرج، وغافل الشرطة، وانتزع التعويذة، وجرى وراءه الحارس وضربه، وتدخلت الشرطة وفضت الاشتباك، وتبين أن التعويذة مجرد حجاب، ورقة مطوية مكتوب بها آية قرآنية! وسوي الموضوع بسرعة، لكن الشيء الغريب أن مرمى فريق سيمبا انفتح على مصراعيه!

تنزانيا دولة إسلامية

وبعد هذه الواقعة قال لي رئيس بعثة نادي سيمبا أن تنزانيا دولة إسلامية، وأن دين الدولة الرسمي هو الإسلام، وأن ٩٧٪ من سكان زنزبار من المسلمين وكذلك ٦٠٪ من سكان تنجانيقا، وهم في الجملة زهاء ١٤ مليون نسمة، مقابل ٣ ملايين مسيحي، وزهاء مليون هندوسي. ودعاني الرجل إلى زيارة تنزانيا، وتعهد أن يرتب لي ثلاث رحلات - سفاري - للتعرف على البلاد، إحداها إلى أروع حدائق الحيوانات المفتوحة في العالم بأسره، والثانية إلى جبال كليمنجارو، والثالثة إلى زنزبار، على بعد ٤٠ كليومتراً من الساحل.

في حدائق الحيوان المفتوحة

ولقد زرت من قبل حديقة الحيوان المفتوحة في كمبالا بأوغندة، عند منابع النيل في بحيرة فكتوريا ومدينتي ماسندي وبارا، وحديقة الحيوان في نيروبي، وأشهد أن حديقة الحيوان التي زرتها في تنزانيا أروع منهما عشرات المرات، مع أن هناك ثلاث حدائق وليست حديقة واحدة. والفارق أن السائح يسير عدة كيلومترات في أوغندة أو كينيا قبل أن يلتقي بقطيع من الأفيال أو حمار الوحش، أو آحاد من الأسود أو الخرتيت أو غيرها لأن الحديقة على مشارف الغابة الاستوائية الكثيفة المخيفة، أما في تنزانيا فهي منطقة سافانا مكشوفة، أعشاب طويلة، ولذلك تطالع السائح في كل لحظة قطعان القرود والغزلان وحمير الوحش والجاموس البري والزراف، وأسراب النسور، والبجع فضلاً عن أعداد

أكثر من الأفيال والأسود والخراتيت، ومن اختلاط الأصوات الرهيبة تتخلق سيمفونية الغابة، التي تحلِّق بالإنسان إلى آفاق الإيمان بقدرة الله، وإلى الحنين إلى حياة الطبيعة، التي دار حولها فكر الفيلسوف العظيم جان جاك روسو.

الرحلة تستغرق يوماً بطوله. وقال لي مرافقي إن الحدائق الثلاث هي المصدر الأساسي للدخل السياحي، وفي كل سنة يزور تنزانيا زهاء ١٧٠ ألف سائح من أمريكا وأوروبا للتجول في أحضان الطبيعة ومشاهدة الحيوانات الطليقة.

في جبال كليمنجارو

وكانت الرحلة الثانية إلى جبال كليمنجارو التي تمنيت دائماً أن أراها، بعد أن شاهدت في السينما قصة هيمنجواي العظيم: ثلوج كليمنجارو!

الجبال الشاهقة أقرب إلى نيروبي منها إلى دار السلام، فهي على خط عرض ٣، تحت خط الإستواء مباشرة. جزء كبير من الطريق وعر غير مجهد، لكن السيارة «اللاندروفر» تطوي الأرض طياً ولا تلوي على شيء، ولا تأبه بما يعاني ركابها من خضخضة! ومن بُعد ألمح هامة الجبال الشماء مكللة بالثلوج فعلاً! هي إذن ليست حيلاً سينمائية كما ظننت، لأني كنت أتصور أن حر المناطق الاستوائية يصهر الحديد ويذيب الثلج! لكن إرتفاع الجبال يبلغ ٦ آلاف متر فوق سطح البحر!

القردة والنسانيس تملأ الطريق الذي يشق الغابة ويتلوى كالأفعى

الخرافية، والطيور الجارحة تحلق من فوقنا، ومع اقترابنا من الأدغال الكثيفة يشتد الاحساس بالمجهول مقروناً بالرهبة. ونصل إلى الجبال الشاهقة، ونصعد فيها، لنجد استراحات ومشارب شاي أنيقة، حيث نغتسل ونتخلص من وعثاء الطريق، ونحتسي ما نشاء من مشروبات بعد طول حرمان وظمأ شديد، ونتأمل صنع الخالق عز وجل. الغابة المهولة تحت أقدامنا ننظر إليها من علٍ، والثلج يكلل هامة الجبل، والطبيعة تتجلى في ثوب مشيب. رحلة من رحلات العمر يهون معها كل عناء.

في زنزبار.. جزيرة العرب

وفي جزيرة زنزبار، على بعد ٤٠ كيلومتراً من دار السلام، فوجئت بالم يخطر على بالي. فالجزيرة عربية، نزح إليها اليمنيون والحضارمة في القرن العاشر الميلادي، ليس لتجارة العبيد كما يشيع المستعمرون، وإنما لتجارة الذهب والدروع - من ظهور السلاحف - والعاج من أنياب الأفيال، وانضم لهم بعض الفرس لا سيما من شيراز، واستقروا بالجزيرة، وامتزجوا بقبائل البانتو الافريقية، وعرف الجنس الخليط باسم الشعب السواحيلي، وهو لفظ مشتق من لفظ «الساحل» العربي. وظلت الجزيرة محمية بريطانية منذ عام ١٨٩٠، بعد استعمار برتغالي ثم ألماني - وأصبحت سلطنة عام ١٩٦٣ إلى أن أسقط الحكم السلطاني، وأعلن الاتحاد بين تنجانيقا وزنزبار في دولة تنزانيا في عام ١٩٦٤.

ووجه المفاجأة أن معظم أهل زنزبار، وهم عرب ومسلمون ـ لا يتحدثون العربية وإنما السواحيلي، وهي رطانة بها كثير من الكلمات العربية. لكن السائح يرى فيها وجه اليمن وحضرموت، في طراز المباني والمساجد، وفي الملابس أيضاً.

تفاوت في العادات والتقاليد

والمسلمون في زنزبار محافظون على تقاليد الإسلام، ويتمسكون بالصلاة والصيام والزكاة والحج، وبالإحتشام. لكن هذا التمسك يتضاءل في تنجانيقا، نتيجة لمخالطة البانتو والمسيحيين والهندوس واللادينيين. فهنا تتجلى أفريقيا المبتلاة بالرقص والجنس وشرب البيرة، والعزوف عن العمل.

والبلاد فقيرة. العملة هي الشلن التنزاني، والدولار يساوي ٨ شلنات تقريباً. والإيرادات والمصروفات تدوران حول ١٢ مليون شلن، والعجز في ميزان المدفوعات ٦٠٠ مليون دولار!

وهي في الأصل بلاد زراعية، وبها غابات شاسعة مساحتها ١٥٥ ألف ميل مربع، ومن هنا الثروة الخشبيّة الكبيرة لا سيما من أشجار الكافور والماهوجني والميموزا، إلى جانب المحاصيل الزراعية وأهمها البن والشاي والقطن والفول السوداني. وفي مجال التعدين يوجد بعض الماس، ويجري البحث عن اليورانيوم والذهب والفحم والبترول، لكن المشكلة هي «عدم العمل»، لا سيما بعد الشيوعية والتأميم!

في مزرعة جماعية

كانت السيطرة الإقتصادية والتجارية والزراعية للأجانب من البيض والملونين، وبصفة خاصة الهنود والباكستانيون الذين يملكون المتاجر والمزارع الكبيرة والمصانع. إلا أن الحكومة بعد التحول الاشتراكي - وهو شيوعي صيني - قامت بتأميم كل شيء، وإنشاء مزارع تعاونية جماعية تسمى الواحدة منها «أوجاما»، وهناك الآن زهاء ٨ آلاف أوجاما، هبط إنتاجها إلى حد كبير بدعوى الجفاف وغيره، ولدرجة أن الحكومة تستورد ٢٦٠ ألف طن من السلع الغذائية الاستهلاكية لمواجهة الجفاف والقحط والمجاعة!

ولقد زرت الكوميونات، أو المزارع الجماعية العظيمة في الصين الشعبية، حيث يعمل المجتمع الريفي بإيقاع سريع كخلية النحل، وحيث تنشأ الصناعات الزراعية في الموقع من زيوت فول الصويا وعباد الشمس والأذرة، إلى المربى والفواكه المحفوظة وكل أنواع المعلبات. وزرت «أوجاما» تنزانية على مقربة من دار السلام، فوجدت الاسترخاء، الإيقاع الرتيب البطيء، التواكلية بأجلى معانيها، وهي السبب الحقيقي لهبوط الانتاج، فالجدب الحقيقي ليس بسبب الجفاف بقدر ما هو بسبب العزوف عن العمل، ونقص الكوادر الإدارية، والأيدي المدربة، وتلك هي جناية الإستعمار على بلاد أفريقيا كلها، وليس تنزانيا وحدها!

السكة الحديد إلى شمال زامبيا

وفي خلال ٣ رحلات إلى تنزانيا عاصرت مد خط سكة حديد من ميناء دار السلام في تنزانيا إلى شمال زامبيا، لمسافة ١٨٦٠ كيلومتراً حيث

ينتهي عند مدينة نيوكابيري مبوشي، عند حزام النحاس الزمباوي، لنقل النحاس وتصديره، وقد تولت الصين الشعبية تمويل هذا الخط بمبلغ ٣٠٠ مليون شلن تنزاني، بل قام بمد الخط مهندسون وعمال من الصين.

الكرة التنزانية متخلفة

ولعل الظروف الإقتصادية من أسباب تخلف مستوى الكرة التنزانية، لأن المحلة والاسماعيلي والفريق القومي المصري فازوا على فرقها دائماً بسهولة. لكن من الغرائب الكروية أن لاعباً من المصري ببور سعيد تخصص في إحراز أهداف مصر في تنزانيا، وهو مسعد نور، ولذلك أسميته «مسعد نور السلام»، إشارة إلى دار السلام!

ألمـانيا الشـرقية

لماذا أصبحت ألمانيا الشرقية أعظم دولة رياضية في العالم؟
سياسة الدولة هي ضمان كفاءة الانسان ليجاري كفاءة الآلة!
الرياضة أصبحت جزءاً من الحياة اليومية للمواطن الألماني!
٣٣٪ من عدد السكان يلعبون مقابل واحد في الألف عند العرب!
قاعدة رياضية عريضة وتكنولوجيا للقمة وتخطيط وأولويات!
وصلنا إلى برلين لنشارك في أعياد الشباب فوجدنا أننا سقطنا سهواً!
التفوق العربي الوحيد في الأعياد كان في الشجب «والكلام»!
الفرقة القومية للفنون الشعبية تسرق الأضواء بميدان ألكسندر!
الجنس خلال الأعياد سداح مداح كما في الغابات والأدغال!
ربابة المطرب الشعبي مثقال تثير العجب والاعجاب!
شباب مصر ولبنان وفلسطين وسوريا في باخرة روسية!
رحلة بالقطار عبر رومانيا والمجر وبولندة وتشيكوسلوفاكيا!

فجّرت ألمانيا الشرقية قنبلة أوليمبية ورياضية حينما سبقت الولايات المتحدة الأمريكية في عدد الميداليات التي أحرزتها في دورة مونتريال عام ١٩٧٦، وهددت روسيا تهديداً مباشراً أثار ذهول النقاد والخبراء بل الشارع الرياضي العالمي كله!

ولكني لم أندهش لهذا التفوق لأني لمست في أعياد الشباب العالمية عام ١٩٧٣ أن ألمانيا الشرقية هي أعظم دولة رياضية في العالم. ذلك أن

تعدادها ١٧ مليون نسمة، ويمارس الرياضة فيها ثلث عدد السكان كجزء لا يتجزأ من حياتهم اليومية، ليس فقط في قطاع البطولة، فالبطولة قمة محدودة، وإنما في القاعدة العريضة من الشعب، في مستوى الطفولة، والشباب، والكهولة، والشيوخة، في مستوى الجنسين، فحتى ربات البيوت لهن برامج رياضية مقننة ومنفذة بدقة. وعندما تتسع القاعدة على هذا النحو ترتفع القمة، وعندما تصبح الرياضة جزءاً من الحياة اليومية للناس، فإنها تصبح ركيزة لارتفاع المستوى الصحي والمعنوي للثقافة.

لكن لماذا اتخذت الرياضة في ألمانيا الشرقية بالذات هذا الوضع المميز؟

هناك سببان: أحدهما اقتصادي قومي، والآخر سياسي!

السبب الأول أنه بعد قيام هذه الدولة في أعقاب الحرب العالمية الثانية وتقسيم ألمانيا، رأى الحزب الشيوعي - ويضم ٣ ملايين عضو فقط - أن الدولة يجب أن تتحول من مخزن زراعي إلى ترسانة صناعية. ثم كان السؤال: ومن يدير الآلة؟

وكان الجواب: هو الإنسان. ولذلك يجب أن نرفع مستوى كفاءة الإنسان، حتى يدير الآلة بكفاءة. ومن هنا وضع الحزب برنامجه بحيث يسير في خطين متوازيين، إنشاء المصانع ذات الكفاءة وتكوين الإنسان ذي الكفاءة لإدارة هذه المصانع، ولا سبيل إلى ذلك إلا بتعميم الرياضة لتكون للجميع، تعطي الصحة والحيوية والتفتح والاتزان للجميع، وقد كان!

السبب الآخر سياسي. فقد وجدت ألمانيا الشرقية تردداً في الاعتراف الدولي بها، بعد التقسيم، فأصرت على انتزاع احترام المجتمع الدولي عن طريق التفوق الرياضي، وقد كان!

حمولة عربية.. في باخرة روسية!

وقد استقلت بعثة الشباب المصرية باخرة روسية ضخمة من ميناء الاسكندرية، عرجت على بيروت لأخذ بعثتي فلسطين ولبنان، ثم على اللاذقية لشحن البعثة السورية، وأفرغت حمولتها الشبابية في ميناء كونستنز الروماني على البحر الأسود، لننتقل جميعاً بالقطار عبر رومانيا والمجر وبولندة وتشيكوسلوفاكيا إلى برلين الشرقية، وهناك وجدت مفاجأة تنظيمية غير سارة!

كنت إدارياً مسئولاً عن الجانب الرياضي في البعثة المصرية. ولكن «منظمة الشباب» في الاتحاد الاشتراكي كانت هي التي أعدت كل التنظيم. وكانت المنظمة في هذا الوقت مثل منظمات الشباب في النظم الشمولية ذات الحزب الواحد، قوة رهيبة، لكن عنايتها مركزة على دعم الحزب ومبادئه في نفوس الطلائع والشباب!

لا مسابقات للبعثة المصرية!

ومن هنا فإن قدرتها في التنظيم الكلامي هائلة لكن في التنظيم العملي هزيلة! ولذلك فوجئت بأن برامج المسابقات الرياضية في الأعياد قد وضعت دون ضم الفرق المصرية، نظراً لعدم اشتراكها في المواعيد

المحددة. وعبثاً حاولنا تعديل الجداول وإشراك الفرق المصرية لكرة القدم وكرة السلة والكرة الطائرة وكرة اليد والدراجات وألعاب القوى وغيرها. لكن تم الاتفاق على تدبير مباريات لها مع الشركات والأندية في مختلف المدن الألمانية! فلعبنا في ليبزيج مع اللوكوموتيف، وفي هاله مع شيمي هاله، وفي مجد بورج ودرسدن وفرانكفورت آم أودر على نهر الأودر، وهي غير فرانكفورت آم ماين الألمانية الغربية على نهر الماين وغيرها، لكنها جميعاً كانت مباريات هامشية، مباريات من قبيل تحصيل الحاصل أو سد الخانة، لا طعم لها ولا لون ولا رائحة، فالكل مجندون لأعياد الشباب!

تفوق عربي.. في الكلام!

هذا الفشل الذي لاقته البعثة الرياضية قابله نجاح هائل للبعثة الكلامية، بعثة المنظمة السياسية، التي ارتفعت عقائرها بالاحتجاج والشجب والطعن في العدوان الإسرائيلي، واستجداء الإشفاق! وكانت حرب اكتوبر لم تنشب بعد! وكان دعاة المنظمة يعودون مساء كل يوم إلى معسكر البعثة مرهقين مبحوحي الصوت من كثرة الكلام والشجب!

الفنون الشعبية في الشارع!

وكانت معنا في الجانب الفني الفرقة القومية للفنون الشعبية كاملة العدد، بأوركسترا سعيد أبو السعد والفنانات الراقصات عايدة رياض وشهيرة ودنيس والمطرب الشعبي مثقال، بالجلباب والربابة العجيبة،

والغناء الصعيدي التلقائي، والريس محمود بمزماره البلدي القادر على ترقيص الحجر!

وبحثت الفرقة في برنامج المهرجان فلم تجد لها مكاناً. كل الفرق لها مواقيت محددة لأداء عروض فلوكلورها الشعبي في مسارح معينة، أو في مسارح مؤقتة، مقامة في ميدان الكسندر الرهيب، إلا فرقة الفنون الشعبية المصرية، التي نسوا إدراجها كما نسوا إدراج الفرق الرياضية في البرنامج، حيث لم يكن يهمهم سوى «الكلام»!

وجاءني مدير الفرقة مبتئساً، وروى لي الحكاية، فقلت له: لا عليك، أعطني عايدة رياض والزمار وطبال، أقلب لك برلين رأساً على عقب!

وذهبنا إلى ركن في ميدان الكسندر الذي يمكن أن يستوعب نصف مليون نسمة بسهولة، ودق الطبال ونفخ الزمار «وتلعبطت» عايدة رياض، فخرج الناس من كل المسارح، وأهلّوا من كل الشوارع، يصفقون على الوحدة، ويتمايلون شمالاً ويميناً، من فرط النشوة، حتى كدنا نختنق من الزحام!

ولأن الدول الشيوعية بوليسية فإن الأخبار وصلت بسرعة إلى اللجنة المنظمة، فخلقت مسرحاً للفرقة القومية للفنون الشعبية، لتؤدي عروضها فيه على مدى ثلاثة أيام متوالية. ولأن الرقصات فولكلورية من مختلف الأقاليم والمحافظات، وتدور حول حكايات، فقد نصحت بتقديم كل رقصة باللغة الألمانية، حتى يتابعها الجمهور عن علم وفهم، وهكذا شرحنا لهم البمبوطية رقصة بور سعيد، والعصا رقصة صعايدة

سوهاج، والحجالة رقصة بدو مرسى مطروح وغيرها، وقامت بالشرح الراقصة دنيس التي تجيد الألمانية. وانبهر الجمهور بالفولكلور المصري، والمزمار البلدي، وانبهر أكثر بالفن الشعبي والغناء التلقائي الذي قدمه مثقال الصعيدي بمصاحبة الربابة، الأداة الموسيقية البدائية، التي لم يصدق الألمان أن تصدر عنها هذه الأنغام!

الجنس سداح مداح كما في الغابة!

وكنت دائما أخشى شيئين، طوال الإقامة في برلين الشرقية. أخشى الجنس، حيث وصلت الإباحية إلى مداها، بتعليمات من الحكومة الشيوعية، مؤداها أن ترضي بنات ألمانيا الشباب العالمي مهما كان الثمن! ومن هنا كان الجنس سداحاً مداحاً يزري بالبهيمية السائدة في الأدغال الأفريقية! ولأن كل شيء محسوب لدى الشيوعيين، فقد أقاموا قبيل تنظيم أعياد الشباب عدة ملاجىء للقطاء! وبالفعل أسفرت أعياد الشباب عن ٣٥ ألف لقيط! وكان سر خوفي أن معي بعثة رياضية من شباب تحت ٢١ سنة، وهم أمانة في عنقي، ولذلك وضعت لهم نظاماً للرحلات والتنقلات الجماعية، ومواعيد للنوم المبكر، لصونهم بقدر الامكان، رغم علمي أن تنفيذ هذه التعليمات في هذا الجو الإباحي من الصعوبة بمكان، لاسيا وأن المبادرة تجيء من البنات في معظم الأحيان!

وكنت أخشى السوق السوداء أيضاً! أخشى أن ينزلق الشباب فيتاجرون بالعملة، والألمان الشرقيون لا يرحمون في هذه الناحية، كأنها

مسألة كرامة، إلى جانب العواقب الاقتصادية. فالمارك الغربي يساوي أربعة ماركات شرقية في السوق السوداء، وليس ماركاً واحد كما في البنك. والانتقال بالمترو من برلين الشرقية إلى برلين الغربية مستمر طوال اليوم، عبر بوابة براندنبورج، وهو انتقال من الفقر إلى الغنى، كما يمكن أن يتبين المرء بمجرد نظرة في شارع إنتردين لِندن!

سر التفوق الألماني الرياضي

على أن أعظم ما خرجت به من أعياد الشباب هو دراسة سر التفوق الرياضي لألمانيا الشرقية. الأساس الاسبارتاكياد، أعياد الشباب المحلية، حيث يتم انتقاء المواهب والبراعم وتعهدها منذ الصغر، بمساعدة التكنولوجيا وأجهزة القياس، ثم يتم توجيهها إلى اللعبات المناسبة، ويتعهدها المدربون والعلماء والأخصائيون في معهد التربية الرياضية، حيث يكون التفرغ التام والرعاية الفنية والصحية والرياضية، ثم يطلق البطل في الميدان الدولي ليحقق ما يشبه الإعجاز!

هذا هو الطريق الذي سلكه كبار الأبطال الألمان في ألعاب القوى لاسيما الرمي، وفي سباحة الآنسات، وفي الجمباز، وغيرها من اللعبات المتعددة الميداليات، أما التجديف الذي تكتسحه ألمانيا الشرقية لدرجة إحراز ١٢ من ١٤ ميدالية ذهبية للجنسين في بطولة العالم فله معقل خاص هو نادي دينامو دريسدن، وهو آية من آيات الإبداع، وأمواج الأبطال فيه لا منافس لها سوى أمواج الأودر!

كذلك فإن هناك التخطيط وأولوية اللعبات للتركيز على بعضها والتمهيد لإضافة لعبات جديدة كل بضع سنوات. ولذلك نرى الألمان يظهرون الآن فقط في لعبات جديدة كالمصارعة ورفع الأثقال والسلاح! لكن الأساس الأصيل أن ٣٣٪ من الشعب يمارس الرياضة، وهي نسبة لا مثيل لها في العالم، والنسبة التي توازيها في مصر والبلاد العربية لا تزيد عن واحد في الألف! بكل أسف!

وإلى الجزء الثاني بإذن الله.

المحتويات

مطابع الشروق
بيروت : ص.ب : ٨٠٦٤ - هاتف : ٣١٥٨٥٩ - ٨١٧٧٦٥ - ٨١٧٢١٣ - برقياً : داشروق - تلكس : SHOROK 20175 LE
القاهرة : ١٦ شارع جواد حسني - هاتف : ٧٧٤٨١٤ - ٧٧٤٥٧٨ - برقياً : شروق - تلكس : 93091 SHROK UN